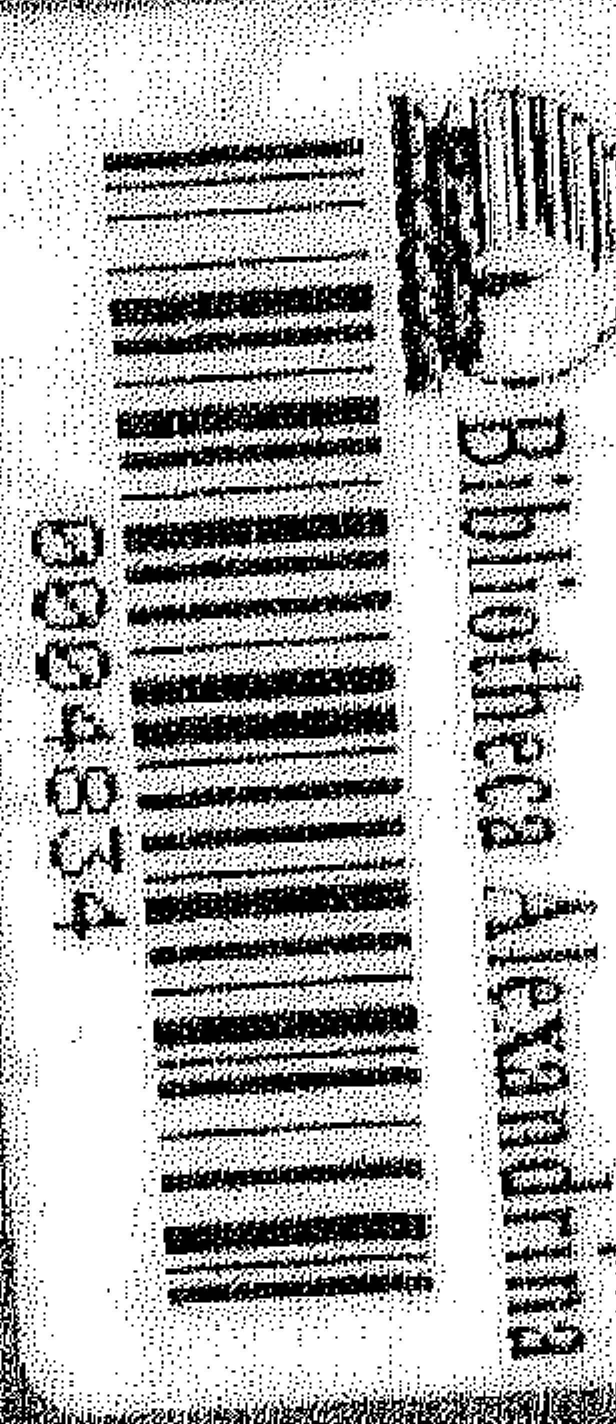
الدكتور محمد عمارة



دار الشروق

الإسلام والعروبة



الإسلام والعروبة

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ برقيا: شروق - تلكس: [illegible] SHROK UN
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ برقيا: داشروق - تلكس: [illegible] 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET LONDON W1 UK TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK 267780

الدكتور محمد عمارة



دار الشروق

تمهيد

عندما يكون الحديث عن الإسلام ، وموقفه من « العروبة » ، و « القومية العربية » ... وموقفه من « الوحدة العربية » .. فلابد من التنبه والتنبيه إلى أننا بإزاء أكثر من « إسلام » ؟! ..

● فهناك « **الإسلام : الدين** » ، كما تمثل ويتمثل فى **النص القرآنى** الموحى به من الله ، سبحانه وتعالى ، إلى الرسول محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى « **السنة النبوية التشريعية** » ، التى جاءت تفصيلا لمجمل القرآن وشرحا لموجزه ، وفتاوى فى قضايا الدين ... وهذان المصدران هما اللذان تجسدا ، ثمرة « للاجتهاد » ، فى « علوم الوحى » ، أى « العلوم الشرعية » ..

هذا هو « الإسلام : الدين » ..

● وهناك « **الإسلام : الحضارة** » ، كما تمثل ويتمثل فى ثمرات « **العقل** » المسلم و« **تجربة** » المسلمين فى مختلف مناحى الحياة الدنيا ، التى يستطيع العقل الإنسانى أن يدرك حسنها أو قبحها ، نفعها أو ضررها ، دون عجز أو قصور يضطره إلى أن يستلهم فيها رأى الوحى وكلمة السماء ..

ولقد عرف العرب المسلمون « الإسلام : الحضارة » منذ تأسيس دولتهم الأولى ، دولة المدينة ، تلك التى كانت « بيعة العقبة » عقدا تأسيسيا لها ، والتى

تبلورت « مؤسساتها » تدريجيا ، منذ هجرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ..

فلم تكن الدولة هدفا من أهداف الوحى ، ولا مهمة من مهام النبوة والرسالة ، ولا ركنا من أركان الدين ، وإنما اقتضتها ضرورة حماية الدعوة الجديدة ، والدفاع عن الدعاة المؤمنين ضد اضطهاد المشركين ، فكان تأسيسها وتدعيمها انجازا سياسيا وحضاريا وقوميا ، حفظ الدين ، ودافع عنه ، وساعد على انتشاره ، على الرغم من أنه ليس جزءا أصيلا من مهام النبوة والرسالة ولا هو أصل من أصول الدين !..

وفى ظل هذه « الدولة » ، وعلى مر التاريخ تبلورت الحضارة الإسلامية فى المحيط العربى أولا ، ثم فى محيط الشعوب التى أسلمت ولم تتعرب .. وكانت « **العلوم العقلية** » وثمرات « **التجربة الإنسانية** » ، من كل مايستطيع العقل المسلم إدراك حسنه أو قبحه ، نفعه أو ضرره ، البناء الذى تجسدت فيه هذه الحضارة ، التى هى : « **الإسلام : الحضارة** » ... أو مانسميه : « الحضارة الإسلامية » ، وفى محيطنا العربى نؤثر أن نسميها : « الحضارة العربية الإسلامية » ..

● وهناك « **الإسلام : التاريخ** » ، الذى عاش المسلمون فى ظله بعد جمود حضارتهم وتوقفها عن النمو والازدهار والإبداع والعطاء .. وعلى وجه التحديد منذ سيطرة الجند الترك المماليك المجلوبين على مقاليد الأمور فى الدولة العباسية تلك السيطرة التى ظهرت آثارها الأولية منذ عهد الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) ..

فمنذ ذلك التاريخ تراجعت ـ تدريجيا ـ القسمات الجوهرية « **للإسلام : الدين** » ، وبرزت الزوائد والشوائب والبدع والخرافات ، وشهد المجتمع الإسلامى مرحلة اجترار الجوانب المتخلفة من تراثه الدينى ، وساد « النصوصيون » وعبدة المأثورات ، واخذ « الجامعون والململمون والمصنفون » يوجزونها فى المتون ويفصلونها فى « الحواشى والشروح والتعليقات ، وشروح الشروح والتهميشات على التعليقات ! » ... وتراجعت كذلك القسمات الجوهرية « **للإسلام : الحضارة** » ، وفى مقدمتها قسمة « **العقلانية** » وقسمة « **العروبة** » ، اللتين مثلتا وجهى عملة الحضارة العربية الإسلامية فى عصر العطاء والازدهار ..

ولقد كان وراء هذا التراجع « للإسلام الدين » و « الإسلام الحضارة » غربة السلطة العسكرية الحاكمة عن حضارة الأمة ، الأمر الذى انتكس بقسمة « العروبة » ... وأيضا جهلها ـ بسبب من طبيعة اهتماماتها ، وأساليب تربيتها كجند مماليك ـ جهلها بحقيقة جوهر الإسلام ..

فعندما تقصر المدارك عن أن تعى الإسلام ببراهين العقل ، فلن تستطيع هذه المدارك أن تدرك دينا جعل العقل حاكما ، فى شريعته ، حتى على النصوص والمأثورات ! ..

● وأخيرا .. فإن هناك ـ وبالأحرى هنا ـ « **الإسلام : المعاصر** » .. ذلك الذى تمثل ويتمثل فى حركة البعث والتجديد والنهضة والاحياء التى ظهرت فى القرن الميلادى التاسع عشر ، وهى الحركة التى استنفرتها الهجمة الاستعمارية الأوربية الحديثة ، تلك التى بدأت بحملة بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨م ..

ولقد تجسد هذا « الإسلام : المعاصر» فى تيار عريض ، هو تيار البعث الإسلامى ، وان تكن قد تميزت فى محيط هذا التيار العريض الدعوات والحركات والمذاهب إلى حد ما ، حينا ، وإلى حد كبير فى بعض الأحايين.. فمن (الوهابية) .. إلى (السنوسية) .. إلى (المهدية) .. إلى (الجامعة الإسلامية) التى بلور تيارها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .. الخ .. الخ ..

وثمرات هذا البعث والتجديد ، إن فى العقائد أو فى الحضارة ، هى التى نسميها : « الإسلام : المعاصر» !..

* * *

وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد لنا كى نعى حقيقة موقف الإسلام من « العروبة » و« القومية العربية » ... وحقيقة موقفه من « الوحدة العربية » .. من أن نبحث عن الموقف من هذه القضية لدى : « **الإسلام : الدين** » .... و« **الإسلام : الحضارة** » .... و« **الإسلام : التاريخ** » ... و« الإسلام : المعاصر» ..... وذلك حتى لا نقع فى الغموض والتعميم !

الإسلام : الدين .. والعروبة

صحيح أن « الإسلام الدين » يتميز « بعالمية لا تعرف الحدود ولا الفواصل التى ترسمها ، على الأرض الأجناس والقوميات والحضارات .. وأنه لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .. ذلك أن أصول هذا « الإسلام الدين » تتمثل أساسا فى :

● توحيد الألوهية ، التى بلغت فى تصوره الاعتقادى ، أرقى صور « التنزيه » و « التجريد » ...

● والإيمان بالبعث الأخروى ، حيث الحساب والجزاء ..

● والعمل الصالح ، المؤسس على التكليف ، المرتب على امتياز الإنسان بالعقل والرشد والتمييز والاختيار ...

وهذه الأصول الدينية إنما تأتى ، فى « الإسلام الدين » وحيا خالصا ، وهى قد نزلت على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على النحو الذى نزلت فيه على من سبقه من الأنبياء والرسل الذين بعثوا إلى غير العرب من الأمم والشعوب ..

والقرآن الكريم ، فى هذه الأصول الدينية ، إنما جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، ولما سبق رسالة محمد من رسالات .. (ومن قبله كتاب

موسى إماما ورحمة ، **وهذا كتاب مصدق** لسانا عربيا)[1] .. وهو ـ أى القرآن ـ قد نزل (**بإذن الله مصدقا لما بين يديه** وهدى وبشرى للمؤمنين)[2] .

إذن ، فالإسلام ، كدين ، ومن حيث أصوله الاعتقادية ، ليس « خصوصية عربية » ، حتى يكون قسمة من قسمات العرب القومية .. وإنما هو ، من هذا الجانب ، وفى هذه الأصول ـ علاوة على كونه « وضعا إلهيا » ، وليس إفرازا بشريا ـ ذو قسمة عالمية وإنسانية ، وذو طابع عام يتعدى الأمم والشعوب والقوميات والحضارات .. إنه ، فى مجاله ، كالقوانين العامة ، التى ـ لعلميتها ـ تتعدى بصلاحياتها وتوجهها كل ما على الأرض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود ..

إننا هنا بإزاء « الإسلام الدين » ، الذى لا يعنى « بالقومية » . أية قومية **لكن هذا لايعنى أنه ينكر « القومية » أو يناصبها العداء ، كما توهم ذلك واهمون كثيرون !.. ذلك أن عالمية الإسلام . كدين ، لاتعنى إنكاره أو تنكره « للواقع » الذى يعيش فيه الناس ، « والقومية » بعض من هذا الواقع الذى تعيشه الجماعات البشرية ، يستوى فيه المسلمون وغير المسلمين !..**

* * *

بل لعلنا واجدون بين « الإسلام الدين » وبين « العروبة » ما هو أكثر من « تعايشه » معها ، كحقيقة ، وقبوله لها ، كواقع ... واجدون بينهما روابط وعلاقات ، لاتنفى « التناقض » بينهما ، فقط ، وإنما تجعل منهما مزيجا يبدو منه

---

(١) الأحقاف : ١٢ .

(٢) البقرة ٩٧ .

الإسلام وبه ـ فى بداياته الأولى ، وفى واقع أمتنا العربية ـ دينا عربيا .. كما تبدو أمتنا ، فى هذا الضوء : شعب الإسلام المتميز بين كل الشعوب التى شرفت بالتدين بهذا الدين !..

● فالشريعة الإسلامية ، التى نزل بها وحى الله ، قد نزلت على محمد بن عبد الله : العربى ... ومعجزة هذا الدين وآيته الكبرى ، وهى القرآن الكريم قد جاءت بلسان عربى مبين .. بل وعلى نحو من البلاغة والإعجاز جعل محاكاتها مستعصية على بلغاء العرب ، على مر التاريخ ، كما جعل فهمها ووعيها وفقهها مستعصيا بأية لغة أخرى غير العربية . فإذا كانت ترجمة معانى القرآن مجدية فى فهم بعض هذه المعانى ، فإن ترجمة نصه إلى أية لغة أخرى إنما يشوه هذا النص ويذهب بما لألفاظه من معان ودلالات وإيحاءات ! .

فها نحن نعود ، فنجد « الإسلام الدين » ، رغمَ عالميته التى تتعدى وتتخطى حدود القوميات والحضارات والأجناس ، نجده يطلب من أتباعه ان هم أرادوا فقه معجزته ووعى آيته الكبرى ، أن يتعربوا ؟!..

وتلك ، ولا شك ، « خصوصية عربية » للإسلام ، لا ريب فيها ولا إبهام ، رغم « عالمية هذا الدين » !

● والجماعة البشرية العربية ، الذين ظهر فيهم الإسلام أولا .. والذين حملوا عبء التبشير بهديه والدعوة إلى نهجه والدفاع عن عقائده ، والذين أقاموا لذلك : دولة ، وبلوروا لتلك المهمة : حضارة .. هؤلاء العرب قد غدوا ، حتى بإزاء هذا « **الدين العالمى** : « **الطليعة** » ، التى أخذت على عاتقها ، بتكليف واصطفاء من السماء ، نشر هذا الدين وحفظه .. وإذا كان

الله هو الحافظ للذكر الذى أنزله ، فإن طلائع خلفاء الله فى النهوض بهذه المهمة القدسية كانوا هم العرب المسلمين .

ومرة أخرى . نعود فنجد أنفسنا بإزاء « دين عالمى » . الخطاب به موجه إلى الكافة ، والدعوة فيه إلى الناس أجمعين ، عربا وغير عرب ، ولكن للعرب فى دعوته العالمية مكان « الطليعة والقيادة » ، بحكم عروبة النبى ، وعروبة القرآن ، ونهوض الواقع العربى ـ من حيث هو « سبب نزول الوحى » ـ بدور المذكرة التفسيرية » للنص القرآنى . وبدء الدعوة إليه فى المحيط العربى ونهوض العرب بدور « الكتيبة الأولى المتقدمة » فى جيش دعوته .. وتلك ، ولا شك ، « خصوصية عربية » خصهم بها الإسلام ، واصطفاهم لها شارع هذا الدين ! ..

● بل إننا لواجدون فى « عالمية الإسلام » . كدين . مايزيد من « خصوصية العرب واختصاصهم » فى هذا المجال .. فإذا كانت الديانات السابقة على الإسلام قد تميزت ـ وفق التصور الإسلامى ـ بالمحلية والإقليمية فى إطار أمة أو شعب أو قرية أو قبيلة .. على حين تميز الإسلام وامتاز بالعالمية فإن موقع العرب . « كطليعة » للدين الإسلامى . يتعدى نطاق وطنهم وموطنهم إلى حيث يصبحون « طليعة » لهذا الدين على نطاقه العالمى ..

وفى ذلك ، ولاشك ، « خصوصية للعرب » ، تميزهم وتمتاز بهم على الأمم الأخرى ، حتى فى إطار الدين ! .. لكنه تميّز وامتياز « حامل المسئولية » و « الأمين » على الامتياز ؟ ! .

* * *

الإسلام : الحضارة .. والعروبة

والحضارة ـ فى لغتنا وتراثنا ـ هى ذلك الطور الأرق الذى بلغه الإنسان العربي عندما تجاوز حياة البداوة ؛ فاستقر وتوطن ، وأصبح « حاضرا » فى المكان ـ الأمر الذى صحبه امتلاكه « لقيم ونظم وعادات وأعراف وأفكار وعلوم » مثلت بناءه الحضارى ..

هذا هو مفهوم الحضارة ـ ونقطة بدئها فى تراثنا العربى ..

ففى مقابل « البداوة » والترحال كانت « القرية ـ والمدينة » حاضرة متحضرة .. وفى القرآن الكريم : (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر)[1] ..

و « الحضارة » و « البداوة » نمطان متمايزان ـ بل ومتقابلان فى كل الميادين ـ تقريبا .. وعند شاعرنا أبي الطيب المتنبى (٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ ٩١٥ ـ ٩٦٥م) نجد :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يقصدوا فعلوا

وعنده أيضا ـ حتى فى الذوق والحس الجمالى :

---

(١) الأعراف : ١٦٣ .

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب !

وإذا كان الإسلام قد ظهر فى أكثر البيئات العربية تحضرا ، فى مكة (أم القرى) ، فلقد ميز ، حتى فى الإطار الدينى ، بين « البدو » وبين « الحضر » ، بين الأعراب وبين المتحضرين ، **حتى لقد كاد أن يقول قرآنه الكريم : إن السمة الأساسية والغالبة هى ملاءمة « الإيمان » بالإسلام للحضر والحضارة والمتحضرين** .. وأنه إذا كان (من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر)[1] فإن (الأعراب أشد كفرا ونفاقا)[2] (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما)[3] (وممن حولكم من الأعراب منافقون)[4] و(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا)[5] و (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم)[6] .

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة قد مثلت نجاة نواة الأمة المؤمنة بدينها من الاضطهاد والحصار ، فلقد استمرت الدولة العربية الإسلامية ، بالمدينة وهى قاعدة « **الإسلام** : **الحضارة** » ، وباكورة انجازات العرب المسلمين

---

(١) التوبة : ٩٩ .
(٢) التوبة : ٩٧ .
(٣) التوبة : ٩٨ .
(٤) التوبة : ١٠١ .
(٥) الفتح : ١١ .
(٦) الحجرات : ١٤

الحضارية ، استمرت فى دعوة الأعراب والبدو إلى الهجرة للمدن والتوطن فيها وفيما حولها ، أى الهجرة إلى التحضر والحضارة ، وتجاوز النقيض ، الذى هو البداوة . حتى لقد اعتبرت السنة النبوية الشريفة رجوع المهاجرة من المدينة ـ الحاضرة ـ الحضارة ـ إلى « البداوة » : « **ردة** » !.. فاستخدمت مصطلح « **الردة** » فى وصف العودة عن « الحضارة » إلى « البداوة » .. حتى لقد سأل الحجاج بن يوسف الثقفى (٤٠ ـ ٩٥هـ ٦٦٠ ـ ٧١٤م) «سلمة بن الأكوع » ، مستنكرا : « ياابن الأكوع ، ارتددت على عقبيك ؟ تعربت ؟! .. » ـ أى ارتددت أعرابيا بدويا ؟! ـ فقال له سلمة : « لا . ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أذن لى فى البدو .. »[1] .. وفى حديث عبد الله بن مسعود : « ... والمرتد أعرابيا ، بعد هجرته ، ملعون على لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[2] !

ولذلك ، فلم يكن غريبا أن تكون « الدولة » العربية الإسلامية ، التى تأسست بتعاقد « بيعة العقبة » ، وبدأ بناؤها بالهجرة ، هى نقطة البدء فى بناء الحضارة العربية الإسلامية .. ولا غريبا أن نجد « للعرب والعروبة » المكان المتميز فى هذه الحضارة .. حضارة الإسلام ، كما وجدنا ذلك لهم فى هذا « الدين » دين الاسلام !.

فماذا فى « **الإسلام : الحضارة** » عن « العروبة والعرب » ـ مادة القومية العربية وموضوعها ـ ؟؟..

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

(٢) رواه النسائى وأحمد بن حنبل .

من القضايا التى انعقد عليها إجماع العلماء والباحثين **أن جوهر « الإسلام »** **هو « التوحيد »** !.. ونحن نستطيع أن نقول : إن أبرز « عملة » سكّها الإسلام ، عند ظهوره فى شبه الجزيرة العربية ، قد حمل وجهها الأول : **« التوحيد الدينى »** فى الألوهية ، ووجهها الثانى : **« التوحيد القومى »** فى الحضارة والدولة والسياسة والهُوية .. ولقد اتصل التأثير وتبادل بين الوجهين فساعد « التوحيد الدينى » على اتساق هوية الجماعة البشرية العربية ، قوميا وسياسيا ، بعد أن كان تعدد الآلهة يجسد تمزقها القومى والسياسى ، كما أسهم « التوحيد القومى والسياسى » ، فى الدولة الجديدة ، أسهم فى حفظ الدين ونشره ، الأمر الذى مد فى عمر « التوحيد الدينى » ومداه حتى رفرفت أعلامه على عالم الإسلام الفسيح .

فالتزامل ، منذ البداية ـ وليس الانفصام ، فضلا عن التناقض ـ كان طابع العلاقة بين « التوحيد الدينى » و « التوحيد القومى والسياسى » فى حركة الإسلام .

● فالقرآن الكريم يتحدث عن أثر « التوحيد الدينى » فى « تأليف قلوب » العرب ، بعد أن كان تمزقهم وتناحرهم قد جعلا منهم فريسة للقوى التى أحاطت بهم واقتطعت الأجزاء تلو الأجزاء من وطنهم ، حتى كادت تحتويهم جميعا .. الروم البيزنطيون من الغرب والشمال . والفرس من الشرق والأحباش من الجنوب .. (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره)[1] ... كما يتحدث عن

---

(١) الأنفال : ٢٦ .

ذلك « التأليف » للعرب ، الذى صنعه « الدين » الجديد . فى موطن آخر فيقول مخاطبا لهم : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ..)[1] .. وفى صراع الإسلام ودولته ضد أعدائهما يتحدث الله ، سبحانه ، عن دور « الدين » فى « تأليف العرب قوميا وتآلفهم » ، مشيرا إلى استحالة هذا الإنجاز ، بدون « الدين » فى ذلك المحيط القبلى البدوى المتناحر ، فيقول لنبيه : (... إن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم)[2] .

● ومع بداية البعثة النبوية ، حدث أول نصر للعرب على الفرس ، فى « يوم ذى قار » ، فلم يدع النبي – صلى الله عليه وسلم – فرصته تمر دون أن يبشر العرب بدلالته ، فقال : « اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبى نصروا .. »[3] !.

وعندما يحدّث الرسول عمه أبا طالب عن « التوحيد الدينى » يؤكد على أثره فى « التوحيد القومى العربى » . الذى سيجعل للعرب زمام قيادة الشرق فينتصفون وينتقمون من الذين أذلوهم – قوميا – كثيرا وطويلا : الفرس والروم ، والأحباش .. يقول : « ياعم : ألا أدعوهم إلى كلمة يقولونها

---

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) ابن عبد ربه « العقد الفريد » ج ٥ ص ٢٦٢ . تحقيق : د . أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبيارى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

تدين لكم بها العرب ، وتؤدى إليكم العجم الجزية ؟! ـ .. والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله ؟ » ...

وفى موطن آخر يؤكد النبى هذه النبوءة فيقول : « إن أمتى ستظهر على « الحيرة » وقصور كسرى ، وأرض الشام والروم ، وقصور « صنعاء » .. وبشر المسلمين بذلك ؟ » [1]

● والله ، سبحانه وتعالى ـ فى عقيدة « التوحيد الدينى » الإسلامية ـ يتنزه عن المكان ، ويستعصى عن التحيز فى جهة من الجهات .. وأينما يول المسلم وجهه فى الدعاء أو الصلاة فثم وجه الله .. لكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته كانت قلوبهم تهفو إلى أن تصبح الكعبة ، قدس أقداس العرب منذ القدم ، ومقصد حجيجهم على مر العصور ، وفى ظل مختلف العقائد .. كانت تهفو قلوبهم إلى أن تكون الكعبة هى قبلتهم فى الصلاة ، فبها يتميزون عن أصحاب الديانات التى مثلت بالنسبة إليهم فى الماضى فكرا غازيا يمهد الأرض لنفوذ الروم والأحباش ؟ .. ولقد استجاب الله لرغبتهم ، فأذن لهم بالانصراف عن التوجه إلى بيت المقدس ، وأصبحت الكعبة لهم قبلة (قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فوّل وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره) [2] ..

● ومنذ اللحظة الأولى لبناء الدولة العربية الإسلامية الأولى ، فى المدينة ـ

---

(١) ابن الاثير « الكامل فى التاريخ » ج ٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣ .
(٢) البقرة : ١٤٤ .

وهى الانجاز الأول والأعظم « للإسلام : الحضارة » ـ وضح طابعها القومى للعيان .. فلقد تألفت « رعيتها السياسية » من : العرب المؤمنين بالدين الجديد مهاجرين وأنصارا، وأيضا من أهل يثرب العرب الذين كانوا يتدينون باليهودية ، من قبائل : بنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى الأوس .. أى أن « **الرعية السياسية » لهذه الدولة قد تكونت من العرب ، رغم اختلاف الدين ، أى وفق معيار قومى عربى** ، فضمت المهاجرين والأنصار ـ من المؤمنين بالإسلام وضمت معها الأجزاء التى تهودت من قبائل المدينة ، وهى على يهوديتها .. ولقد عبر الدستور السياسى لهذه الدولة ـ وهو الذى يسميه المؤرخون : « الصحيفة » ـ و « الكتاب » ـ عبر عن هذه الحقيقة القومية عندما نص على أن ... « ... المؤمنون والمسلمون ، من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أمة واحدة من دون الناس ... وأن اليهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. »[1] . على حين لم يدخل فى هذه « الرعية السياسية » اليهود العبرانيون ، من سكان الواحات الزراعية والذين « حالفوا » الدولة الجديدة حينا ، ثم نقضوا عهدهم معها ، فكانت الحرب التى أجلتهم عن هذه الواحات .

● وفى هذه الدولة الجديدة قدم « الإسلام : الحضارة » مفهوما للعروبة يتجاوز عصبية الجاهلية ويرفضها ، ويتجاوز النعرات العرقية وينهى عنها ويضع محل كل ذلك مفهوما حضاريا ، يعتمد الفكر واللغة والعلائق القومية بين أبناء هذه الجماعة البشرية معيارا لمن هو العربى .. فيخطب الرسول ـ صلى

---

(١) النويرى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ج ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ . طبعة دار الكتب المصرية .

الله عليه وسلم ـ فى الناس قائلا : « أيها الناس ... ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ـ (اللغة) ـ فمن تكلم العربية فهو عربى »[1] !

وعندما يسأله الصحابى واثلة بن الأسقع :

ـ يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟

ـ يجيبه :

ـ لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ؟.. »[2]

فهذه هى عصبية الجاهلية ، القائمة على الرباط العرقى وحده ، والتى تجعل المرء ينصر بنى جلدته ، حتى ولو كانوا ظالمين ، وهى التى سماها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « دعوى الجاهلية » ، وقال لقومه : « دعوها ، فإنها منتنة ! »[3] .

وفى هذه الدولة العربية الإسلامية ، تحدث الرسول ، أيضا ، عن مكان العرب ، فقال ، فى الحديث الذى يرويه عنه على بن أبى طالب : « لا يبغض العرب إلا منافق ! »[4] .

ولقد تأكدت الرابطة « الحضارية ـ القومية » بالاعتراف للموالى ، الذين أصبحوا عربا باللغة والهوية والولاء ، رغم ولادتهم من أصول عرقية غير

---

(١) « تهذيب تاريخ ابن عساكر » ج ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

(٢) رواه ابن ماجة وابن حنبل .

(٣) رواه البخارى والترمذى .

(٤) رواه أحمد بن حنبل .

عربية ، بالاعتراف لهم بأنهم عرب ، وعلى قدم المساواة ، فى العروبة ، مع العرب الاقحاح !... **ذلك أن « الإسلام الحضارة » قد جعل اللغة والتعرب والولاء للجماعة الجديدة رباطا هو والرباط العرق والنسبي سواء بسواء** . وفى ذلك جاءت الأحاديث النبوية التى عبرت عن هذا التنظيم « الاجتماعى - القومى » الجديد ، الذى توحدت به الجماعة البشرية العربية ، رغم اختلاف أصولها العرقية .. فطالعنا أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - التى تقول : « مولى القوم منهم ...[1] والولاء لحمة كلحمة النسب .. »[2] .. فاندمج الموالى فى القبائل العربية ، أو كونوا قبائل مستقلة ، وقرر لهم « الإسلام : الحضارة » كامل المساواة القومية - فضلا عن الدينية - مع العرب الاقحاح !.

● وعندما جاءت الفتوحات العربية لتمتد بحدود الدولة إلى حيث يتحرر العرب الذين أخضعهم سلطان الفرس والروم ، وقف العرب فى العراق والشام . وكذلك المصريون - ذوو الأصول السامية - مع العرب المسلمين رغم خلافهم الدينى مع الفاتحين ، واتفاقهم فى الدين مع الفرس والروم !.. **فأسهم الجميع - جميع العرب - فى بناء الدولة العربية ، التى ظل الإسلام والمسلمون فيها أقلية عددية لنحو قرنين من الزمان !.. فكانت إنجازا عربيا قوميا ، ولم تكن « دولة دينية » ، كما يتوهم ذلك الذين لايعلمون !.**

● وعندما بدت فى الأفق مظاهر الانتكاس لهذه المفاهيم القومية العربية التى ألقاها فى تربة الدولة العربية « الإسلام : الحضارة » ، بفعل « **العصبية**

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه أبو داود والدارمى .

القبلية » ، التى أحياها الأمويون . وبفعل « **الشعوبية** » ، التى غذاها دهاقنة الفرس ، برزت فى الساحة : التيارات الفكرية العربية التى أمسكت بخيط الفكر القومى اللاعرقى . ثم ذهبت تسعى لبلورة فكر قومى عربى . لا عرقى يؤلف بين أبناء الدولة الكبيرة فى كل قومى واحد .. وكان التيار العقلانى ـ والمعتزلة فى طليعته ـ رائد هذا المسعى وذلك الإنجاز .

والجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م) ـ من المعتزلة ـ يفرد لهذا الغرض ـ غرض التأليف القومى لعناصر الدولة وشعوبها ـ بعض تآليفه ، ويعلن فى مقدمة أحدها عن ذلك فيقول : « **وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة ، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت فى النسب ، وكم مقدار الخلاف فى الحسب . فلا يغير بعضهم مغير ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة . وشبهات مزورة . فإن المنافق العليم . والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لهم الباطل فى صورة الحق . ويلبس الإضاعة فى ثياب الحزم ؟! ..** »[1]

فهو يتحدث عن مهمة التأليف القومى بين الجماعات المنحدرة من أصلاب متعددة ، والتى كانت تنتسب أصولها إلى حضارات مختلفة ، والتى غدت الآن رعية واحدة للدولة العربية ، يتحدث عن هذه المهمة باعتبارها ضرورة يحيط بها الأعداء والمناهضون ، من أصحاب « العصبية القبلية » ومن دعاة

---

(١) «رسائل الجاحظ» ج ١ ص ٢٩ . تحقيق : الأستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

« الشعوبية » ، ويتربصون بها الدوائر ، طمعا فى الحيلولة دون التآلف القومى العربى الجديد .

ثم يتحدث الجاحظ عن الروابط التى نشأت ونمت بين رعية الدولة العربيه ، والتى أخذت تمثل خيوطا قومية تشدهم جميعا لمركز واحد ، وتكوّن منهم «كلا قوميا واحدا » وفى مقدمة هذه الخيوط والقسمات روابط ، اللغة الواحدة .. والفكر الواحد .. والعادات والتقاليد والشمائل .. والتكوين النفسى ... ويرى الجاحظ أن هذه الخيوط والقسمات قد غدت من المتانة والرسوخ والوضوح بحيث فاقت « وحدة النسب »؟! ... **فالذين يتحدون فى النسب ، مثل العرب والعبرانيين ـ أبناء إسماعيل وإسحق ، وَلَدَىْ إبراهيم ـ قد صاروا أمتين ، قوميا ، لاختلاف السمات القومية ، على حين وحدت هذه السمات بين ذوى الأصول العرقية المختلفة ، مثل العرب العدنانيين والعرب القحطانيين ! ..**

يقول الجاحظ : « إن العرب قد جعلت إسماعيل ، وهو ابن أعجميين ـ (إبراهيم وهاجر) ـ ، عربيا ، لأن الله فتق لهاته[1] بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ..وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها ... فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب ... **وأن العرب لما كانت واحدة ، فاستووا فى التربية وفى اللغة ، والشمائل ، والهمة ، وفى الأنفة والحمية ، وفى الأخلاق**

---

(١) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم ، مشرف على الحلق .

والسجية ، فسبكوا سبكا واحدا ، وكان القالب واحدا ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط . وحين صار ذلك أشد تشابها فى باب الأعم والأخص وفى باب الوفاق والمباينة ، من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق فى الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى ، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى إسحق ، وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك فى جميع الدهر لبنى قحطان ... إن هذه المعانى قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة ؟! ... »[1] .

فاللغة ، والطبائع ، والأخلاق والشمائل ، والولاء المتحد لهذه الروابط الجديدة الجامعة ، قد غدت قالبا واحدا ، سبكت فيه هذه الجماعة البشرية سبكا جديدا وواحدا ، حتى صارت هذه العلائق والسمات القومية : « رحما ماسة » ، ولدت منها هذه الجماعة « ولادة أخرى » ، رغم اختلاف أصولها العرقية والحضارية السابقة على هذا التآلف القومى الجديد .

● وفى « الإسلام : الحضارة » ، يلفت أنظارنا ، كذلك ، موقف الفقهاء والمتكلمين وأعلام الفكر السياسى الإسلامى ، عندما يتحدثون عن « عروبة الدولة » وسلطتها العليا ــ (الخليفة ــ الإمام) ــ كموقف « إسلامى » ، وشرط من شروط « الإسلام » فيمن يتولى رئاسة الدولة الإسلامية ... فكثيرون منهم قد اشترطوا أن يكون الخليفة والإمام عربيا من قريش ...

وجدير بالذكر والملاحظة أن هذا الشرط لم يظهر فى الفكر السياسى

---

(١) « رسائل الجاحظ » جـ ١ ص ٢٩ ــ ٣١ ، ١١ ــ ١٤

الإسلامى إلا عندما بدأ تغلب الأسر الأعجمية والاتجاهات الشعوبية على الخلافة العربية العباسية . وظهرت آثار السيطرة المملوكية التركية على الدولة منذ عصر المتوكل العباسى (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) .. فكان اشتراط « قرشية » الخليفة تعبيرا عن موقف قومى عربى ضد عجمة الدولة . ممثلة فى رأس سلطتها وقائدها الأعلى ..

وحتى الذين لم يشترطوا « قرشية » الخليفة . أى عروبته النَّسَبية . نراهم قد اتفقوا مع غيرهم . من الذين اشترطوها . اتفقوا جميعا على أن يكون الخليفة بالغا فى الفقه والعلم درجة « الاجتهاد » ـ إذا توفرت هذه الدرجة فيمن يصلح لهذا المنصب ـ .. ومعلوم أنه لن يبلغ امرؤ مرتبة الاجتهاد . فى عرف الإسلام إلا إذا وصل فى فقه القرآن العربى والسنة النبوية العربية . وفى علوم العربية اللازمة لفقه مصادر الشريعة حدا يجعله . بالمعايير الفكرية والثقافية والحضارية . عربيا ؟! ..

فخلف هذا الشرط ـ شرط « قرشية » الإمام ، أو اجتهاده ، أو هما معا ـ كان موقف « الإسلام : الحضارة » مع عروبة « الدولة » ، وضد سيطرة العجمة والشعوبية على مقاليدها ! ..

فإذا أضفنا إلى ذلك أن شرط « الاجتهاد » مطلوب ومعتبر فيمن يتولى سلطات التشريع فى الدولة الإسلامية . علمنا أن الطابع العربى لهذه الدولة هو أمر مقرر ومطلوب ! ..

* * *

هكذا .. وقف « الإسلام : الحضارة » مع العروبة ، ومع السمات والقسمات التى أخذت تشد الجماعة البشرية العربية إلى حيث الطريق المؤدى إلى امتلاكها قسمات القومية العربية الواحدة ..

ومن قبل رأينا كيف وقف « الإسلام : الدين » مع العروبة ، عندما جعل للعرب مكانا متميزا فى دعوته وحركته ـ رغم عالميته فى أصول الاعتقاد ـ .

وصدق الله العظيم عندما جعل القرآن الكريم ، وهو آية الإسلام الكبرى ومعجزته الخالدة ، فخرا للعرب ، كأمة ، كما هو فخر لمحمد ، كرسول ، فقال سبحانه ، مخاطبا نبيه : (وإنه لذكر لك ولقومك) ... ثم أضاف ، منبها العرب على أنه سائلهم ومحاسبهم على هذه النعمة التى اصطفاهم طليعة لدعوتها ، أضاف قائلا : (... وسوف تسئلون) ..[1] صدق الله العظيم .

فأين هو ، إذن ، ذلك « التناقض » ، الذى يتحدثون عنه ، بين « العروبة » وبين « الإسلام » ؟؟!! ..

لكن .. متى .. ولماذا ظهرت دعوى التناقض هذه ؟؟ :

حدث ذلك فى الحقبة التاريخية التى توقفت فيها حضارتنا العربية الإسلامية عن التطور والإبداع والعطاء ، وعندما أسلمها هذا التوقف إلى الجمود فدخلت فى طور التراجع والانحطاط .

ولقد بدأت هذه الحقبة عندما ظهرت آثار سيطرة « المؤسسة العسكرية ـ

(١) الزخرف : ٤٤ .

المملوكية ـ التركية » ـ التى لجأت إليها الخلافة العباسية كى تكون أداة الخلافة الطيعة ، فلما نمت وتضخمت حولت الخلافة إلى أداة لها ! ! ـ بدأت هذه الحقبة عندما ظهرت آثار سيطرة هذه المؤسسة العسكرية فى الميدانين الفكرى والحضارى ، فبدأت الأمة أولى خطواتها ـ وإن ببطء ـ نحو عصورها المظلمة تلك التى استمرت عصرى المماليك والعثمانيين ، وحتى مطلع العصر الحديث .. وفى هذه الحقبة لم يبق للأمة من «الإسلام : الدين» ولا من «الإسلام : الحضارة» سوى الشكل والرسوم والطقوس !.. اللهم إلا حركات ضعيفة ومحدودة للمقاومة ، حفظت نبض الدين والحضارة ، دون أن تقوى على مغالبة عوامل الانحطاط ومظاهره التى طبعت المجتمع بطابعها العام .

. ويومئذ :

● وقفت اهتمامات « الدولة » ، غالبا وأساسا ، عند الأشكال والمظاهر والأوعية والقشور .. فاهتمت بعمارة المساجد والمدارس ، وزخرفتها .. على حين كانت « العلوم » التى تدرس فى هذه المدارس والفكر الذى يلقى فى هذه المساجد مثقلا بالجمود والشعوذة والخرافات !..

● وانتشرت تكايا التصوف وخوانقه .. على حين انحسر التصوف الفلسفى ليفسح المكان والميدان « للطرق » الصوفية ، التى لا علاقة لها بالتصوف الحق والتى امتلأت بالأدعياء وأصحاب الحيل ، المقبلين على الدنيا من دروب الارتزاق !.

● وفى الادب ، استبدلت المحسنات اللفظية والشكلية ـ (البديعية) ـ بالجوهر والمعنى الراق والمضمون العميق .

● وفى « الفكر » سادت « الحرفة » . وتراجع الخلق والإضافة والإبداع فكان عصر « المدونين والمصنفين والشارحين والمعلقين واصحاب الحواشى والمتون وحكاكات الألفاظ ! » .. الذين أخذوا فى اجترار التراث . وكان إنجازهم الأعظم هو تصنيف الموسوعات التى حفظت علوم السلف وتراثهم . خصوصا بعد دمار مكتبات بغداد يوم اجتاحها التتار ..

وفى هذا المناخ . الذى جمدت فيه الحضارة وتراجعت وكفت عن العطاء . كانت « الدولة ـ السلطة » أعجمية ، أو قريبة من العجمة . غريبة عن روح الحضارة العربية الإسلامية ، أو فى أحسن الحالات عاجزة عن الارتقاء إلى آفاق روح هذه الحضارة .. استوى فى ذلك المماليك والعثمانيون .. ولذلك تراجعت أهم قسمات هذه الحضارة ، وهى : « العروبة » و « العقلانية » ..

ولقد كانت هذه « السلطة » صاحبة مصلحة حيوية فى تراجع قسمة « العروبة » ، لضعف الخيوط التى تربطها بها ، أو انعدام هذه الخيوط .. لكن هذه « السلطة » كانت مسلمة ـ على الأقل من حيث الشكل ـ فساد العصر ذلك الفكر الذى جعل رابطة الإسلام والمعتقد الدينى بديلا لرابطة العروبة حتى كاد أن يجعلها نقيضين ! .

وإلا فمن كان يتصور أن حكاما من أمثال : « وصيف » ، و « بغا » و « كيغلغ » ، و « ياجور » ، و « بايكباك » ، و « بكالبا » ، و « يارجوخ » ، و « أصفجون » ، و « كاستمر » ، و « كنجور » ، و « تكين » ، و « اغرتمش » ، و « ابن كنداجيق » ، و « أساتكين » ، و « خمارويه » ،

و « كافور » ، و « كتبغا » ، و « كجك » ، و « جقمك » ، و « خوشقدم » ، و « تمربغا » ، و « خاير بك » ، و « خسروا » ، و « خورشيد » ، و « جركس » ، و « الكرجى » ، و « كولكيران » ، و « ارناؤوط » ... الخ ... الخ ... الخ ... من كان يتصور أن حكاما من أمثال هؤلاء الغرباء عن روح الأمة وقوميتها وحضارتها ، تزدهر فى عهودهم . وتحت سلطانهم ، فسمات العروبة القومية ، فتفعل فعلها ، وفى مقدمة هذا الفعل مصارعة هؤلاء الحكام ، والثورة ضد استبدادهم بحكم أمة هم عن قوميتها وروحها وطابعها الحضارى غرباء .. غرباء ..؟!..

لقد كانت رابطة الملة والدين والاعتقاد هى الخيط الوحيد الذى يجمع بين هؤلاء الحكام وبين الرعية العربية ، فأبرزوه وحيدا ، وجعلوا منه البديل ، بل والنقيض ، الذى ينفى الرابطة القومية العربية .. وذلك خلافا لما استقر عليه الأمر ، فكرا وتطبيقا ، فى تراثنا الدينى والحضارى ، قبل عصر الجمود والعجمة والانحطاط !...

أما كيف استطاع هؤلاء الحكام « الأعاجم » أو « أشباه الأعاجم » أن يشيعوا فى المناخ « الفكرى » دعوى تناقض « العروبة » مع رابطة « الإسلام » ؟! وكيف استطاعوا تطويع بعض « علماء » الأمة و « فقهائها » لهذه الدعوى ؟!.. فإن لذلك صلة وثيقة بذلك التطور الذى أصاب المؤسسات الدينية خلال تلك العصور .

لقد اهتم هؤلاء الحكام ، من الإسلام ، بالشكل والرسوم ، فشهدت عمارة المؤسسات الدينية فى ذلك العصر تطورا جعل إقامة المساجد والمدارس والتكايا

والخوانق ، وصيانتها والإنفاق عليها ، أمرا عظيما ، يتطلب الكثير من الأموال والجهود والنفقات .. الأمر الذى حتم اختصاص « الدولة » بتلك المهام .. ثم أوقفت على هذه المؤسسات الأوقاف الواسعة ، فكان أن تحول كثير من « العلماء » و « الفقهاء » ـ مثقفى ذلك العصر ـ إلى منتفعين بريع هذه الأوقاف ، أى إلى « موظفين » لدى الدولة ، ففقدوا الاستقلال الذى كان يعينهم على النقد والاعتراض على تجاوزات الحكام ، وعرف العصر « وعاظ السلاطين والأمراء » ، أولئك الذين برروا للسلطة تجاوزاتها ، ونظروا ـ أو على الأقل صمتوا ـ لاستبعاد قسمة العروبة أو دفعها للخلف .. فكان أن اعتبرت الرابطة الإسلامية بديلا ـ وأحيانا نقيضا ـ للرابطة القومية العربية .. ونظر البعض إلى العروبة نظرتهم إلى « العصبية الجاهلية » ! ! .. بل وغدت هذه المقولات الشاذة من المسلمات ! ..

هكذا ـ وفى ارتباط بالعصور « المملوكية ـ العثمانية » المظلمة ـ بدأت دعوى « التناقض » بين (العروبة) وبين (الإسلام) .. ومن ثم فلقد كان لابد لهذه الدعوى أن تنهار بانقشاع ليل تلك العصور المظلمة عن حياة الإنسان العربى عندما استيقظ واستنار فى عصره الحديث .

الإسلام المعاصر.. والعروبة

لقد بدأت الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى . قوة عسكرية ، فقط !.. وظلت تلك ميزتها الأساسية . بل الوحيدة ، إلى زمن طويل ، ويوم فقدت هذه الميزة كانت قد فقدت كل ما لديها من رصيد ؟!..

ولقد استطاع العثمانيون ، فى عهد قوتهم ، أن يقضّوا مضاجع أوروبا بفتوحاتهم الأوروبية ، كما ضموا لسلطنتهم أغلب أجزاء الوطن العربى فى القرن السادس عشر الميلادى . **ولعدة قرون كانت دولتهم الجدار الذى أخر اجتياح الغرب الاستعمارى الطامع للوطن العربى . لكن هذا الجدار لم يستند إلى حضارة تدعم بنيانه ، وترمم ثغراته ، وتتعهده بالمساندة والتجديد ..**

وزاد من خطر هذه السلبية ازدياد تجاوزات « الجند » ومظالمهم ، والفوضى التى أشاعوها فى الاقاليم والولايات ، وذلك لإحساسهم بأنهم كل مالدى « الدولة » من رصيد وإمكانيات.. ثم كانت محاولات « الدولة » موازنة قوة « الجند » بنفوذ « الولاة » وسلطة بقايا « المماليك » ، الأمر الذى أشاع عدم الاستقرار وتضارب المصالح والأهواء فى ربوع السلطنة ، فاستفحلت مظاهر التخلف والجمود الحضارى فى البلاد ...

وزاد الطين بلة أن العثمانيين قد اتخذوا موقفا شذوا به عن « الأسر »

و « الدول » غير العربية ، التى بسطت سلطانها على العرب من قبلهم ، فتلك قد تعربت ـ على تفاوت نجاحها فى امتلاك القسمات العربية ، وارتقائها وعمقها فيها ـ أما العثمانيون فلقد شذوا عن هذا السبيل عندما احتفظوا بتركيتهم ، حتى لقد احتقروا العرب والعروبة ، بل لقد راودتهم أحلام « تتريك » الرعية العربية ، فكانوا البادئين لتلك المأساة التى تلقفها وزادها دعما وبلورة وتشييدا أعداء العروبة والإسلام ، مأساة « التناقض » بين العروبة والإسلام ! .. كما كان صراعهم ضد العرب وقسماتهم القومية من أعظم العوامل الداخلية التى عجلت بزوال سلطنتهم المترامية الأطراف ! ..

ومضافا إلى عوامل الضعف الذاتية والداخلية هذه ، كان سعى أوروبا الاستعمارية للإجهاز على هذه الدولة العثمانية ، التى تحتفظ بذلك « الرمز » الذى أرق الغرب ، تاريخيا ، ولا يزال يؤرقه ، وهو وحدة الشرق والعرب تحت أعلام الخلافة والإسلام ..

ولقد تضافر هذان العاملان ، الداخلى والخارجى ، فزادا من ضعف العثمانيين ، حتى غدا الجدار الذى مثلوه أمام أطماع الغرب ، لعدة قرون ، مليئا بالثغرات !.. ولقد كانت الامتيازات الأجنبية التى منحها السلاطين العثمانيون للبورجوازية الاوروبية ودولها واحدة من صور التسلل الاستعمارى إلى عالم العروبة والإسلام من ثغرات هذا الجدار ... هذه الامتيازات التى منحت «للبندقية » سنة ١٥٢١م ، و « لفرنسا » سنة ١٥٧٩م ، و « لانجلترا » سنة ١٥٧٩م ، و « لهولندا » سنة ١٥٩٨م ، و « لروسيا القيصرية » سنة ١٧٠٠م ، و « للسويد » ١٧٣٧م ، و « لنابلى » سنة ١٧٤٠م ، و « للدانمارك » سنة

١٧٥٦م ، و « لبروسيا » سنة ١٧٦٧م ، و« لأسبانيا » سنة ١٧٨٢م ، و « للولايات المتحدة الأمريكية » سنة ١٨٣٠م ، و « لبلجيكا » سنة ١٨٣٧م ، و « لـلبرتـغال » سـنـة ١٨٤٣م ، و « لـنيـونـان » سـنـة ١٨٥٤م ؟؟! ! [1] ..

ثم تطور هذا التسلل وتزايد هذا النفوذ الاستعمارى حتى أجبرت الدول الاستعمارية الدولة العثمانية على التنازل ـ عمليا ـ عن العديد من ولاياتها ، بعد أن تحول النفوذ الاستعمارى فيها إلى احتلال سافر وغاشم .. ففى فترة لم تتجاوز الأربعين عاما ، ومنذ اعتلاء السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٤٢ ـ ١٩١٨م) عرش السلطنة فى سنة ١٨٧٦م وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م ، أجبرت الدولة العثمانية على أن تتنازل ـ رسميا أو واقعيا ـ لروسيا القيصرية عن عدد من المقاطعات الغنية فى آسيا الصغرى ، ولبريطانيا عن قبرص ومصر ـ ومن قبل ذلك عن عدن ـ ولفرنسا عن تونس والمغرب ـ ومن قبل ذلك عن الجزائر ، ولايطاليا عن ليبيا ، وللنمسا عن البوسنة والهرسك ... وذلك بالإضافة إلى المقاطعات البلقانية التى خلعت النير العثمانى فى خضم المد الاستعمارى الزاحف على دولة الرجل المريض ! [2] ..

* * *

وعند هذا الحد من الضعف والعجز العثمانى ، وأمام هذا الخطر الاستعمارى

---

(١) د . محمد عمارة « فجر اليقظة القومية » ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ . طبعة القاهرة ، الثانية ، سنة ١٩٧٥ م .

(٢) جورج أنطونيوس « يقظة العرب » ص ٢٧٠ . تعريب على حيدر الركابى . طبعة دمشق سنة ١٩٤٦ م .

الذى بدأت طلائعه العسكرية ، ممثلة فى حملة بونابرت سنة ١٧٩٨م ، زحفها خلف أعلام التجارة ومصالح التجار ... أمام ذلك الضعف وهذا الخطر بدأت انتفاضة جسد الأمة العربية ويقظة عقلها . فأخذت سبيلها للبحث عن الذات . فكانت حركة يقظتها وتجددها الذاتى ، محاولة لتجاوز الواقع ، بما فيه من عوامل الضعف الداخلى والتخلف الحضارى الذى كرسه طول الليل العثمانى ، ومواجهة للخطر الاستعمارى الخارجى ، الذى مهد الطريق أمام زحفه ضعف العثمانيين ..

هنا ، وفى هذا المنعطف التاريخى المصيرى واجهت الأمة العربية ذلك الموقف الذى واجهه أسلافها قبيل ظهور الإسلام ، يوم عجز الفرس ـ وهم شرقيون ـ عن قيادة الشرق فى صراعه التاريخى ضد الغرب ، بزعامة الروم البيزنطيين ، فكان أن تكرس الاحتلال والقهر الحضارى والقومى الذى بدأ بانتصار الاسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ق .م) ... ويومها ، وتجاه هذا الخطر الغربى ، انتزع العرب ، بالاسلام وتحت أعلامه ، زمام قيادة الشرق من الفرس ، فأزاحوا الخطر الغربى عن المنطقة بالفتح والدولة والحضارة التى بنوها ، بل وطاردوا هذا الخطر ، عبر البحر المتوسط ، فى بعض مواطنه ذاتها ! [١] ..

لقد سيطرت ، منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، على العالم العربى ملابسات هذا الموقف ، فبدأ العرب سعيهم ، على طريق اليقظة والنهضة

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا « العرب والتحدى » ص ٢٣ ـ ٤٩ . طبعة الكويت . سلسلة « عالم المعرفة » مايو سنة ١٩٨٠ م .

لانتزاع زمام قيادة الشرق من آل عثمان . الذين عجزوا عن حماية المنطقة من الغرب الطامع . فكانت اليقظة العربية . وروابط العروبة . والقومية العربية وحركتها . الطريق الذى فرضه عليها الأعداء ! .. وكان ذلك السباق والرهان الذى قام . من حول دولة الرجل المريض . بين حركة العروبة والقومية العربية وبين الغرب الاستعمارى . أيهما يسبق فيكسب الرهان ؟! ..

كانت تلك هى القضية التى حركت عوامل المقاومة فى روح الأمة العربية وعقلها وجسدها .. ولذلك وجدنا معالمها فى ثنايا كل دعوات اليقظة والتجديد والاصلاح والثورة . مهما تغايرت الأسماء واختلفت الأقاليم والديار ...

لكن الواقع المتخلف الذى واجهته قوى اليقظة والتجديد . وبقايا فكرية العصور الوسطى والمظلمة . عصور السيطرة المملوكية العثمانية . والتعصب القومى التركى المعادى للعروبة والقومية العربية . وسعى الغرب الاستعمارى الخثيث كى لا تتحد جبهة شعوب الشرق بقيادة العرب .. كل ذلك قد حرم حركة اليقظة والتجديد من نقاء الفكر . ومن ثم من الوحدة . فبذرت فى الساحة بذور التناقض والصراع « المفتعل » ما بين العروبة والإسلام . وبدلا من تبلور التضامن الإسلامى . بقيادة الأمة العربية . فى مواجهة التخلف الداخلى والجمود الحضارى والخطر الاستعمارى ــ كما سبق للشرق وتضامن بقيادة العرب المسلمين . ضد البيزنطيين . عندما ظهر الإسلام ــ بدلا من ذلك برزت ــ إلى جانب التيارات التى امتلكت الموقف الصحيح ــ تيارات قدمت الرابطة والجامعة الاسلامية كنقيض للرابطة والجامعة العربية . وانحاز بعضها لهذه ضد تلك . أو لتلك ضد هذه ! .. فكانوا صورة عصرية ــ من حيث النتائج

والآثار ـ لشعوبيي الأمس البعيد . أولئك الذين افتعلوا بين الإسلام والعروبة تناقضا . أرادوا من ورائه هزيمة العروبة والإسلام جميعا ؟!..

* * *

● حصن الاسلام السلفى ... وحركاته التجديدية :

قسمة من قسمات هذه الأمة . تبلغ أصالتها فى أبنائها حد « الفطرة » . هى العودة إلى الإسلام . كدين وحضارة . تتحصن بحصنه . وتلوذ بأعطافه وتستلهمه العون والرشاد . أمام المخاطر الكبرى التى تهدد منها الكيان وتزلزل فيها الأركان ! ...ولذلك فلم يكن غريبا أن تكون طلائع حركات اليقظة العربية التى أفرزتها أمتنا تجاه الخطر الذى أشرنا إليه . طلائع إسلامية . سلكت سبيل الإصلاح الدينى لبعث روح المقاومة فى كيان الأمة كى تواجه العثمانيين وشعوذتهم التى سموها اسلاما . وتتصدى للغرب الاستعمارى الزاحف على ديار الإسلام ...

وإذا كنا لانستطيع تصنيف هذه الحركات السلفية ـ التى ارتادت ساحة اليقظة ـ فى عداد تيارات المد القومى العربى . بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح فاننا لانستطيع ، كذلك ، أن نغفل عن رؤية « البعد القومى العربى » الواضح فى فكر هذه الحركات وممارساتها ...

● **فالوهابية** : التى قادها مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ـ١٧٩٢م). والتى شهد الواقع العربى الإسلامى حركتها حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، قد مثلت ، على جبهة العروبة ، واحدة من بواكير حركات اليقظة الإسلامية ، ذات البعد القومى والطابع العربى . التى تصدت

للعثمانيين .. فهى لم تقف عند التجديد السلفى لعقائد الاسلام ـ وهو موقف معاد لنمط الفكر العثمانى المثقل بالشعوذة والخرافة ـ وإنما تقدمت فأقامت « دولة عربية » . وحاربت فى سبيلها آل عثمان .. وعلى جبهة الفكر « الإسلامى ـ السياسى ـ القومى » كان تبنى الوهابية لشرط « قرشية » الخليفة يعنى تبنيها لضرورة « عروبة الدولة » . أى الدعوة لإسقاط سلطنة العثمانيين وسلطانهم عن الأمة العربية .. ومعلوم ـ وهو أمر ذو مغزى ولابد من الانتباه له ـ أن اشتراط « قرشية » الخليفة ـ أى عروبة الدولة وقيادتها ـ لم يظهر فى تراثنا « الفقهى ـ السياسى » إلا عندما بدأ تغلب غير العرب على مقاليد الدولة . فى العصر العباسى الثانى . وبعد سيطرة العسكر الترك المماليك فى خلافة المتوكل العباسى (٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ ٨٢١ ـ ٨٦١م) .. فكان هذا الشرط موقفا قوميا . مع عروبة الدولة . وضد خضوع العرب لسلطان أعجمى . حتى ولو تدين بالاسلام ! ..

ومن هذا الباب كانت ريادة الوهابية ـ بالبعد القومى الذى كان لفكرها وممارساتها ـ على درب اليقظة العربية فى عصرنا الحديث !.[1]

● **والسنوسية** : التى أسسها محمد بن على السنوسى (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م) فى ليبيا والجزائر ومصر . والتى خاضت الحروب الطويلة والمريرة ضد الزحف الاستعمارى على أفريقيا . شمال الصحراء وجنوبها .. قد تعدت . هى الأخرى . نطاق التجديد الدينى . الذى امتزجت فيه السلفية

---

(١) انظر دراستنا عن « موقع الوهابية من حركة التجديد » مجلة « الموقف العربى » أكتوبر سنة ١٩٧٩ م . والفصل الذى كتبناه عنها بكتابنا « تيارات الفكر الإسلامى » طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م.

بالصوفية ، إلى حيث كانت موقفا من مواقف اليقظة العربية ، بما مثلته من موقف غير ودى تجاه الضعف العثمانى أمام الغرب الاستعمارى وتجاه سيطرة العثمانيين ! [1]

● **والمهدية** : التى أسسها ، بالسودان ، محمد أحمد « المهدى » (١٢٦٠ ـ ١٣٠٢هـ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م) .. قد مثلت ، هى الأخرى ـ ضمن مامثلت ـ ثورة ضد الأتراك العثمانيين ، ومن ثم رافدا من روافد حركة اليقظة العربية الإسلامية الحديثة ، حتى لقد كان المهدى يقول لأنصاره : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد « حرضنى على قتال الترك .. وجهادهم .. فالترك لاتطهرهم المواعظ ، بل لايطهرهم إلا السيف ! »[2] .. ويدعوهم إلى مخالفة الاتراك حتى فى العادات والتقاليد والسلوك والأزياء ؟! [3]

وإذا كان النطاق المحلى قد حد من فعاليات حركات اليقظة هذه . فحجب تأثيرها عن أن يعم فيتحول إلى تيار عربى إسلامى عام . وذلك لبداوة « الوهابية » . التى جعلتها غير ملائمة لما وراء « نجد » من المجتمعات العربية ذات المواريث الحضارية والتى بلغت شأنا بعيدا على درب العقلانية والفكر الفلسفى والمركب . فلم تعد ظواهر النصوص والمأثورات بقادرة على أن تقدم لمشكلاتها الحلول ... ولاستغراق « السنوسية » فى مناهضة التحديات التى أثقلت كاهلها

---

(١) « العرب والتحدى » ص ١٦١ ـ ١٧٥ .

(٢) « منشورات المهدية » ص ٧٤ . ٣٣١ . ٣٣٢ . تحقيق : د . محمد إبراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .

(٣) المصدر السابق . ص ١٦٦ . وانظر « العرب والتحدى » ص ١٧٥ ـ ١٩٤ .

حتى أعجزتها .. ولاتخاذ « المهدية » من الأسطورة سبيلا ألّفت به وحدة شعب لم يتوحد قبل هذا التاريخ !.. إذا كان هذا هو الحال مع هذه الحركات الثلاث ، فإن الأمر لم يكن كذلك مع تيار اليقظة والتجديد الذى قاده جمال الدين الافغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٥هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) .. تيار : (**الجامعة الإسلامية**) ..

الجامعة الإسلامية :

فهذا التيار التجديدى ، قد بدأ فى صورة مجابهة مع المد الاستعمارى الغربى ، لا فى ولاية أو إقليم ، وإنما على امتداد الشرق العربى الإسلامى بأكمله .. ولقد أخذت حركة « الجامعة الإسلامية » هذه تجدد حياة الأمة الإسلامية وتوقظها وتسلحها ، عن طريق تجديد الإسلام ، ليتحول من شعوذة وخرافة تميت روح الأمة ، إلى طاقة ثورية تجابه بها الأمة أعداءها ، ولقد كانت المستويات الحضارية التى بلغتها أكثر بقاع الشرق تحضرا يومئذ ، وخاصة فى مصر ، من العوامل التى حددت نمط التجديد الدينى الذى تميز فى فكر هذا التيار ، فدعا أعلامه إلى :

- « **سلفية دينية** » : تعود إلى المنابع الأولى والنقية والبسيطة للإسلام ، متجاوزة ومتخطية ومسقطة البدع والخرافات التى أثقلت العقل العربى الإسلامى بالقيود والأغلال .

- و « **عقلانية إسلامية** » : تستخدم العقل وبراهينه فى فهم الدين وفقه نصوصه ووعى مقاصده ومراميه ..

● و « **تجدد ذاتى** » : يبعث من ترسانة الأمة الفكرية وتراثها الحضارى خير ما يعينها على مواجهة المهام المعاصرة ومجابهة التحديات .

● وإلى « **النظر فى الحضارة الغربية** » ، **من موقع مستقل ومتميز** : لمعرفة أسرار تفوق الخصوم ، وذلك حتى نمتلك هذه الأسرار ، ونتمثلها ، ونستعين بها فى الصراع !..

فكان أن تمثل فى فكر هذا التيار الطابع المتوازن الذى ذهب مثلا ونموذجا للشخصية الحضارية لهذه الأمة على مر التاريخ ... سلفية فى الدين ... وعقلانية فى فهمه .. ومن باب أولى فى فهم سائر أمور الدنيا ... وبعث ذاتى تتألف قسماته وأسلحته من كل ما يصلح للتحريك نحو المستقبل وللعطاء فى تراث الأمة ، ومن كل جديد مستحدث تدعو إليه الحاجة ، ولا يتنافر مع الطابع الحضارى المتميز لهذه الأمة ذات الميراث والتاريخ العريق ..

* * *

الموقف من العروبة :

أما موقف تيار (الجامعة الإسلامية) هذا من (العروبة) و (الجامعة العربية) و (القومية العربية) فإنه متميز كل التميز عن التيارات التى رفعت فى تلك الحقبة أعلام الإسلام ورايات (الجامعة الإسلامية) ثم أهملت رابطة العروبة القومية أو اتخذت منها موقف العداء .. بل لا نغالى إذا قلنا إن هذا التيار قد قدم أصح الصيغ الفكرية التى نفت التناقض مابين العروبة والإسلام وذلك عندما قصد إلى يقظة إسلامية ، **وتضامن إسلامى ، ووحدة فكرية**

ونضالية للملة الإسلامية ، يقودها العرب ، المتميزون قوميا فى المحيط الإسلامى الكبير ! ..

نعم .. لقد دعا هذا التيار إلى « الوحدة الإسلامية » ، بل وإلى « الجنسية ـ (أى القومية) ـ الإسلامية » .. لكن هذا لم يعن قط التنكر أو الإنكار لتمايز العرب القومى فى المحيط الإسلامى ، أو الغض من شأن القومية العربية ، أو الاعتقاد بوجود أى تناقض بين العروبة والإسلام ...

فهذا التيار يتبنى مصطلح « القومية » الإسلامية ، انطلاقا من مضمون مصطلحات « القومية » و « الأمة » فى تراثنا الحضارى ، لا من مضامين هذه المصطلحات فى التراث القومى الأوربى ـ وتلك قضية يغفل عنها الكثيرون ـ .. ومضمون مصطلحات « القومية » و « الأمة » فى تراثنا الحضارى تعنى ، ضمن ما تعنى : الجماعة : فجماعة المسلمين هم ، إذن ، « القومية » الإسلامية و « الأمة » الإسلامية ، دون أن يعنى ذلك توافر قسمات الأمة أو القومية ـ كما هو حالها فى الفكر القومى الأوربى ـ فى جماعة المسلمين ... ودون أن يعنى هذا الاستخدام لمصطلحات « القومية الإسلامية » و « الأمة الاسلامية » إنكار تمايز العرب ، كقومية وأمة ، فى المحيط الإسلامى الكبير ..

ويشهد لهذا الذى نقول دعوة هذا التيار إلى الجنسية والقومية والوحدة الإسلامية ، فى ذات الوقت الذى تحدث فيه عن العرب كقومية وأمة متميزة قوميا : بل وقائدة ، فى محيط المسلمين ! ..

ففى مجلة (العروة الوثقى) يكتب جمال الدين الأفغانى عن (الجنسية والديانة الإسلامية) ، فلا ينكر رابطة الجنس القومية ـ أى القومية بالمعنى الذى نتداوله

اليوم ـ .. وإنما ينكر أن تكون هذه الرابطة من « الوجدانيات الطبيعية » التى تدوم أبدا . دون أن ترتبط . فى الوجود والزوال . بالأسباب والضرورات وإنما يعتبرها من « الملكات العارضة على الأنفس . ترسمها على ألواحها الضرورات ! .. » .. ثم يتحدث عن « **غناء** » ـ **وليس** « **عداء** » ـ الرابطة والجامعة الاسلامية . بالنسبة للمسلمين . عن الرابطة والجامعة القومية ، ولكنه يضع لذلك شروطا تبلغ فى مثاليتها حدا يجعلها احدى المستحيلات فى الواقع الذى كان يكتب فيه ، بل والذى نعيش نحن فيه .. شروطا من مثل : أن يكون الحكم لله ، والسلطان لشريعته ، بحيث ينتفى أثر تميز الحاكم قوميا عن المحكومين . فلا ينفر العربى من سلطة التركى ، ولا الفارسى من سيادة العربى ولا الهندى من رياسة الأفغانى .. الخ[1] ومعلوم للكافة أن الافغانى وتيار (**الجامعة الإسلامية**) إنما كان يناضل لتحرير هذه القوميات المسلمة من الاستبداد ، داعيا إلى اختيار الشعب الحاكم الذى يريد ! .

وعندما كتب الأفغانى فى (العروة الوثقى) عن (الوحدة الإسلامية) وضع يدنا على مفهوم « **للوحدة** » التى تنبع من رابطة الملة والدين ، فإذا هى « **التضامن** » ، تضامن الملة الإسلامية ، وتساندها ضد أعدائها ، واستلهامها القرآن لتجديد حياتها الدينية والدنيوية ، وليست « **الوحدة السياسية** » المتجسدة فى « **الدولة** » .. فهى إذن رابطة أعم وأوسع من تلك التى تقف فيها « الوحدة السياسية » عند حدود « الدولة القومية » ، ومن ثم فلا تعارض بين « الوحدة

---

(١) « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى » ص ٣٤٨ ـ ٣٥٠ . دراسة وتحقيقة د . محمد عمارة . طبعة القاهرة ـ الأولى ـ سنة ١٩٦٨ م .

الإسلامية » ، هنا وبهذا المعنى ، وبين « القومية » و « دولتها » ، بأى حال من الأحوال ... فبعد أن تحدث الأفغانى عن المخاطر الاستعمارية التى تستفز المسلمين إلى التقارب والتضامن والاتحاد ، والتى لابد من توظيف « الأخوة الدينية الإسلامية » فى سبيل دفعها ، وذلك حتى يقيم المسلمون ، بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب ؟ ! بعد هذا ، وعقبه حدد مفهومه لهذه « الوحدة الاسلامية » ، فقال : « **لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا ، فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه . ألا أن هذا ، بعد كونه أساسا لدينهم ، تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات !** »[1]

وفى موطن آخر ، يتحدث الافغانى عن « وحدة النوع الإنسانى » ، الذى يتخذ الكرة الأرضية له « وطنا » .. ثم يضيف : إن اختلاف الأقاليم قد أثمر اختلاف الخواص التى تتميز بها الشعوب ، وهذه الخواص هى : « اللغة » — (اللسان) — ، و « الأخلاق » ، و « العوائد » ، و « الإقليم » — (الأرض — الوطن — البيئة) — وهى نابعة من طبيعة الإقليم الذى تعيش فيه الجماعة البشرية .. ثم يضاف إليها عامل خارجى هو « الدين » ... فوحدة النوع الإنسانى ، تعود فتتوزع إلى « أقوام » و « شعوب » بفعل هذه الخواص والقسمات « **وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة ، وتتأصل فيهم محبة**

(١) المصدر السابق . ص ٣٤٥ .

البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة ! »[1]

فهناك ، إذن ـ عند الأفغانى ـ دوائر ومستويات ... فالنوع الإنسانى واحد ، لكن الخواص القومية توزعه إلى شعوب وقوميات ... وبين الملة الإسلامية روابط مصلحة ووشائج اعتقاد .. لكنها لا ترقى إلى الحد الذى تجعل الممكن والأصلح بالنسبة لهم هو الوحدة الاندماجية للدولة . الأمر الذى يترك الباب مفتوحا على مصراعيه للرابطة القومية ودولتها ...

ولحسن الحظ فإن فكر هذا التيار قد تناول هذا الموضوع صراحة ، ولم يتركه لمجرد الاستنتاج والاستنباط ، وذلك عندما تحدث الأفغانى ، وغيره من أعلام تيار (الجامعة الإسلامية) ـ من أمثال عبد الرحمن الكواكبى (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م) ـ عن الموقف من العروبة والقومية العربية ، وعلاقة هذه الرابطة والجامعة بجامعة الإسلام ورابطته ..

● فالأفغانى قد أدرك أن الدولة العثمانية قد فشلت فى تطوير الأقاليم العربية التى حكمتها ، لأن الأتراك ، كقوم وجنس ـ كانت تغلب عليهم « البداوة » و«خشونة العسكر» ـ لا يحسنون التعمير ، وهم ليسوا كالعرب الذين أجادوا كقوم وجنس ، النهوض بهذه المهمة فيما فتحوا من أقاليم .. بل وأدرك أن هؤلاء العثمانيين قد غدوا عقبة أمام نهضة هذه الأقاليم وعمرانها .. «فالدولة العثمانية ..

(١) المصدر السابق . ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية فى مدنيتها وعلومها وصنائعها .. »[1]

● وهو يركز على السمات القومية . وفى مقدمتها قسمة « اللغة » ــ (اللسان) ــ فيرى فيها المعيار الذى يميز أمة عن أمة ، والرباط الذى يحفظ وحدة الأمة ، والسبيل الذى يعيد هذه الوحدة إذا أصابها ما يصيب الأمم المجزأة والمقهورة من تفتت وشتات .. وأيضا فهو يؤكد أن العرب أمة ، بصرف النظر عن المذاهب والاديان التى تربط بين بعضهم وبعض الأمم الأخرى ، والتى تميز بين بعضهم والبعض الآخر . فيقول ، معلنا هذه الحقيقة القومية ، ومؤكدا على بداهتها ! : « **إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .. والأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لايحتاج معه إلى دليل أو برهان ! »**[2]

ثم يفصّل الحديث عن دور اللغة القومية . وكيف أن لها تأثيرا معنويا بجانب تأثيرها المادى ودورها كأداة تخاطب . فهى وعاء الحضارة ، ومظهر الوحدة النفسية . وقبلة الفخر والولاء ، ثم هى الرباط الذى يشد الوحدة القومية ويدعمها ، وييسر عودة هذه الوحدة فى حال التمزق والتجزئة ، ذلك أن « للسان ــ (اللغة) ــ غير تأثيره المادى ــ تأثيرا معنويا .. **ويكفى أنه من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات** ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر . فكم رأينا دولا اغتصب ملكها الغير . فحافظت على لسانها محكومة . وترقبت الفرص

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

(٢) المصدر السابق . ص ٢٣٧

ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل سواه . ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد إلى ماشاء الله !.. »[1]

● ولم تكن العروبة عرقا أو تعصبا للجنس عند الأفغانى ، بل لقد خاض صراعا فكريا ضد المستشرق الفرنسى أرنست رينان Renan (١٨٢٣ - ١٨٩٢م) عندما انطلق من منطلق عرقى فزعم أن « أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا ، كناهى السياسيين ، من أصل حرانى أو أندلسى أو فارسى أو من نصارى الشام .. **وليسوا عربا** .. » .. خاض الأفغانى صراعا فكريا ضد هذا المفهوم العرقى ، وخلص - وهو العربى نسبا وفكرا - إلى أن كل الذين تعربوا ، وأصبحت العربية لغتهم ، والولاء لحضارتها موقفهم هم عرب ، بصرف النظر عن الأصول العرقية لأسلافهم والمواريث الحضارية لأجدادهم ، فلفت نظر رينان إلى « أن الحرانيين كانوا عربا ، وأن اللغة العربية كانت إلى ماقبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، **وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة ، وهى الصابئة ، ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية - (القومية) - العربية** .. وأن العرب لما احتلوا أسبانيا ظلوا عربا .. وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين ، اهتدوا بالنصرانية .. أما ابن ماجة وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى انهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا **أنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها** .. »[2] .

(١) المصدر السابق . ص ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٩ .

فالعروبة ، إذن ، ليست عرقا ولا نسبا ، وإنما هى لغة وآداب وتكوين نفسي وحضارة وولاء ، وذلك كله أمر مكتسب ، وليس وقفا على التوارث المحكوم بنقاء الدم الجارى من الأصول إلى الفروع ، وهذا الأمر المكتسب هو الذى نعبر عنه « بالتعرب » .. وهو ما حدث لأبناء الشعوب التى قطنت فى الوطن العربى ، من المحيط إلى الخليج ، بعد عصر الفتوحات ، سواء منهم من دان بالإسلام أو بقى على دينه القديم « فلقد سارعوا ، جميعا ، عن طيب خاطر وارتياح عظيم إلى التعرب .. **فمصر ، بينما هى هرقلية رومانية .. أصبحت فى قليل من الزمن إسلامية فى الأغلب ، عربية بالصورة المطلقة فى كافة مميزات العرب ، وهكذا القول فى سوريا والعراق .. وأصبح المسلم أو المسيحى أو اليهودى ، فى مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية ، فيقول : « عربى » ، ثم يذكر جامعته الدينية .. والأغرب أن التركى والجركسى والأرناؤوطى ، وغيرهم من العناصر ، يستعرب متى وجد أو سكن فى بلاد العرب بأقرب الأوقات ، ويمتزج فى المجموع ، حتى تخال أنه (عربى قح) ! .. »**[1] .

● ولم يقف إيمان تيار (الجامعة الإسلامية) ـ ممثلا فى جمال الدين الأفغانى ـ عند حد الحديث عن أهمية القسمات القومية العربية ، وتمايز العرب قوميا فى المحيط الإسلامى .. ولا عند حدود الدعوة لانصاف العرب من الترك ومساواتهم بهم فى إطار السلطنة ـ وهى الدعوة التى وقف عندها (تيار العثمانية) ـ بل أراد الأفغانى أن يستل من الواقع أسباب الصراع مابين العرب

(١) المصدر السابق . ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ .

والترك ـ وهو الصراع المضعف للطرفين ، والممهد للغزوة الاستعمارية الحديثة ـ لا بمجرد المساواة بين القوميتين ، بل بالدعوة إلى « **تعرب الترك** » ، وتحولهم إلى جزء من « الأمة العربية » .. أى حسم الصراع لحساب العروبة وقوميتها ! . ذلك أن هذا التيار كان يسعى لتجديد حياة الشرق والشرقيين ، دينيا وسياسيا ، وفى ذهنه النموذج الذى صنعه الإسلام بهذا الشرق فى عصر الفتوحات ، يوم قاد العرب شعوب الشرق ضد البيزنطيين ، ثم تعربت هذه الشعوب ، وصنعت كأمة جديدة ، الحضارة العقلانية الشابة التى علمت أمم الدنيا وشعوبها .. فكما دعت الضرورات العرب ، بالأمس البعيد ، إلى قيادة المنطقة ، بعد أن عجز الفرس الساسانيون عن قيادتها ، كذلك تدعو الضرورات العرب اليوم إلى قيادة عالم الإسلام ، فى المواجهة مع الغرب الاستعمارى ، بعد أن عجز عن ذلك الأتراك العثمانيون ! ..

ولقد رأى الأفغانى فى « شذوذ » الأتراك عن أن يتعربوا ـ كما تعربت من قبلهم « الدول » : الأيوبية ، والمملوكية ، والبويهية ، ومحمد على وأسرته .. الخ .. الخ . ـ رأى فى ذلك العقبة المانعة من إحراز هذا التحول التاريخى فسعى إلى السلطان عبد الحميد ليقنعه بأن تتعرب الدولة العثمانية ، ذاكرا له ان هذا المشروع كان من رأى السلطان محمد الفاتح (١٤٢٩ ـ ١٤٨١م) والسلطان سليم (١٤٦٧ ـ ١٥٢٠م) .. لكن السلطان عبد الحميد رفض هذا المشروع القومى العربى ، واستراب فى مسعى الأفغانى بهذا السبيل ، فسجل الرجل موقفه الفكرى هذا فى صفحات كثيرة قال فيها : « **لقد أهمل الاتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة ، ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الاتراك لكانت فى أمنع قوة ..**

ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة واسقمه من رأى ؟! . إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الإسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات . لكن ، مع الأسف ، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربى خطأً بينا ... لو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم واستعربوا ... فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانبا ؟ أو أمنع قوة ؟! .. إننى أحزن وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى ، لسان الدين الطاهر والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، باللسان التركى ! ! .. ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية ، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسن لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ أو بيانا يترجم عن جنان ، وهو فى حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية تجده قد خف وزنا وانحط معنى ... فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب ... لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضيع ، فى خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتفاء بكل ماقلته له .. فحولت وجهى عن مالا يمكن إلى مايمكن ، وفيه وقاية مابقى من أملاك السلطنة العثمانية فى غير أوربا ! .. »[1] .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

وعبد الرحمن الكواكبي – وهو من أبرز أعلام تيار (الجامعة الإسلامية) فى المشرق – يواصل السعى على هذا الدرب الذى عبّده الأفغانى ، فيدين شذوذ الأتراك العثمانيين عن « التعرب والاستعراب » ، على عكس ماصنعت الدول غير العربية التى سبقت وحكمت جماعات عربية ، فلقد « تخلقت – تلك الدول – بأخلاق الرعية ، وتكلمت بلغتها ، فأخلاقها ، فجنسيتها .. كآل بويه ، والسلجوقيين ، والأيوبيين ، والجراكسة ، وآل محمد على ، فإنهم مالبثوا أن استعربوا ، وتخلقوا بأخلاق العرب ، وامتزجوا بهم ، وصاروا جزءا منهم ... ولم يشذ فى هذا الباب غير المغول الأتراك ، أى العثمانيين ، فانهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم ! .. »[1]

أما الأمر الذى انصرف إليه الأفغانى ، كى يحققه ، ورآه ممكنا ، بعد أن عجز عن إقناع السلطان العثمانى بتعريب الدولة ... وهو إنقاذ الولايات العثمانية غير الأوربية ، أى الولايات العربية ، فلقد كان ، بكلمات أخرى ، وفى الممارسة والتطبيق ، **ما سعى إليه هذا التيار التجديدى من إقامة الخلافة العربية على أنقاض خلافة آل عثمان ، ومن بناء الدولة العربية التى تصبح مركز جذب للأمة العربية ، والتى تبدأ مسيرة هذه الأمة نحو امتلاك أمرها بيدها كى تعود إلى قيادة المنطقة والتصدى لمد الاستعمار ..**

لقد أدرك هذا التيار التجديدى أن (الجامعة الإسلامية) لا تعنى العداء (للجامعة العربية) ، بل إنها تعنى : عقد لواء قيادة المحيط الإسلامى الكبير .

---

(١) « الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي » ص ٣٢٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت ، الثانية سنة ١٩٧٥ م .

للأمة العربية .. « فالعرب ـ (كما يقول الكواكبى) ـ هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية . بل الكلمة الشرقية . العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقدوة للمسلمين . حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء . فلا يأنفون عن اتباعهم أخيرا .. »[1] .

* * *

وكذلك صنع الجناح المغربى لتيار (الجامعة الإسلامية) ـ الذى تمثل فى ابن باديس . و (جمعية العلماء المسلمين بالجزائر) . عندما واجهوا المأساة التى أقامها الاستعمار الفرنسى بالجزائر . مأساة السحق القومى والقهر الحضارى وفرنسة الجزائر . كى تصبح الامتداد الفرنسى عبر البحر المتوسط .. تلك المأساة التى كان من قسماتها :

- استبدال الفرنسية بالعربية ... حتى يصبح « الجزائريون » « فرنسيين » ! ..
- ومطاردة الإسلام . والحديث عن « أن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر وأن عهد الصليب قد بدأ . وأنه سيستمر إلى الأبد .. » .
- والسعى إلى جعل الجزائر مهجرا للرجل الأبيض . حتى يصنع بالعنصر الوطنى ما صنع بالهنود الحمر فى الدنيا الجديدة . وبعبارة الكاتب الصهيونى ماكس نوردو « فإن شمال أفريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية ..

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٥٨ .

أما سكانه الأصليون فسيدفعون نحو الجنوب ، إلى الصحراء الكبرى ، إلى أن يفنوا هناك ! »[1] .

أمام هذه المأساة ، وفى مواجهتها ، كان نضال التيار التجديدى ، الذى قاده ابن باديس ، ممثل (الجامعة الإسلامية) بالمغرب العربي .. وكان اعتماد هذا النضال على **امتزاج العروبة بالإسلام** ..

● فالعروبة مضمون حضارى ، غير عرقى ، إذ « تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد » .. واللغة هى أبرز جامعات العروبة ، كأمة ، إذ « تكاد لاتكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد ، فليس الذى يكون الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غاياتها هو هبوطها من سلالة واحدة وإنما الذى يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد .. » .. وهذا المعيار الحضارى للعروبة أصيل وقديم ـ كما يتحدث عنه ابن باديس ـ فمنذ ظهور الإسلام حدد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ العربية وآدابها وعاء تنصهر فيه وبه الطوائف والأجناس التى تعربت ، وجعلت ولاءها لهذا الوليد القومى العربى الجديد ، وذلك عندما قال : «أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد وأن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى .. »[2] .

---

(١) د . محمد عمارة «الأمة العربية وقضية التوحيد» ص ٩٤ ، ٩٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م . و «العرب والتحدى» ص ٢٨٠ .

(٢) ابن باديس «كتاب آثار ابن باديس» جـ ٤ ص ١٩ ، ٢٠ . إعداد وتصنيف الدكتور عمار الطالبى . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

● والجزائر : عربية مسلمة .. وكما يقول ابن باديس فإنه « لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأعز والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية ـ لغة الدين ـ لغة القومية ـ لغة الوطنية المحروسة .. »[1] .. ومهمة هذا التيار هى حراسة العروبة والإسلام ـ والعودة بالجزائر إلى الحصن المشيد من مزيجها !..

● أما عن علاقة العروبة بالإسلام ، والرباط بينهما ، فإن ابن باديس يفيض فى الحديث ـ فيقول ـ ضمن مايقول ـ : إنه « حق على كل من يدين بالإسلام ، ويهتدى بهدى القرآن ، أن يعتنى بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام ، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام ، ولعناية القرآن بهم ، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض ... **وما كان الله ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة ، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال !..** »[2]

وليس فى هذا الاختصاص الإلهى للعرب والميزة الإسلامية لقوميتهم ما يتعارض مع عالمية الدين « فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو رسول الإنسانية ، كانت أول عنايته موجهة إلى قومه .. فكان أول دعوته لعشيرته .. ثم وجه دعوته إلى بقية العرب .. ثم عمم دعوته .. ولقد أخبره الله أن القرآن ـ

---

(١) د . محمد عمارة « مسلمون ثوار » ص ٢٦١ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

(٢) «كتاب آثار ابن باديس» جـ ٤ ص ٥٩ .

(الذى هو للناس كافة) ـ شرف له ولقومه العرب . فقال تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) .. »[1] .

بل لقد جاءت عروبة القرآن فى الإسلام ، سبيلا لنشر العربية بين الذين يتدينون بهذا الدين ، إذ بدونها لن يكون هناك الفقه الحق لهذا الكتاب العربى المبين ، ومن ثم كان الإسلام سبيلا لاتساع دائرة العروبة ، بالمعنى القومى ، ذى المضمون الحضارى ، وتلك قمة الامتزاج بين العروبة والإسلام ! .. وبعبارة ابن باديس « فإن العرب قد رشحوا لهداية الأمة ، وإن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام .. » **ولذلك كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنظر ابن باديس « هو رسول الإنسانية .. ورجل القومية العربية ، والأمة العربية ، فى آن واحد .. نهتدى بهديه ، ونخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه ، ونحيا لها ونموت عليها ؟ ! .. »[2] .**

لكن ابن باديس لا يغفل عن أن الواقع لم يشهد امتداد العروبة إلى المدى الذى بلغه الاسلام . فهناك شعوب أسلمت ولم تتعرب . على حين تعربت الجماعة التى تقطن اليوم مابين المحيط والخليج .. فما هى إذن طبيعة العلاقة بين العرب وبين غير العرب من المسلمين ؟

هنا نجد ابن باديس واضحا ومحددا ... **فالعرب : أمة فى القومية .. وفى**

---

(١) الزخرف : ٤٤ .

(٢) «كتاب آثار ابن باديس» جـ ٤ ص ١٧ ـ ١٩ ، ٢١

السياسة .. والوحدة السياسية ، بمعنى وحدة الدولة ، أمر وارد ، بل واجب بين من يتمتعون منهم بالاستقلال عن مناطق نفوذ الاستعمار ... أما الأمم التى تجمعها رابطة الملة والاعتقاد الدينى ، دون رابطة العروبة القومية ، فإن رابطة الدين تثمر لها وحدة فى النواحى الأدبية والاجتماعية ـ دون السياسية ـ ومن ثم دون الدولة الواحدة ـ فلابد ، والحال كذلك من التمييز بين نوع الرابطة التى تربط أصحاب القومية الواحدة ، وبين تلك التى تربط بين قوميات يجمعها التدين بذات الدين .. فالعرب أمة ، فى القومية والسياسة .. على حين كان المسلمون أمما فى هذا الباب ، تجمعهم جميعا رابطة الاعتقاد الدينى ، وما اثمرت وتثمر من روابط أدبية واجتماعية .. ومن ثم فإن وجوب الوحدة السياسية ، فى الدولة القومية ، لايجب تعميمه فى المحيط الإسلامى ، الذى يجب أن نقف بوحدة أممه وقومياته عند أشكال التضامن العقائدى والأدبى والاجتماعى ، تلك التى تنهض بها أمة الإسلام ، ممثلة فى علمائها ومفكريها ، لا فى ساستها ورجالات دولها ! ..

أما نصوص ابن باديس التى ضمنها افكاره هذه عن العلاقة بين « الإسلام العربى » و « الإسلام غير العربى » ، فإنها تقول : « إذا قلنا : العرب ، فإننا نعنى : هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقا إلى المحيط الاطلانطيق غربا والتى تنطق بالعربية ، وتفكر بها ، وتتغذى من تاريخها ، وتحمل مقدارا عظيما من دمها ، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة هذه الأمة تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ : رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ، ورابطة الألم ، ورابطة الأمل . فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة .

ولكن .. هل بينها وحدة سياسية ؟

الوحدة السياسية لاتكون إلا بين شعوب تسوس نفسها .. وإذا نظرنا إلى الأمة العربية ، على ضوء هذه الحقيقة ، فإنا نجد منها شعوبا مستقلة استقلالا حقيقيا ، فهذه تمكن بينها الوحدة السياسية ، وتجب ... ثم نجد شعوبا أخرى مصابة بالاستعمار ، فهذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها .. مع شعورها التام بالوحدة القومية والأدبية العامة ، والمحافظة عليها والمجاهرة بها ... » .

أما المسلمون ، الذين تتوزعهم عدة قوميات ، فإن علاقتهم شاملة لناحيتين ، حددهما ابن باديس : « ناحية سياسية دولية .. وناحية أدبية اجتماعية .. فأما الناحية السياسية الدولية ، فهذه من شأن أممهم المستقلة .. وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهى التى يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها .. إنها مهمة جماعة المسلمين ، وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون فى مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية ، ويصدرون عن تشاور مافيه خير وصلاح . فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكون هذه الجماعة من أنفسها ، بعيدة عن السياسة وتدخل الحكومات ، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها .. »[1] .

هكذا ميز ابن باديس بين طبيعة الرابطة القومية العربية ، وطبيعة الرابطة التى تربط بين عامة المسلمين .. فبين العرب رابطة سياسية ، رابطة دولة واحدة .. على حين تقف الرابطة بين الأمم الإسلامية عند حدود الدين

---

(١) المصدر السابق . جـ٣ ص ٣٩٨ ، ٣٣٩ ، ٤١١ .

والأدبيات والاجتماعيات ، ترعاها وتنظمها جماعة المسلمين ، ممثلة فى قادة الفكر والرأى والعلم ، دون ان ترقى لوحدة الدولة ، ودون أن تصبح « ورقة » بيد الساسة يستغلون بها مشاعر التدين عند عامة المسلمين ؟..

* * *

هكذا ارتبطت « العروبة » بـ « الإسلام » فى فكر تيار (الجامعة الإسلامية) ذلك الذى بلوره وقاده جمال الدين الأفغانى .. وكان هذا الارتباط واحدا من الأدلة على أصالة هذا التيار ، الذى انطلق من التراث العقلانى للحضارة العربية الإسلامية ، وسعى ، بالتجدد الذاتى للأمة ، وبتفاعلها مع الحضارات الأخرى من موقع مستقل ومتميز وراشد ، إلى استشراف أكثر الآفاق استنارة وتقدما .. فانتفى ، فى فكر هذا التيار أى تعارض ما بين « العروبة » و « الإسلام » ، بل أصبحا مزيجا يعكس مكانة « العروبة » فى الإسلام « الدين » ، والإسلام « الحضارة » ، ومكانة « الإسلام » باعتباره الرسالة الخالدة التى جعلت الجماعة العربية مركز القيادة لشعوب الشرق منذ نزل الوحى بهذا الدين على رسوله الأمين .

العثمانية السياسية :

وقريب من تيار (الجامعة الإسلامية) هذا ، كان التيار الذى نسميه تيار (العثمانية السياسية) .. والذى رأى أصحابه :

- أن العروبة رابطة قومية تجمع بين أبناء العرب ، الذين يكونون أمة واحدة ، بالمعنى القومى والسياسى ..

● وأن الرابطة الدينية ليست بديلا عن الرابطة القومية .. بل ولا هي بالصالحة ، منفردة ، لتأسيس الوحدة السياسية للجماعة والدولة ..

● وفى ذات الوقت فإن مطامع الغرب الاستعمارى فى الشرق تفرض على القوميتين ـ العربية والتركية ـ إقامة بنيان الدولة العثمانية على أساس من « الرابطة العثمانية » ـ باعتبارها رابطة سياسية ، وليست دينية ـ تمليها ضرورات التضامن والاتحاد فى مواجهة الخطر الاستعمارى الغربى .. مع ضرورة المساواة بين هاتين القوميتين فى الحقوق والواجبات ، وترشيح « اللامركزية » إطارا يضمن « الحرية القومية » فى إطار « اتحاد الدولة » ..

ولقد تبلور العرب المناصرون لهذا التيار وانتظموا فى عديد من الجمعيات والأحزاب ، التى لم تسلم من ملاحقة الدولة العثمانية واضطهاداتها .. ومن هذه الجمعيات :

١ ـ (**جمعية الإخاء العربى العثمانى**) التى أعلن العرب تأسيسها بالقسطنطينية ، فى ٢ سبتمبر ١٩٠٨م ـ عقب عودة الدستور العثمانى ، وفى بداية حكم (جمعية الاتحاد والترقى) العثمانية ..

ولقد أعلنت (جمعية الإخاء العربى العثمانى) هذه أنها تسعى إلى : ● حماية الدستور ● وولاء مختلف الأجناس للسلطان ● وتحسين أحوال الولايات العربية العثمانية ـ على أساس المساواة بين العرب وغيرهم من أجناس الدولة ● ونشر التعليم باللغة العربية فى المناطق العربية ● والسعى للمحافظة على العادات العربية ..

لكن عمر هذه الجمعية لم يبلغ الثمانية أشهر ـ إذا اصطدمت بتيار التعصب

التركى . الذى قاده (الاتحاديون) . والذى اتخذ من « المركزية » و « التتريك » سياطا ألهب بها ظهور القوميات غير التركية فى الدولة . وخاصة القومية العربية .. وظهر البون شاسعا بين دعوة هذه الجمعية إلى المساواة بين القوميات وبين انتخابات البرلمان التى أجراها الاتحاديون . فصنعوا بها برلمانا نسبة الترك فيه إلى العرب ٥ : ٢ على حين كانت نسبة السكان العرب للترك هى ٣ : ٢ ؟!.. أما « مجلس الأعيان » ، المعين ، فلقد ضم ثلاثة من العرب ، من أصل أربعين عضوا ؟!.[1]

وبعد حل (جمعية الإخاء العربى العثمانى) تبلور (تيار العثمانية السياسية) فى :

٢ ـ (**الجمعية القحطانية**) التى تأسست ـ كجمعية سرية ـ فى أواخر ١٩٠٩م .. وسعت إلى تحويل الدولة العثمانية إلى دولة لا مركزية ، تضم مملكة عربية ذات برلمان خاص وإدارة خاصة . ولغتها الرسمية العربية .. وفى ذات الوقت تظل هذه المملكة العربية جزءا من المملكة العثمانية ، التى يمثل سلطانها امبراطورية مزدوجة ، عربية وتركية ، فيضع على رأسه تاجين يمثلان مملكتيها كما كان حال إمبراطور هابسبورج ، فى فينا ، والذى كان يحمل تاجى النمسا والمجر معا ..[2]

وبعد أن حكمت الظروف بحل (الجمعية القحطانية) تجسدت فكرة « اللامركزية » فى :

---

(١) «يقظة العرب» ص ١٠٩ ـ ١١٢ .
(٢) المصدر السابق . ص ١١٩ .

٣ ـ (**حزب اللامركزية الإدارية العثمانية**) الذى تأسس ، بالقاهرة ، من العرب العثمانيين ، فى أواخر ١٩١٢م[١] وهو الحزب الذى رعى « المؤتمر العربى الأول » الذى عقده ممثلو العناصر النشطة فى الحقل القومى بباريس من ١٨ ـ ٢٣ يونيو ١٩١٣م .. وفى هذا المؤتمر تبلور الفكر القومى العربى لتيار (العثمانية السياسية) فى :

- أن العرب أمة متميزة قوميا ..
- وأن العثمانية رابطة سياسية ، وليست دينية ، ذلك « أن الرابطة الدينية قد عجزت دائما عن إيجاد الوحدة السياسية » .
- وأن الهدف هو « إيجاد مجموع عثمانى قوى ، يرتقى فيه العرب ، بدون حائل يقف فى طريقهم ، وحكومة رشيدة يشارك العرب فى أمورها » .
- وأن قيام هذا المجموع العثمانى رهن باستجابة السلطنة العثمانية لهذه المطالب .. فإن هى رفضت ذلك ، فإن الاستقلال العربى ، وطرح الرابطة العثمانية هما الطريق ..[٢]

وبتصاعد المد « الطورانى » ، و « المركزية » ، و « التتريك » ، الذى قاده « الاتحاديون » أخذت تذبل الآمال فى قيام (رابطة عثمانية سياسية) تجمع العرب والأتراك فى دولة اتحادية ... فسياسة التتريك التى بدأت منذ سلطنة

---

(١) المصدر السابق . ص ١١٧ .

(٢) « المؤتمر العربى الأول » ص ٢٠ ، ٢١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ـ من أحاديث وخطب رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوى ، وعبد الغنى العريسى . طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م .

السلطان عبد الحميد قد غدت سيفا باترا ومصلتا على عنق العربية . أهم الجامعات وأعزها عند الأمة العربية .... وسعى السلطان عبد الحميد التاريخي . لتوظيف شعار (الجامعة الإسلامية) ـ كما فهمه وكما أراده ـ في خدمة إحكام سيطرة الترك على غيرهم من القوميات التي تضمها الدولة . وعلى العرب خاصة .. هذا السعي قد أصبح . عند (الاتحاديين) قهرا وملاحقة ومحاكمات للقيادات المستنيرة والنشطة في الحقل القومي العربي .. حتى بلغ الأمر الذروة بالإعدامات الشهيرة التي نفذها السفاح التركي جمال باشا . بدمشق وبيروت . عامي ١٩١٥م و ١٩١٦م . والتي علق فيها على أعواد المشانق كوكبة من ألمع زعماء الحركة القومية العربية في ذلك التاريخ ..

وهكذا أغلق العثمانيون السبل أمام الحركة العربية والقوميين العرب .. بل وأمام المستنيرين العرب عامة .. فلم يعد هناك مجال للحديث عن (رابطة عثمانية) تجمع العرب والترك . بعد أن أصبح أولها شهيدا والثاني سفاحا !. بل لقد خفت صوت (الجامعة الإسلامية) إذ لم يكن قد بقي من مضامين شعارها ـ خصوصا بعد موت الأفغاني . وبعد يأسه من استجابة العثمانيين لنهجه في اليقظة القومية العربية ـ لم يبق من مضامين شعارها ـ كما يفهمه الاتحاديون ـ إلا مايعني « التتريك » ؟!..

وعندما أغلقت كل السبل أمام الساعين لرابطة ماتجمع العرب والترك انخرطت كل فصائل العمل القومي العربي على طريق (الجامعة العربية) وحدها . وفقط . فانعطفت الحركة القومية العربية بعيدا عن الحركة الإسلامية . وعاد الحديث عن « التناقض » بين (الجامعة الإسلامية)

و(الجامعة العربية) إلى الظهور . خصوصا وأن الحديث عن « الرابطة الإسلامية » كان . يومئذ . « سيئ السمعة ! » ـ إن جاز التعبير ـ لارتباطه بدولة ظالمة ومستبدة ومريضة ومنهارة . ولما أصبح يعنيه . عند العرب . من قهر وسجن وشنق و « تتريك » .

العروبة .. فقط :

وكسمة عامة . فلقد اشتركت فصائل اليقظة القومية . التى استبعدت ربط « العروبة » « بالإسلام » . ووقفت عند « العروبة » فقط .. اشتركت جميع هذه الفصائل فى تبنى (العلمانية) ـ صراحة أو ضمنا ـ لأنها عندما خاضت معركتها ضد الدولة العثمانية . التى كانت تبرر مظالمها وتسلطها على العرب برابطة الدين . لم « تميز » بين « إسلام آل عثمان » وبين « الإسلام الحق » ! .. فهى وإن ظلت على تدينها . إلا أنها قد طرحت «الإسلام السياسى» عندما طرحت الارتباط بالأتراك العثمانيين ! .. واشتركت هذه الفصائل أيضا فى « الإعجاب » بالحضارة الأوروبية المتألقة . ورأت فى طريقها السبيل لنهضة العرب الحديثة .. وبهذين الموقفين المبدئيين تميز هذا التيار عن تيار (الجامعة الإسلامية) الذى قاده جمال الدين الأفغانى .. فالعروبة عند تيار (الجامعة الإسلامية) كانت تعنى تمايز العرب قوميا . وقيادتهم للمحيط الإسلامى الذى يرتبطون معه بروابط اعتقادية ومصلحية لا يصح قطعها ولا إغفالها .. والبعث الحضارى عند هذا التيار . وإن لم يغفل الاستفادة من إنجازات الحضارة الأوروبية . إلا أنه كان حديثا عن بعث حضارى عربى إسلامى متميز . تميز الإسلام بالنهج الوسطى الذى يوازن بين أقطاب فى الظواهر يحسبها آخرون متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها ! .. أما التيار الذى وقف عند

(العروبة .. فقط) ، فإن ميله إلى النهج الغربي فى التحديث والإحياء كان واضحا ، وعاما فى فصائله كلها !..

وإذا شئنا أن نسلك معالم هذا التيار في خيط يبرز مسيرته ، ويحدد ما طرأ عليه من تطورات ، فإننا نستطيع أن نكثف ذلك فى اشارات تجمعها نقاط :

● فالبدايات الأولى لهذا التيار تمثلت فى « المشروع العربى » لامبراطورية محمد على العربية !.. فقسمة العروبة والإحياء القومى العربى كانا سلاحا من أسلحة محمد على فى صراعه مع العثمانيين ـ وذلك بصرف النظر عن الصدق وعن الدوافع ـ المهم أن صراع محمد على ضد العثمانيين قد أطلق العامل القومى العربي من عقاله ، للمرة الأولى فى العصر الحديث ..

فإبراهيم باشا (١٧٨٩ ـ ١٨٤٨م) قائد الجيش المصرى فى حرب الأتراك بالمشرق (١٨٣١ ـ ١٨٤١م) يعلن ، فى الجواب عن : الحدود التى ستقف عندها جيوش فتحه ؟ فيقول : « إلى مدى مايتكلم الناس وأتفاهم وإياهم **باللسان العربى** ! »[١] ... وعندما يقابله « البارون لبوالكونت » قرب « طرطوس » ١٨٣٣م ، يكتب ، فى وصف فكره القومى العربى فيقول : « إن إبراهيم باشا يجاهر علنا بأنه ينوى **إحياء القومية العربية** ، **وإعطاء العرب حقوقهم** . وهو لايفتأ يذكّر جنوده بمفاخر **الأمة العربية** ومجدها التالد .. إن فكر إبراهيم باشا أن يجعل من الامبراطورية التى أسسها أبوه **دولة عربية بحتة** أى أن يكون حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس واحد وأمة واحدة

---

(١) د . محمد عمارة « العروبة فى العصر الحديث » ص ١٦٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

وأن يعيد إلى القومية العربية وجودها واستقلالها ، أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها .. »[1]

ونفس التقييم لذات التجربة نجده عند الدوائر الانجليزية .. فالقنصل البريطاني بالاسكندرية يرصد الطابع العربي لمشروع محمد على منذ وقت مبكر وقبل حرب الشام بعشر سنوات ، فيكتب بتقريره المؤرخ فى يناير ١٨٢٢م قائلا : « إن هدف محمد على المباشر هو تثبيت سلطته تثبيتا تاما فى ولايتى عكا ودمشق ، وهو بعد ذلك يرمى إلى بسط سيطرته على حلب ، فبغداد ، **وجميع المناطق التى يتكلم أهلها اللغة العربية** . وهو يسمى تلك البلاد : **الجزء العربى من الإمبراطورية** ! .. »[2]

وبعد بداية حرب الشام ، يكتب وزير الخارجية الانجليزى « بالمرستون » ، فى ٢١ مارس ١٨٣٣م ، إلى وزيره فى نابولى ، قائلا : « **إن هدف محمد على الحقيقى هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التى تتكلم اللغة العربية** ... ونحن لا نرى سببا يبرر إحلال ملك عربى محل تركية فى السيطرة على طريق الهند ؟! .. »[3]

أما « بروكيش » ، رئيس البعثة النمساوية التى أرسلها « مترنيخ » لتقصى حقائق مشروع محمد على ، هذا ، فإنه يكتب عنه قائلا : « .. يبدو أن الاتجاه الأكيد هو نحو **تكوين** امبراطورية **عربية** ، تشمل مصر والنوبة وسنار ودارفور

---

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ ، ١٩٧٢ .

(٢) « يقظة العرب » ص ١٤ « هامش » .

(٣) المرجع السابق . ص ٢١ ، ٢٢ .

وكردفان ، فى أفريقيا ، وشبه الجزيرة العربية ، فى آسيا ، حتى الخليج ، وتمتد على الشاطىء الأيمن للفرات لتشمل سورية بأسرها .. »[1]

فأصحاب المشروع ، والفرقاء الآخرون الذين رصدوه وحددوا طبيعته وأبعاده ـ المحايدون منهم والمعادون ـ قد أجمعوا على أنه قد مثل ، فيما مثل حركة بعث وإحياء للقومية العربية ، كانت باكورة سعى هذه الأمه على طريق استقلالها القومى ، فى العصر الحديث .

● وحتى بعد هزيمة المشروع العربى لمحمد على ، بتحالف الغرب الاستعمارى مع العثمانيين ضده ، وبمعاهدة لندن ١٨٤٠م ، فإن « الفكرة » قد بقيت حية فى صفوف الحركة الوطنية المصرية .. ورأيناها تتردد فى أوساط قادة الثورة العرابية .. ففى جلسة ضمت عرابى (١٨٤١ ـ ١٩١١م) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) وعبد الله نديم (١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م) وحسن موسى العقاد ومحمود سامى البارودى (١٨٤٠ ـ ١٩٠٤م) وهم أبرز قيادات « الحزب الوطنى الحر » الذى قاد الثورة ، يتحدث البارودى ، فى ١٨ يونيو ١٨٨٢م ، عن مشروع مصر العربى فيقول : « لقد كنا نرمى ، منذ بداية حركتنا ، إلى قلب مصر جمهورية ، مثل سويسرا ، وعندئذ كانت **تنضم إلينا سورية ، ويليها الحجاز** ... ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ـ (دعوة الجمهورية) ـ ، لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت ! . »[2]

---

(١) « العروبة فى العصر الحديث » ص ١٨٨ .

(٢) انظر دراستنا عن « الحزب الوطنى الحر » « مجلة الإذاعة والتليفزيون » . القاهرة ـ ١٥ مايو سنة ١٩٧١ م .

● أما فى المشرق العربى ، فلقد بدأت الدعوة المنظمة إلى فكرة (العروبة .. فقط) فى أحضان مدارس التبشير الغربية ، التى كانت طلائع المد الاستعمارى الغربى فى هذه المنطقة ، والأدوات التى مهدت الطريق لجيوش الغزاة !.. وفى رصد هذه الظاهرة ، وفى وعى دوافعها وتطوراتها عبرة بالغة لكل من ينظر فى طبيعة العلاقة التى يجب أن تقوم بين (العروبة) و (الإسلام) ؟!

فالقوى الاستعمارية الغربية التى كانت متربصة بنهاية دولة الرجل المريض كى ترث تركتها ، قد اجتمعت ضد « المشروع العربى » لمحمد على ، وناصرت السلطنة العثمانية .. فبدت وكأنها تنصر « الإسلام » على « العروبة » !.. فلما زال خطر « المشروع العربى » على أطماعها ، بعد ١٨٤١م ، كان مصدر الخطر على مطامعها آتيا من الدولة العثمانية ، أى من « الإسلام » ! فاستدارت تشجع بواسطة إرساليات التبشير ، الفكرة العربية ، المستبعدة لمزج العروبة بالإسلام فكان أن تكونت تحت رعاية الامريكان ، ببيروت ، ١٨٤٧ م أول جمعية ثقافية بشرت بـ (العروبة .. فقط) ، وهى (جمعية العلوم والفنون) ، التى ضمت عضويتها ناصيف اليازجى (١٨٠٠ - ١٨٧١م) وبطرس البستانى (١٨١٩ - ١٨٨٣م) وايلى سميث ، وكونيليوس فانديك ، والكولونيل - الانجليزى - تشرشل ، وكثيرا من الامريكان ؟!.

ولقد حذا اليسوعيون - ومن ورائهم فرنسا - حذو الأمريكان ، فأقامت إرساليتهم (الجمعية الشرقية) ١٨٥٠م ، تحت رعاية الأب هنرى دوبرونيير (١٨٢١ - ١٨٧٢م) .. ؟!

وكانت عضوية هاتين الجمعيتين مقصورة على الأجانب والنصارى

العرب ... ولقد لعبتا دورا رائدا فى إحياء اللغة العربية والتراث العربى بالشام إذ كان ذلك موقفا عربيا فى مواجهة التركية والتتريك !..

فلما كانت ١٨٥٧م تألفت (الجمعية العلمية السورية) التى شاركت القيادات الإسلامية فى تشكيلها، مشترطة إبعاد المبشرين والأجانب عن عضويتها ... ولقد استطاعت هذه الجمعية، التى ضمت عضويتها قيادات الطوائف الدينية العربية المختلفة، أن تنهض بدور بارز فى البعث الثقافى العربى بل ودعت بعض منشوراتها وآثارها الأدبية ـ مثل قصيدة إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦م) ـ إلى الاستقلال القومى والسياسى للعرب عن الأتراك ..[١]

وبقدر ما كان الطابع العربى لنشاط هذه الجمعيات «الثقافية ـ القومية» يتزايد، حجما وصدقا، كان تزايد ابتعاد الارساليات الغربية وأنصارها عن مناصرة هذه الجمعيات .. فهم فى البداية قد ناصروا «العربية» ضد «التركية»، فلما رأوا أن «العربية» توشك أن تملك المقاليد اتجهوا بالتعليم فى مدارسهم التبشيرية إلى لغاتهم الأوروبية، حتى لقد أدى ذلك ـ كما يقول جورج انطونيوس ـ : «إلى إبراز الخلافات الطائفية وتقويتها ـ وهى عقبة تعترض طريق النهضة القومية ـ كما أدى انتشار التعليم الغربى فى الشام إلى انتقال قيادة حركة العرب القومية من النصارى إلى المسلمين، لأنه قد أضعف الأثر الروحى للثقافة العربية فى عقول الطلاب، الذين كانت أغلبيتهم الساحقة من النصارى ؟! .. »[٢]

---

(١) «يقظة العرب» ص ١، ٢٥، ٤٥ ـ ٤٩.

(٢) المصدر السابق. ص ٩٦ ـ ٩٩.

● وفى ١٨٧٥م تأسست أولى الجمعيات السياسية ـ لا الثقافية فقط كما كان الحال من قبل ـ .. تأسست سرا ، وضمت النصارى والمسلمين ، وتعدى نشاطها نطاق بيروت فاتخذت لها فروعا فى دمشق وطرابلس وصيدا ، وافصحت منشوراتها عن برنامجها القومى الداعى إلى الثورة من أجل :

١ ـ استقلال سورية متحدة مع لبنان ..

٢ ـ والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية للبلاد .

٣ ـ والغاء الرقابة وكافة القيود التى تحول دون حرية الرأى وانتشار العلم ..

٤ ـ وعدم استخدام الوحدات العسكرية المجندة من العرب خارج المناطق العربية .. [1]

● وفى ١٩٠٤م كون نجيب عزورى . بباريس جمعية قومية ثورية هى (رابطة الوطن العربى) .. وفى السنة التالية أصدر ، بالفرنسية ، كتابه (يقظة الأمة العربية) .. وفى أبريل ١٩٠٧م بدأ يصدر مجلته الفرنسية (الاستقلال العربى) ... لكن جهود هذه الجمعية قد وقفت عند حد تعريف الفرنسيين بقضية العرب القومية ، دون أن تحدث أثرا يذكر على أرض الواقع العربى فى المشرق .. [2]

● وبعد أن استولى (الاتحاديون) ـ (جمعية الاتحاد والترقى) ـ على السلطة فى الدولة العثمانية ، واتسمت سياسة « المركزية » و « التتريك » بالعنف

---

(١) المصدر السابق . ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

والقسوة ، تكونت فى مواجهة هذه النزعة « الطورانية » أهم جمعيتين قوميتين عربيتين (جمعية العربية الفتاة) التى تأسست بباريس ١٩١١م ، ثم نقلت مركزها إلى بيروت ١٩١٣م ، ثم إلى دمشق فى العام التالى .. ولقد غلب الطابع الإسلامى على عضوية هذه الجمعية ، التى سعت إلى « تحقيق استقلال البلاد العربية ، وتحريرها من الحكم التركى وأية سيطرة أجنبية أخرى . »[١]

أما الجمعية الثانية فهى (جمعية العهد) التى كونها الضابط عزيز على المصرى ـ (باشا) (١٨٧٩ ـ ١٩٦٥ م) ـ أوائل ١٩١٤ م والتى كانت بالنسبة للضباط العرب فى الجيش العثمانى بمثابة (العربية الفتاة) للمدنيين.

وفى ١٩١٥م تم الاتصال بين (العربية الفتاة) و(العهد) ، بدمشق فتوحدت خططهما واجتمعت مواردهما استعدادا للثورة العربية على الأتراك الذين كانوا قد دخلوا الحرب العالمية الأولى فى جانب الألمان ، ضد الحلفاء .[٢]

لكن هذه المسيرة القومية العربية التى انخرط فيها عرب المشرق لم تؤت الثمرة المرجوة ... ولعل القدر كان يسخر عندما جعل إجهاض مشروعها العربى بفعل الغرب والترك ، معا ، رغم أنهم كانوا أعداء متحاربين !.. فالأتراك قد أعدموا أبرز قيادات الجمعيات القومية العربية ، الأمر الذى جعل هذه الجمعيات تسلم زمام أمرها لقائد من خارج صفوفها ، هو الشريف حسين بن على (١٨٥٦ ـ ١٩٣١م) الذى ، وإن لم ينقصه الطموح والحس القومى ، إلا أن ثقته فى « الشرف » الانجليزى قد أدت إلى المأساة التى تمخضت عنها الحرب العالمية

---

(١) المصدر السابق . ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٣٠ ، ١٣١ .

الأولى بالمشرق .. فمقابل وعود تميزت بالغموض فى كثير من جوانبها ، أعلن الشريف ، من الحجاز ، ثورة العرب ضد الأتراك فى ٥ يونيو سنة ١٩١٦م .. على حين كان الانجليز والفرنسيون والروس قد تبادلوا ـ سرا ـ قبل ذلك بشهر واحد ـ فى ٩ مايو ـ المذكرات حول معاهدة « سيكس ـ بيكو » التى اقتسموا بها المشرق العربى ! ..

وبانتهاء الحرب أعلنت المأساة ... فلسطين والعراق احتلها الانجليز .. وسوريا ولبنان احتلها الفرنسيون .. وانتهى المطاف بالشريف حسين : ملكا سابقا يعيش فى قبرص منفيا ... ومع ذلك فلقد ظل على ثقته « بالشرف الانجليزى » مُرجعا المأساة والغدر إلى شخص رئيس الوزراء « لويد جورج » ، مترحما على روح «كتشنر» ! .. ففى حديثه إلى جورج انطونيوس فى ربيع سنة ١٩٣١ م يقول : « إن الانكليز ، ياولدى ، قوم شرفاء ، بالقول وبالفعل وحين تقبل الأيام وتدبر . أقول : شرفاء . ولكن حضرة صاحب الدولة لويد جورج بهلوان وثعلب ... رحم الله روح حضرة صاحب المعالى كتشنر ! »[1] .

فهل كان لقضية العرب القومية أن تنتصر فى حلف مع الانجليز والفرنسيين ؟! وتاريخهم معها وموقفهم منها هو ما أشرنا إليه ؟ ! .. وهل كان لهذه القضية أن تنتصر بقيادة مثل قيادة الشريف حسين ؟ ! ..

البعث الإسلامى الجديد :

لو أن النصر قد حالف الحركة العربية بالمشرق لهان الأمر حتى على التيار

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٧ .

الاسلامى الذى لم يكن راضيا عن الوقوف عند (العروبة) فقط ، مفصومة عراها عن (الإسلام) .. لكن الحرب العالمية الأولى قد انتهت بمأساة للجميع فالوطن العربي قد سقط بأكمله تحت الاحتلال الاستعمارى الغربي .. و « الخلافة » العثمانية قد أزالتها « العلمانية » التركية التى تزعمها أتاتورك (١٨٨١ ــ ١٩٣٨م) سنة ١٩٢٤م .. فلا الرمز والشكل « الإسلامى » بقيا ولا العروبة انتصرت !..

وزاد من الخطر على ذاتية العرب المسلمين ، وطابعهم الحضارى المتميز أن تيار (العروبة .. فقط) ، رغم تحوله من محالفة الدول الاستعمارية إلى الثورة عليها ــ بعد أن غدرت به ونقضت عهودها معه ــ إلا أن ولاءه قد ظل معقودا للحضارة الغربية ، يرى فيها : الحضارة الوحيدة ، وفى طريقها : طريق التحديث الوحيد ..

وبعد فرض الغرب لسيطرته الاستعمارية على الوطن العربي ، وما وراءه من بقاع العالم الإسلامى ، بدأت محاولات الغرب الجادة لاحتواء العرب والمسلمين حضاريا ، فلقد تحول وطننا إلى « هامش لاقتصاد الغرب » ، يقدم العمالة الرخيصة ، والمواد الخام بالأثمان الرمزية ، وأصبح سوقا لسلع الحضارة الغربية وأدواتها .. ولقد بدأت تلك السلع والأدوات تلعب دورها فى تحويل الشرائح التى تسكن المدن ، وخاصة المثقفين منهم إلى الحياة على النمط الأوربي وساندتها فى ذلك الأفكار والقيم الوافدة مع الغزاة المنتصرين .. وزاد من فعالية تيار « التغريب » هذا التألق وهذه العظمة والهالة التى أحاطت بالحضارة الأوربية ذات التقدم الذى بهر الأبصار والبصائر فى بيئة متخلفة أخذ بنوها يقارنون هذه الحضارة وإنجازاتها الضخمة ، فى الصناعة والعلم والفكر والفن

بالتخلف والركاكة والبؤس الفكرى الذى عاشوا فيه قرونا طويلة تحت حكم المماليك والعثمانيين .. ولقد أسهم فى زيادة الدهشة والانبهار لدى الصفوة المثقفة :

١ ــ أن هذه الصفوة لم تعرف من تراثها سوى صورته « المملوكية ــ العثمانية » ، لأن الصلة كانت قد انقطعت بتراث « الإسلام : الحضارة » منذ أن تراجعت حضارتنا عن النمو والعطاء .

٢ ــ أن حركة الاستشراق ــ فى مجملها ــ قد تعمدت بث روح الهزيمة فى عقول الأمة وقلوبها ، بإبرازها الجانب المظلم من تراث أمتنا ، وردها كل إيجابياته إلى تراث أوربا اليونانى ، الأمر الذى رسب فى العقول أن أمتنا لم تصنع مجدا غابرا متميزا وخاصا ، فأنّى لها أن تصنع شيئا من ذلك وهى على ماهى عليه من الضعف الذى وصل بها إلى حد الهزيمة أمام الأوربيين أبناء الحضارة الفريدة المنتصرة ؟ ! ..

٣ ــ أن مراكز التبشير بحضارة الغرب ، دينية وفكرية وتعليمية ، قد سارت على درب حركة الاستشراق ، فى نزع ثقة أمتنا بذاتها ... ولقد كانت تلك المراكز ، كما كانت حركة الاستشراق ــ الا قليلا منها ــ طلائع للمد الاستعمارى الغربى ، نازلت عقول الأمة بالأسلحة الفكرية منازلة الجيوش الاستعمارية لجيوشنا الوطنية سواء بسواء ! ..

٤ ــ أن جامعات الغرب ومؤسساته العلمية والفكرية كانت « المصنع » الذى هيأ « الكوادر » السياسية والفكرية الوطنية التى أخذت تشارك السلطة المحتلة فى ادارة مرافق البلاد .. حتى أصبحنا ندرس على أيدى أعداء العروبة والإسلام كل شىء ، بما فى ذلك اللغة العربية وعقائد الإسلام ؟ ! ..

فكانت الثمرة : « **تيار التغريب** » الذى علا صوته حتى انفرد بالساحة ، فى المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب والديوان ... والذى أجبر التيار الدينى ـ الذى وقف به الجمود عند فكرية العصر العثمانى ـ على التقوقع والانزواء .. **وكانت مقولة : إن تقدمنا رهن بأن نصبح غربا فى الحضارة ، وإن ذلك هو الطريق لنكون شركاء للغرب ، بدلا من أن نظل هامشا تابعا .. كادت هذه المقولة أن تصبح مسلمة من المسلمات !..**

ولقد كانت (العلمانية) واحدة من ابرز ثمار « تيار التغريب » .. فالبورجوازية العربية وطلائعها المثقفة قد تعلقت « بليبرالية » الغرب ، فى السياسة والاقتصاد ، وكذلك تعلقت « بعلمانيته » . وبشرت بها فى ربوع البلاد ـ وكانت من قبل قد طبقت « العلمانية » فى حقل القضية القومية ـ .. ولقد زادها اقتناعا بالعلمانية أن صورة الإسلام عندها كانت هى صورته فى عصور الانحطاط ، تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين . وهى صورة مثقلة ومشوهة بالشعوذة والخرافة التى غطت جوهر الإسلام الأصيل .. فهى لم تتعرف على « الإسلام : الحضارة » ، لأن المستشرقين كانوا أعلم منها بالتراث .. كما لم تتعرف بشكل كاف على الإسلام كما قدمته مدرسة (الجامعة الإسلامية) .. لأن إسلام هذه المدرسة كان مضطهدا من الاستعمار ، ومن تيار « التغريب » ، ومن أهل الجمود الذين لا يزالون يعيشون مع المماليك والعثمانيين فى العصور الوسطى ؟!.. ومن هنا كان بريق « العلمانية » ، وكان النجاح الذى حققته عندما اكتسبت لها المواقع فى دوائر الفكر والسياسة ذات النفوذ والتأثير..

وأمام هذا النجاح الذى حققه تيار « التغريب » ، لاح الخطر فى الأفق

واضحا وعظيما .. فالوطن الذى تحول إلى « هامش لاقتصاد الغرب الاستعمارى » يوشك أن يتحول إلى «هامش لحضارته » ، ولو تم ذلك فستتأبد التبعية ويستحكم الاستغلال !..

وهنا عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد .. فتطلعت الأمة ، بالفطرة والوعى معا ، إلى حصنها التقليدى العتيد ، إلى الإسلام ...وكان أن برز وتعاظم تيار اليقظة والبعث الإسلامى ، الذى ولد هذه المرة ، « حزبيا ـ منظما » والذى بدأ بتأسيس الشيخ حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) لجماعة (الإخوان المسلمين) ١٩٢٩م .. وهى الجماعة التى أصبحت أوسع حركات الإصلاح الإسلامى وتنظيماته انتشارا بعالمى العروبة والإسلام فى عصرنا الحديث ...

ونحن نستطيع أن نرصد فى « إسلام » هذا التيار الإسلامى الجديد عددا من الخصائص ، منها :

١ ـ أن الإخوان المسلمين ، كحركة إصلاح إسلامى ، لم يكن الإسلام عندها هو إسلام علماء المؤسسات الدينية التقليدية ، أولئك الذين ظلوا واقفين عند المتون والحواشى والتعليقات والتهميشات التى أثمرها عصر المماليك والعثمانيين .. بل تقدم (الإخوان) خطوات ، فتجاوزوا فهم أهل هذه المؤسسات للإسلام .

٢ ـ لكن الإخوان المسلمين لم يبلغوا فى فهمهم للإسلام وطرحهم الحلول الإسلامية لمشكلات العصر ما بلغته حركة (الجامعة الإسلامية) ، التى بلور فكرها الأفغانى ومحمد عبده .. فعقلانية تيار (الجامعة الإسلامية) لانجدها عند (الإخوان) ، كما لانجد عندهم الجرأة فى تناول القضايا ، ولا الحسم إذا ما

عرضت لهم هذه القضايا .. وربما كان فى مقدمة أسباب ذلك أن (**الجامعة الإسلامية) لم تكن حزبا وتنظيما ينخرط فيه « العامة » وينهض بناؤه على « الجماهير » ، وإنما كانت حركة « صفوة » فكرية فى الاساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجرأة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيل العقل .. وهى سبيل إن لاءمت « الصفوة » فقد لا تلائم « العامة » و« الجمهور » ! ..** وتلك قضية لاتخطئها عين الباحث فى المجتمعات المختلفة ، وفى أى مرحلة من مراحل التاريخ .. وفى تراثنا أمثلة تشهد لذلك ، (فالمعتزلة) ، مثلا ، كانت تقل « شعبيتهم » ويتقلص « جمهورهم » كلما زادت قسمة الفكر « الفلسفى » فى بنائهم النظرى !... ولذلك فإننا نستطيع أن نقول : **إنه إذا كان علماء الدين فى المؤسسات التقليدية قد نهضوا بدور « وعاظ الأمراء والسلاطين » فإن دعاة (الإخوان المسلمين) قد نهضوا بدور « وعاظ العامة والجماهير » ، وغاب « الفكر » ـ بمعناه الخاص ـ من ساحتيهما !..**

٣ ـ وكما لم يكن الإخوان المسلمين على مستوى فكر حركة (الجامعة الإسلامية) ، عمقا وجرأة وحسما ورقيا ، فإنهم ، كذلك ، لم يكونوا متواضعين إلى المستوى الذى وقفت عنده (الوهابية) أو (السنوسية) أو (المهدية) ، وذلك لنشأتهم فى المجتمع المصرى ، الذى بلغ فى التحضر والرقى مستويات لا تلائمها أفكار دعوات جاءت لتلائم البداوة والبيئات التى لاحاجة بها إلى الفكر المركب ، والتى تستطيع حل مشكلاتها بظواهر النصوص ! ..

لقد وقف تيار (الإخوان) ، فكريا ، بين بين ... فلا هو بلغ « عقلانية » تيار الأفغانى ومحمد عبده ، ولا هو تدنى إلى « بداوة » محمد بن عبد الوهاب ! ..

وبحكم نشأة هذا التيار وانتشاره فى حقبة تعاظم فيها خطر حركة « التغريب » على عقيدة الأمة وعلى تمايزها الحضارى ، وبحكم تخلفه عن نهج مدرسة الأفغانى ومحمد عبده ، الذى لم يكن يرفض النظر فى الحضارات الأخرى ، بل ولا التسلح بأسلحة الأعداء لمنازلتهم بها ... فلقد رفض (الإخوان)، « العلمانية » ـ وكان من حقهم ، بل وواجبهم رفضها ـ لكنهم لم يبرزوا رفض الإسلام « للدولة الدينية » و « السلطة الدينية » ، على الرغم من قولهم بنيابة الحاكم عن الأمة ، لأنهم ، فى النهاية ، بدوا كمن يجردون الأمة من السلطات السياسية والتشريعية ، ويتحدثون عن « قانون إلهى » جاهز ..

كما دفعهم هذا الموقف إلى موقع المدافعين عن خلافة آل عثمان !..

* * *

وحتى نفهم موقف هذا التيار الإسلامى المنظم والحزبى من الفكرة القومية العربية ، وحركتها ، ومن علاقة (العروبة .. وجامعتها) (بالاسلام .. وجامعته) ... فلابد من الانتباه إلى أمرين :

الأول : أن مضمون المصطلحات لدى كتاب هذا التيار و « مفكريه » لن يكون ، بالضرورة ، هو مضمونها فى الفكر العربى القومى ، الذى شاع فى الأوساط المدنية للمثقفين العرب .. الأمر الذى يوحى بالاختلاف حيث لا اختلاف فى بعض الأحيان !..

والثانى : أن هذا التيار لم يتخذ موقفا واحدا من قضية العروبة والقومية العربية ، بل لقد اختلفت مواقفه باختلاف القادة ، ومواطنهم القومية وحظهم من « الفكر » فى هذا الميدان !..

فنحن ، مثلا ، واجدون عند الشيخ حسن البنا أكثر مواقف هذا التيار نضجا إزاء هذه القضية .. وأقرب هذه المواقف إلى الصيغة الصحيحة للعلاقة مابين (العروبة) و (الإسلام) ..

● صحيح أنه كتب يهاجم « القومية » .. وتحت عنوان : (لا القومية ولا العالمية ، بل الأخوة الإسلامية) كتب يقول : « ... فالقومية مبدأ خطير لا ينتج إلا الشرور والآثام والحروب والتخاصم والتنافس والتزاحم »[1] .. **لكن « القومية » التى كانت فى ذهن الرجل وهو يكتب هذا المقال هى « الفرعونية » « الإقليمية » ، التى كان يقدمها سلامة موسى (١٨٨٨ - ١٩٥٨م) بديلا ونقيضا للعروبة فى الثلاثينات !... فواجب ، إن ، ألا يساء تفسير كلماته من قبل خصومه .. وواجب كذلك أن يتنبه « الكتبة » من تلامذته ، الذين أخذوا كلماته هذه فعمموها ، واتخذوا بها موقفا معاديا للعروبة والقومية العربية !..**

● بل إن الرجل لم يرفض « الفرعونية » و « المصرية » كتراث حضارى وتاريخ ، بل نظر إليهما كمنطلق لحاضر جديد ومستقبل أرحب يضم عالم العروبة والإسلام .. فكتب يقول : « ... فالمصرية ، أو القومية لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها من الكفاح والنضال ... إننا مصريون بهذه القومية فى البقعة الكريمة فى الأرض التى نبتنا فيها ونشأنا عليها ، ومصر بلد مؤمن ، تلقى الإسلام تلقيا كريما ، وذاد عنه ورد عنه العدوان فى كثير من أدوار التاريخ ... وهو لا

---

(١) زكريا سليمان بيومى «الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية فى الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ - ١٩٤٨» ص ١٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م . «ومقال البنا منشور بمجلة «الإخوان المسلمون» ١١ ربيع الثانى سنة ١٣٥٢ هـ . سنة ١٩٣٤ م .» .

يصلح إلا بالإسلام ... وقد انتهت إليه ، بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية والقيام عليها ... وليس يضيرنا أن نعنى بتاريخ مصر القديم ، وبما ترك قدماء المصريين من آثار الحضارة والعمران ، وبما سبقوا الناس إليه من المعارف والعلوم والفنون ، **فنحن نرحب بمصر القديمة ، كتاريخ فيه مجد وفيه عزة وفيه علم ومعرفة ، ونحارب هذه النظرية كمنهاج عملى يراد صبغ مصر به وعودتها إليه ... »** [1] .

● وهو عندما يتصدى بالنقد للدعوة « الفرعونية ـ الإقليمية » . إنما يكشف عن حقيقة موقفه الفكرى ، الذى لايتنكر للمصرية ، وإن كان يرفض الانغلاق فى إطارها ، بل يسعى لتكون مصر جزءا من قومية أكبر هى القومية العربية المرتبطة بعالم الإسلام ، فيكتب سنة ١٩٣٤م تحت عنوان : (مصر عربية ، فليتق الله المفرقون للكلمة) يقول : « ... وأما خطأ الفكرة من ناحية القومية المصرية ، **فلأن تمسكنا بالقومية العربية يجعلنا أمة تمتد حدودها من الخليج إلى المحيط ، بل إلى أبعد من ذلك ، ويبلغ عددها أضعاف أضعاف الملايين المحصورة فى وادى النيل ، فأى مصرى يكره أن تشاطره هذه الشعوب التى تظلها العربية شعوره وآماله وأفراحه وآلامه . إن من يحاول سلخ قطر عربى من الجسم العام للأمة العربية يعين الخصوم الغاصبين على خفض شوكة وطنه وإضعاف قوة بلاده ، ويصوب معهم الرصاصة إلى مقتل هذه الأوطان المتحدة فى قوميتها ولغتها ودينها وآدابها ومشاعرها ومطامحها .. »** [2] .

---

(١) المرجع السابق . ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٦٦ . « ومقال البنا منشور بمجلة «الإخوان المسلمون» ١ جمادى الآخرة سنة ١٩٥٢ هـ . سنة ١٩٣٤ م . »

● وعندما قامت (جامعة الدول العربية) ، عقب الحرب العالمية الثانية كتب البنا مؤيدا لقيامها ، وتحدث عن موقف (الإخوان) منها فى مقال عنوانه (آمالنا فى الجامعة العربية) فقال : « من أول يوم ارتفع صوت الإخوان هاتفا بتحية الجامعة العربية ، والأخوة الإسلامية ، إلى جانب الرابطة القومية والحقوق الوطنية . وكان الإخوان يرون أن الدنيا ستصير إلى التجمع والتكتل وأن عصر الوحدات الصغيرة والدويلات المتناثرة قد زال أو أوشك ، وكان الإخوان يشعرون بأنه **ليس فى الدنيا جامعة أقوى ولا أقرب من جامعة تجمع العربى بالعربى ، فاللغة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتاريخ واحد ...** »[1]

ونحن نلاحظ أن البنا لم يضع « الدين » بين الروابط التى تجمع العربى بالعربى ، فى هذا المقال .. لكنه فى مناسبات أخرى كان يتحدث عن الدين كعامل من العوامل التى تتكون الأمة والقومية من مجموعها ...[2] كما تحدث عن (قومية الإسلام) تحت هذا العنوان ، فقال : « إن الفرد إذا أخذ القرآن بيمينه ، والسنة المطهرة بيساره ، ووضع سيرة السلف أمام عينيه ، لرأيت من كل ذلك أن للإسلام قومية جامعة ووحدة ورابطة حول العقيدة والمبدأ .. »[3] وليس فى هذا ما يضير وضوح فكر الرجل فى المسألة القومية العربية ، خصوصا

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ « المقال منشور بمجلة « الإخوان المسلمون » ٢٢ ذى القعدة سنة ١٣٦٥ هـ . مارس سنة ١٩٤٦ م . » .

(٢) مقال « مصر عربية . فليتق الله المفرقون للكلمة » ـ مجلة « الإخوان المسلمون » ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢ هـ . سنة ١٩٣٤ م . المرجع السابق . ص ١٦٥ .

(٣) المصدر السابق . ص ١٧٥ . « والمقال منشور بمجلة « الإخوان المسلمون » ٨ ذى القعدة سنة ١٣٥٢ هـ . سنة ١٩٣٤ م . »

إذا نحن أدركنا مكان الإسلام من العروبة ، والعلاقة بينهما ، والمضمون الفضفاض لمصطلح « القومية » كما كان يستخدمه الرجل ..

● بل لقد أبصر البنا ، وعلى نحو جيد ، مكانة العرب القيادية فى عالم الإسلام ، ودورهم القائد فى تجديده ونهضة أمته ، فكتب يقول : « **إن العروبة ، أو الجامعة العربية لها فى دعوتنا مكانها البارز وحظها الوافر . فالعرب هم أمة الإسلام الأول ، وشعبه المتميز ، وبحق ماقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » . ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها . وإن كل شبر أرض فى أرض وطن عربى نعتبره من صميم أرضنا ومن لباب وطننا** .. »[1] .

* * *

لكننا كثيرا مانفتقد هذا الموقف القومى العربى ، الذى تميز به حسن البنا عند غيره من المتنسبين إلى (جماعة الإخوان) أو من قادة الحركات الإسلامية المناظرة لها فى النهج والمعاصرة لها فى التاريخ .

● فمن «كتبة» (الإخوان) من كتب عن دعاة القومية العربية فوصفهم بأنهم : هم « الشعوبيون العرب » ؟! ..[2] .

ووصف القومية العربية بأنها « أعنف حرب على الإسلام والعروبة عرفها

---

(١) المصدر السابق . ص ١٦٥ .

(٢) د . محمد رشاد خليل « دعوى مصر العربية » مجلة « الدعوة » عدد جمادى الأولى سنة ١٣٩٨هـ أبريل سنة ١٩٧٨م .

تاريخ الإسلام القديم والحديث » ؟!... ثم كتب فجعل علاقة المسلم المصرى بأخيه المصرى مساوية تماما لعلاقته بالمسلم فى أندونيسيا ونيجيريا وتركستان[1] !.. مهملا أى أثر للقوميات وقسماتها ؟!.. الأمر الذى جعل هذا « الفكر » ، الذى لم يبصر سوى رابطة العقيدة الإسلامية ، والذى غفل عن الواقع ـ والقومية وقسماتها وفعالياتها بعض منه ـ يرى فى العروبة ، بالمعنى القومى ، عنصرية ، على النحو الذى رآه ، مثلا ، الدكتور لويس عوض ، فى الجدل الذى ثار حول عروبة مصر سنة ١٩٧٨م[2] مع مابين الدكتور لويس ودوافعه ومنطلقاته وبين (الإخوان المسلمين) من ود مفقود وعداء موجود ؟!..

● **وأبو الأعلى المودودى (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م)** يرى القومية نقيضا « للدولة الفكرية » ، التى تمثل ، عنده ، دولة الإسلام ، ويراها نقيضا للإسلام قد أصبح ـ كما يقول ـ « دينا جديدا » يتدين به المسلمون القوميون ، يحول بينهم وبين النزعة « الإنسانية » ، ولا يراها دائرة أخص من الدائرة الإسلامية ، التى هى بدورها أخص من الدائرة الإنسانية ، دون لزوم التعارض والتناقض بين هذه الدوائر ، بل يرى « أنه ليس لعنصر القومية حظ فى إيجاد دولة الإسلام الفكرية وتركيبها »[3] .. كما يرى أن « القومية تعنى : أن يحل الشعب منزلة الألوهية ، ولا يكون للخير والشر من مقياس إلا مصالح الشعب وحده ..

---

(١) د . محمد رشاد خليل « شخصية مصر التاريخية » مجلة « الدعوة » عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ مارس سنة ١٩٧٨ م .

(٢) انظر آراء الدكتور لويس فى « السياسة الدولية » عددى ٥٣ ، ٥٤ ـ يوليو ـ ، وأكتوبر سنة ١٩٧٨ م .

(٣) المودودى « نظرية الإسلام السياسية » ص ٧١ ، ٧٥ طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة عنوانها « نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور » سنة ١٩٦٩ م .

وترقيته وإعلاء كلمته ... »[1] ... وهذه أهداف « قومية » يراها المودودى شركا بالله وكفرا بالإسلام !..

● وصنو المودودى: سيد قطب (١٣٢٤ ـ ١٣٨٦ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦ م) فى الفكر الذى انتهى إليه أواخر حياته ، وخاصة فى كتابه (معالم فى الطريق) يرى « القومية » بعامة . والقومية العربية . بخاصة . أحد الأصنام والطواغيت مثلها فى ذلك مثل الاشتراكية . والوطنية . لابد من تحطيمها حتى نخلص التوحيد والعبودية لله !...

● وأبو الحسن الندوى (١٩١٣م ـ) ، يرى ، هو الآخر فى « القومية » نبتا أوروبيا لادينيا ، وينكر أن يكون لها مكان فى فكر الإسلام وعالمه . « فالإسلام قد قسم العالم البشرى إلى قسمين فقط : أولياء الله وأولياء الشيطان ... »[2] .. ولا مكان فيه للقومية وروابطها .. هكذا على الإطلاق ، ودون تمييز بين القوميات التى تذكى نضال الأمم فى سبيل الحق والعدل ، وتلك التى يطفح مضمونها ومحتواها بالتعصب والعدوان والاستعلاء !..

---

(١) المودودى « واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم » ص ١٥٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م . (جدير بالذكر أن فكر المودودى فى القومية هو ثمرة لملابسات خاصة . ولعباراته هذه خصوصيات من الخطأ إغفالها وتعميم هذه الأفكار على القوميات خارج المحيط الذى كتب فيه .. انظر دراستنا عنه فى كتابنا الصحوة الاسلامية والتحدى الحضارى » ص ١١٤ ـ ١٢٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤ م .).

(٢) الندوى «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص ٢٠٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ م .

● **وسعد حوى** : يخفف نقد « القومية » ، من حيث المبدأ ، ولا يرى بها أو بالوطنية بأسا إذا كانت رباطا يربط الوطن وأهله بالإسلام[1] ... ولكنه ينتقد حركة القومية العربية وفصائلها نقدا شديدا ، ويراها مسئولة عن تمزيق المجتمع ، مفلسة فى الفكر ، تحارب الإسلام فى مكر وإصرار ..[2] ؟!..

وأمام نماذج « الفكر » هذه .. لنا أن نسأل عن فكر الإخوان المسلمين فى المسألة القومية ، والمسألة القومية العربية خاصة ، وعن علاقة العروبة بالإسلام ... أهو الذى وجدناه ، واضحا ، عند الشيخ حسن البنا ؟.. أم هو ذاك الذى سطره « كتبة » و « مفكرون » انتسبوا للاخوان ، أو قادوا جماعات إسلامية مناظرة للإخوان ؟!...

لقد افتقد التيار الإسلامى الحزبى المعاصر وحدة الموقف إزاء هذه القضية وإن ظل موقف الشيخ حسن البنا هو الأعمق ، والأكثر اتساقا ، والأقرب إلى فكر (الجامعة الإسلامية) فى هذا الموضوع .

* * *

وبعد : فإن تعجبْ فعجب من أن يظل الكثيرون منا غافلين عن مخاطر تلك الثغرة التى تفتحها فى صفوفنا الوطنية والقومية تصورات غير موضوعية عن تناقض (العروبة) مع (الإسلام) ... وذلك على الرغم من أن الإسلام الحق والعروبة الحقة يكونان مزيجا واحدا .. فالأمة العربية ، المتميزة قوميا فى المحيط

---

(١) سعيد حوى « الاسلام » ج ٢ ص ٦٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ .

(٢) سعيد حوى « من أجل خطوة إلى الامام على طريق الجهاد المبارك » ص ٦٠ ـ ٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

الإسلامى مدعوة ومرشحة لقيادة هذا المحيط . وذلك بحكم إمكانياتها فى الدنيا ، ولمكانة العرب فى الدين .. كما أن الإسلام هو الرسالة الخالدة للأمة العربية الواحدة ، به تبوأت مكانها القيادى ، ومنه كان الفكر والعادات والتكوين النفسى ، التى بها تميزت قوميا عن غيرها من القوميات ..

ثم .. هلا اعتبرنا من موقف أعدائنا ؟.. أولئك الذين ظلت أعينهم ، طوال مراحل صراعهم ضدنا على هذه الثغرة ، ينفذون منها ليضربوا كلا من (العروبة) و (الإسلام) ؟! .. فهم مع « عروبة » محمد على ضد « إسلام » آل عثمان .. حتى إذا قويت هذه « العروبة » ضربوها بهذا « الإسلام » ! .. ثم هم مع « عرب » المشرق ضد سلطان « المسلمين » فى الحرب العالمية الأولى . وصولا إلى احتلال أرض العرب والمسلمين جميعا ؟! .. وتتكرر القصة عندما يناصرون « الأحلاف الإسلامية » لضرب « المد القومى » ابان ازدهار الناصرية ؟! ..

فهلا وعينا « إسلامنا » و « عروبتنا » جيدا ، وأبصرنا علاقاتهما العضوية فقطعنا على أعدائنا الطريق ؟!

ـ ٢ ـ

الفكر الإسلامى والوحدة العربية

العلاقة فى كلمات

كما واجهت حركة « الجامعة الإسلامية » ـ فى العقود الأولى من هذا القرن العشرين ـ : « قومية » علمانية ، تقطع الصلات بين « العروبة » و « الإسلام » ... تواجه « العروبة » اليوم « شعوبية » جديدة تناصبها العداء ـ تحت رايات مموهة بالإسلام ـ قاطعة مابين « العروبة » و « الإسلام » من صلات وعلاقات ..

الأمر الذى يجعل الأمة تواجه الخطر « القديم ـ الجديد » .. خطر التشرذم والانقسام الحاد فى قوى الأصالة الممثلة لذاتها الحقيقية ..

أ ـ قوميون يديرون ظهرهم للإسلام !..

ب ـ وإسلاميون ينفرون من العروبة كل النفور !..

* * *

وإذا كانت هذه الدراسة تعتقد بوجود « أرض مشتركة » و « علاقة عضوية » مابين العروبة والإسلام .. فإنها تنبه إلى أن « التناقض » المزعوم بينهما إنما هو مفتعل .. وخاطئ .. وشاذ .. وذلك فضلا عن ضرره الكبير..

هو كذلك اليوم .. كما كان دائما عبر تاريخنا الحضارى العريق والطويل ..

وليس أدل على شذوذ دعوى « التناقض » هذه بين « العروبة » و « الإسلام » من تأمل هذه المأثورات التى تكثف فكر الأمة حول علاقة العروبة بالإسلام .. منذ ظهر الإسلام .. وحتى العصر الذى نعيش فيه ....

يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

● [**الكفر فى العجمة ... ولا يبغض العرب إلا منافق ... وإذا ذل العرب ذل الإسلام**] .

حديث شريف .

● [**إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها ... والأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لايحتاج معه إلى دليل أوبرهان**] .

جمال الدين الأفغانى

● [**كان الإسلام عربيا . ثم لحقه العلم فصار علما عربيا . بعد أن كان يونانيا .. فلما سيطر الأعاجم على الدولة استعجم الإسلام وانقلب أعجميا**] .

محمد عبده

● [**إن العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية . بل الكلمة الشرقية**] .

عبد الرحمن الكواكبى

● [**إن العرب قد رشحوا لهداية الأمة . وإن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام . وهو لسان العرب . فينمو عدد الأمة**

العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ويهتدون مثلها بهدى الإسلام .. ولقد كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول الإنسانية ، ورجل القومية العربية والأمة العربية فى آن واحد] .

عبد الحميد بن باديس

● [لقد نشأ الإسلام عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان .. فالعرب هم أمة الإسلام الأول ، وشعبه المتميز .. ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة العرب ونهضتها .. وليس فى الدنيا جامعة أقوى وأقرب من جامعة تجمع العربى بالعربى ، فاللغة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتاريخ واحد . ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها] .

حسن البنا

* * *

● [ليس لعنصر القومية حظ فى إيجاد دولة الإسلام وتركيبها] ؟ ! ..

أبو الأعلى المودودى

● [القومية : صنم من الأصنام وطاغوت من الطواغيت] ؟ ! ..

سيد قطب

● [إن القومية : هى نوع من أنواع العنصرية المرفوضة فى الإسلام] ؟ ! ..

عبود الزمر

* * *

هكذا جسدت وتجسد هذه المأثورات مسيرة الفكر الإسلامى فى موقفه من علاقة « العروبة » « بالإسلام » .. وموقف الإسلام الدين من الدائرة القومية التى ينتمى إليها المتدينون بهذا الدين ...

فما هو وجه الصواب فى هذا الموضوع .. والقضية المثارة فى الفكر الإسلامى ... والمطروحة ـ بإلحاح ـ على العقل المسلم .. والمتفجرة فى الواقع الذى يعيشه المسلمون ؟؟..

قضية مصير

هكذا .. اختلفت وتختلف الآراء حول موضوعنا : علاقة « العروبة » بـ « الاسلام » .. وموقف « الإسلام » من « القومية » .. وموقع « الفكر الإسلامى » من « فكر ، وحركة الوحدة العربية » على وجه التحديد ..

ويزيد من أهمية هذه القضية ، ومن إلحاحها على العقل العربى والمسلم أن الخلاف فيها ليس مجرد خلاف حول قضية « نظرية » و « فكرية » ، مهما كان مردودها الفكرى والنظرى .. وإنما هو خلاف يتعدى حدود « النظر والفكر والتأمل » فى قضية من القضايا « التاريخية » ، إلى حيث يصبح ـ ولقد أصبح بالفعل ـ صراعا «حاضرا» حول « المستقبل » و « المصير » ؟! ..

بل إن هذا الخلاف القائم حول علاقة « العروبة » و « القومية العربية » و « حركة الوحدة العربية » بالاسلام ، لم يقف عند حدود « الخلاف الداخلى » بين فرقاء من أبناء الأمة ، وإنما رأيناه ، ومازلنا نراه سلاحا بيد القوى الخارجية المعادية ، تاريخيا وحضاريا ، لهذه الأمة ، تستخدمه بمهارة وخبث شديدين فى الحيلولة بين أمتنا وبين امتلاك عوامل الوحدة والقوة والنهوض ! ..

● فالاستعمار الغربى ، منذ العقود الأولى لموجة غزوته الحديثة ، قد استظل

بأعلام « الإسلام » ورايات « الخلافة الإسلامية » . وهو يضرب أول مشروع للإحياء والتوحيد العربي فى تاريخنا الحديث ؟!..

فعندما تحولت الإمبراطورية العثمانية إلى « دولة الرجل المريض » ، وامتلأ جدارها ـ بسبب الاستبداد والظلم والفقر الحضارى ـ بالثغرات التى زحف منها الاستعمار ، ينهب بلادنا بالامتيازات ، ويقتطع أقاليمها بالاحتلال ...
حدث أن حاولت مصر الحديثة ، تحت قيادة محمد على باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] إنقاذ الولايات العربية العثمانية من وضع ومصير « التركة » التى يحرس الاستعمار الغربي تخلفها وتشرذمها انتظارا للحظات الالتهام والاقتسام ... ولقد تميزت هذه المحاولة « بطابع عربي » لاشك فيه .. فقائد الجيش الذى حارب العثمانيين لاستخلاص المشرق وتوحيده مع مصر والسودان ، إبراهيم باشا [١٢٠٤ ـ ١٢٦٤هـ ١٧٩٠ ـ ١٨٤٨م] هو الذى أجاب ، عندما سئل ، أثناء حصاره « لعكا » سنة ١٨٣٢م :

ـ « إلى أى مدى تصل فتوحاتك .. إذا فتحت عكا ؟ ..

ـ **إلى مدى مايتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربي »**[1] !..

وفى مواجهة هذا « المشروع العربي » للنهضة والإحياء ، لم يتورع الاستعمار عن أن يتقدم ليحاربه ويهزمه تحت رايات « الإسلام » ، متحالفا مع « الخلافة الإسلامية » ، الممثلة يومئذ فى سلاطين آل عثمان ؟!..

● وبعد أن اطمأن الاستعمار إلى هزيمة مشروع مصر « العربي » ، وكرس

---

(١) الرافعي ، عبد الرحمن [عصر محمد على] ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥١ م .

ذلك بحصار مصر داخل حدودها الإقليمية بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م .. لم تعد تقلقه الأفكار ولا المشاريع « العربية » ، طالما كانت غير توحيدية ؟! ..

وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر.. وعندما انبعثت من « الواقع العربى » ، بواسطة « قيادات عربية » دعوات وشعارات « الجامعة الإسلامية » . كانت مشاريع « الاستقلال ـ الإقليمية » و « عروبة : التشرذم والتجزئة » هى البديل الذى سعى الاستعمار إلى تشجيعه ، كى يجهض بها « جامعة إسلامية » تقودها الأمة العربية » فى نهضة تنقذ بها تركة دولة الرجل المريض من مخططات الاستعمار .. فوجدنا رجلين مثلا بلنت ، ولفرد سكاون « S.B. Lunt »[١٨٤٠ ـ ١٩٢٢ م] يسعيان ، بالدعاية وعروض التمويل ، لمساعدة مناطق فى شبه الجزيرة العربية « للاستقلال » عن الامبراطورية العثمانية ، تحت أعلام « العروبة » ، وفى مواجهة رايات « الإسلام » ؟! ..

وعندما عرض « بلنت » أفكاره هذه على الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ وكان صديقه ـ لم ينكر محمد عبده حق العرب .. وجدارتهم ـ فى الاستقلال ... لكنه رأى هذا المشروع ، بصورته تلك ، وفى ملابساته السبيل لتمزيق العرب والأتراك معا ، والمقدمة لابتلاعهما من قبل الاستعمار ! .. ولقد عبر الرجل عن هذه الحقيقة بكلمات جاءت « نبوءة سياسية » لماحدث بعد ذلك بسنوات .. قال : « إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لايمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ماليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة ، الواقفة لها

بالمرصاد . فاستولوا على الفريقين ، أو على أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الإسلام . فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته ... إننى أكره أعمال السلطان العثمانى ، لجبنه الخانع ، وتسلط المشايخ الذين قربهم .. لكن ، لايوجد مسلم يريد بالدولة سوءا ، **فإنها سياج فى الجملة** . وإذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود ، بل أقل من اليهود فإن اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المال ، ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء ... **إننى فى يأس تام من طبقة الأمراء والحكام .. فلا يرجى منهم خير.. لكن ، كيف نيأس من الإصلاح ؟!.. إن حالة أوربة كانت أشد شرا من حالتنا فى الجهل ومقاومة العلم ؟!..»** [1]

فنى ذلك الظرف التاريخى ، أبصر محمد عبده أن هدف الاستعمار هو ضرب العروبة والإسلام جميعا .. فرايات العروبة التى يلوح بها ليست رايات الوحدة ، وإنما هى رايات «التشرذم» و«الإقليمية» ، والهدف هو استغلال هذه الرايات لضرب حركة الجامعة الإسلامية ، التى دعت إلى نهضة المسلمين من « غانة إلى فرغانة » ، بقيادة العرب ، بعد أن ثبت عجز الأتراك ؟!..

● ونحن إذا تأملنا تلك المأساة التى صنعها لنا وبنا الاستعمار خلال سنوات الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ ــ ١٩١٨م] وفيما أعقبها من سنوات .. سنرى

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ١ ص ٧٣٥ ، ٧٣٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

صدق حدس الشيخ محمد عبده فى كلماته التى سبقت تلك المأساة بما يقرب : من عشرين عاما ..

ففى مواجهة « الإسلام » وشعار « الجامعة الإسلامية » ، الذى رفعت الدولة العثمانية وأنصارها أعلامه ، رمى الاستعمار بكل ثقله ـ فى الظاهر ـ إلى جانب شعار « استقلال العرب » .. أما فى الواقع والحقيقة فإنه فرض التشرذم والإقليمية على المشرق العربى ، وفق مخطط معاهدة « سيكس ـ بيكو » ، ثم ضن على هذا التشرذم بالاستقلال ففرض عليه الاستعمار ، تحت اسم « الانتداب » فاكتملت سيطرته على الوطن العربى من الخليج إلى المحيط ، ثم تقدم فألغى « الخلافة ـ الرمز » ، كى ينهى ويقبر أية آمال فى إصلاحها كرباط جامع وموحد ، فأسفر عن وجهه المعادى لكل من « العروبة » و « الإسلام » ، بعد أن مكث طويلا يضرب الواحد منهما بالآخر ، وفق الظروف ، كى يحول بينهما وبين الصيغة المثلى للعلاقة الصحية ، الكافلة قوة ونهضة العرب والمسلمين على السواء ! ..

وحتى مبادئ الرئيس الأمريكى « ولسن » [١٨٥٦ ـ ١٩٢٤ م] الأربعة عشر التى أعلنها سنة ١٩١٨ م ، والتى خدع معلمونا بها تلامذة مدارسنا ولا يزالون ، قرابة نصف قرن من الزمان ، عندما قالوا إنها قد بشرت كل الشعوب بحقها فى تقرير المصير .. حتى هذه المبادئ نراها ، فى الحقيقة ، قد ميزت تمييزا عنصريا ، بين الشعوب .. ففى أوربا دعت إلى تسوية حدود إيطاليا والنمسا والمجر وشبه جزيرة البلقان وفق « المعيار القومى » .. أما فى شرقنا العربى والإسلامى ، فهى قد دعت إلى قصر حكم الأتراك على الرعايا من جنسهم ..

ثم تركت . بل وناصرت مخطط « سيكس ـ بيكو » ، والمشروع الصهيونى . وقرارات « الانتداب » .. فاجتمعت كلمة الغرب الاستعمارى على ضرب « الإسلام » و « العروبة » جميعا ! ..

● وعلى ذات الدرب تواصلت خطوات الاستعمار .. بل ـ ومع الأسف الشديد ـ خطوات قوى محلية ابتلعت طعم « التناقض . بل والعداء مابين العروبة والإسلام » ـ .. **فرأينا أعداء المشروع القومى العربى ، الذى قاده جمال عبد الناصر [١٣٣٦ ـ ١٣٩٠ هـ ـ ١٩١٨ ـ ١٩٧٠ م] يستظلون برايات « الحلف الإسلامى » ، وبرزت ، فى حقبة هذا المشروع القومى العربى ـ كما لم يحدث من قبل فى تاريخنا الحديث ـ شعارات ترفعها حركات إسلامية تصف القومية العربية والوحدة العربية بالعنصرية ، بل وبالشعوبية ؟ ! .. وتتحدث عن رفض الإسلام للقومية ، وعن العداء المبدئى ـ أزلا وأبدا ـ بين « العروبة » و « الإسلام » ؟ !**

حدث ذلك .. وما يزال حادثا فى واقعنا الفكرى والسياسى الراهن حتى ليوشك الأمر أن يبلغ بالبعض حد « الطائفية الفكرية » ؟ ! .. فنرى :

(أ) « قوميين ـ عروبيين » :

تتلمذوا ـ فى الفكر القومى ـ على المدارس القومية الأوربية ـ فجاءت قوميتهم « علمانية » . تنفى الإسلام عن موقعه فى الفكرة العربية والحركة العربية . كما نفت قوميات الغرب « لاهوت الكنيسة وكهنوتها » من الفكر والحركة اللذين صنعا لأوربا دولها القومية ونهضتها الحديثة .

(ب) و « إسلاميين ـ عربا » :

تتلمذوا ـ فى فكرهم السياسى الإسلامى ـ على فكر سياسى إسلامى غير عربى ـ أفرزته ملابسات خاصة ـ غير عربية ـ فهم أصحابه القومية بمعناها الأوربى العلمانى ـ فجاء هذا الفكر ـ وهو هندى المنبع والمنطلق ـ ليناصب القومية كل العداء ... ومضى هؤلاء « الإسلاميون ـ العرب » ـ فى مواجهة « المشروع القومى العربى الناصرى » ـ ينتزعون هذه النصوص السياسية الغربية عن الملابسات العربية ، ويوظفونها قسرا فى البيئة العربية ، التى لا علاقة لها بأى من الملابسات التى أفرزت هذه الأفكار .. فاصطنعوا مشكلة : تناقض « الإسلام » مع « العروبة » ، ليستعيروا لها الحل الغريب ، الرافض للقومية العربية وللوحدة العربية باسم الإسلام ؟! ..

(جـ) و« إسلاميين ـ غير عرب » :
تدفع بعضهم روح « الشعوبية الجديدة » للسير على ذات الدرب ، مستهدفين ذات الغايات ؟! ..

ـ فإذا علمنا ـ ونحن نواجه هذا الواقع ـ أن « العروبيين » و « الإسلاميين » ـ فى واقعنا الفكرى والسياسى ـ هما القوتان الأساسيتان اللتان تتجسد فيهما « الذاتية الأصيلة والحقيقية للأمة » .. فأية مأساة كامنة فى هذا « الخلاف ـ المؤامرة ـ المصطنع » الممزق لقوى الأمة الحقيقية والرئيسية بافتعال التناقض داخل هويتها « العربية ـ الإسلامية » ؟! ..

وإذا كان الأمر كذلك .. فأية أهمية تحملها ـ للحاضر والمستقبل والمصير ـ الكلمة السواء عن علاقة « العروبة » « بالإسلام » .. وموقف الفكر الإسلامى

من العروبة القومية ، ومن الوحدة القومية لوطن الأمة العربية ؟؟ ..

* * *

فى البـــدء :

كانت العروبة ، والجماعة العربية قبل أن يظهر الإسلام .. فلما أرسل الله الرسول العربى ، محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة الإسلام قبل أربعة عشر قرنا من الزمان ، كانت رسالته ، كما بلورها القرآن الكريم : الحلقة الخاتمة فى سلسلة الرسالات السماوية التى توالت على درب هداية السماء للإنسان ، وهى رسالات توحدت فى جوهر العقيدة ، وتمايزت فى النهج والشريعة .. بحكم وحدة الدين ، وتبعا لتمايز أمم الرسالات ولغاتها وواقع مجتمعاتها ومراحل التطور التى كانت تمر بها كل أمة عندما جاءها نبأ السماء ...

فجوهر الدين الإلهى الواحد : عقيدة التوحيد فى الألوهية ، وعمل صالح ، وإيمان بالجزاء .. وفى هذا الجوهر جاء الرسول العربى ـ برسالة الإسلام وكتابه المعجز ـ مصدقا لما سبق من الدين والكتب والرسالات ومصححا لما طرأ عليها من التحريف والتأويل والتبديل .. فكان ـ فى هذا الجانب ـ : دينا عالميا ، ليست فيه خصوصية عربية بأى حال من الأحوال ليس من حيث كونه استمرارا للدين الإلهى العالمى كما عرفه التاريخ السابق والأمم التى خلت فحسب ، وإنما من حيث نطاق الدعوة الجديدة وحدود التكليف الإلهى الذى اصطفى الله له خاتم الرسل والأنبياء .. دين عالمى أوحى الله به إلى رسول مأمور أن يبلغه إلى العالمين .. [قل لا أسألكم عليه أجرا

إن هو إلا ذكرى للعالمين][1] .. [وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين][2] .. [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين][3] .. [تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا][4] .. [وماهو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين][5]

ونحن نلاحظ أن جميع هذه الآيات ، التى تتحدث عن عالمية الدعوة والرسالة والقرآن ، مكية .. فهذه العالمية للإسلام الدين قضية مبدئية أصيلة ، وليست طارئا ذا علاقة بـ « الدولة » والسياسة » و « الفتوحات » ! ..

وفى إطار العقيدة الإسلامية ليست هناك خصوصية للعرب على غيرهم من الأمم ، بالمعنى القومى ولا فضل فى هذا المجال لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ..

لكن هذا القرآن ، الذى جاء ليبشر بالعقيدة الإلهية العالمية ، قد نزل بلسان عربى مبين ـ فالرسول ، الذى اصطفاه الله لحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة : عربى ... ومن هنا جاء اصطفاء العربية لسانا لهذا القرآن ... واصطفاء الجماعة العربية طليعة لحمل هذه الرسالة إلى العالمين .. وهنا تبدأ الخصوصية بين العروبة وبين الإسلام ، وتبدأ العلاقة المتميزة بين العرب والإسلام ..

ثم .. إن فهم العقيدة لابد له من فلسفة ومنطق وأداة للجدل والحوار

---

(١) الأنعام : ٩٠ .
(٢) يوسف : ١٠٤ .
(٣) الأنبياء : ١٠٧ .
(٤) الفرقان : ١ .
(٥) التكوير : ٢٥ : ٢٧.

مع الخصوم .. وهنا يأتى دور « الواقع العربى » ، الذى أصبح مادة فى الجدل العقائدى ، لابد من دراسته واستيعابه لوعى حقيقة وأبعاد هذا الجدال ..

ولما كان الإسلام لم يقف عند حدود « العقيدة » ، وإنما جاء بنهج متميز اختص الله به هذه الأمة طريقا تسلكه للتدين بهذه العقيدة ، وجعل فى هذا النهج أحكاما هى فلسفات وأطُر ومقاصد ـ ثوابت ـ تحكم المتغيرات من شئون الحياة الدنيا .. فلقد كان « للواقع العربى » الشأن الكبير الذى طبع هذا الجانب من جوانب الإسلام بالطابع الخاص .. هنا نلحظ كيف كان الواقع العربى هو « سبب النزول » لآيات القرآن الكريم ، وبدون وعى هذا « الواقع الحضارى العربى » لاسبيل إلى فقه هذا الجانب من جوانب الإسلام الدين .. من هنا تبدأ العلاقة بين الخصوصية العربية وبين الإسلام ، كدين عالمى لايختص به العرب دون العالمين .. ومن هنا بدأت وتبدأ العلاقة « العضوية .. والجدلية » بين العروبة والإسلام ..

فما كان للقرآن إلا أن يكون عربيا [وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم][1] .. [وهذا لسان عربى مبين][2] .. [إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون][3] .. [وكذلك أنزلناه حكما عربيا][4] .. ولكل ذلك فهو ـ مع توجهه بالعقيدة العالمية لجميع العالمين ـ فخر للعرب ، كقوم للنبى العربى ، [وإنه لذكر لك ولقومك ..][5] .. **وإذا كانت ترجمة القرآن تفقده خاصية بيانه المعجز ، فإن العربية ، للقرآن لغة « مصطفاة ؟ ! .. »**

---

(١) إبراهيم : ٤
(٢) النحل : ١٠٣ .
(٣) يوسف : ٢ .
(٤) الرعد : ٣٧
(٥) الزخرف : ٤٤

عقيدة أزلية ، جاء بها القرآن مصدقا لما سبقه من كتب على درب صلة السماء بالأرض وهداية الله للإنسان .. و « **شريعة** » حملت خصوصية الأمة الجديدة .. و « **اصطفاء** » لهذه الأمة ولغتها وواقعها الحضارى ، بحكم دورها فى فقه الدين وحماية الدعوة والجهاد فى سبيلها وحملها إلى العالمين .. وبحكم مكان العربية لغة وواقعا حضاريا فى فهم العقيدة والشريعة .. الأمر الذى وحد بين العروبة والإسلام ، وربط بين الأمة العربية والإسلام ، فى الصعود والهبوط ، والتقدم والتقهقر على مر التاريخ ... ولم يكن ذلك بالأمر الغريب فهو الرباط العضوى بين « الدعوة العالمية » وبين « القائد الطبيعى » لهذه الدعوة العالمية ؟ !

وإذا كانت «عروبة» القرآن قد مثلت «جديدا» أضيف إلى «تصديقه» لما سبقه من كتب سماوية ، فإن خصوصية « شريعة » الرسالة الخاتمة ـ ومكان العروبة فيها ملحوظ ـ قد جعل له الهيمنة على مابين يديه من الكتاب ! .. [ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ..][1] .. [وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون][2] .

هكذا كانت البداية ...

---

(١) الأحقاف : ١٢ .

(٢) المائدة : ٤٨ .

● دين عالمى العقيدة . لاخصوصية فيها لأمة على أمة . ولا اختصاص فيها لعربى على أعجمى ..

● لكن عروبة الكتاب .. والرسول .. والطليعة .. والواقع ـ وهى المقومات التى جعلت هذه العقيدة قوة حية تجسدت فى واقع الحياة ـ جعل للأمة العربية علاقة خاصة بهذه الرسالة العالمية . وجعل لواقعها الحضارى مكان « المذكرة التفسيرة » من « القانون » .. ومن هنا جاءت الخصوصية وجاء الارتباط بين « الدعوة العالمية » و بين « قائدها الطبيعى » و « السبيل الأمثل » إلى فقهها ؟! ..

* * *

الدين .. والدولة .. والحضارة :

ولأن الإسلام لم يقف عند « العقيدة » و « النهج ـ الشريعة » الميسر للتدين بهذه « العقيدة » . فإنه لم يقف عند حدود « النحلة الدينية » و « الرسالة الروحية » و « المذهب التهذيبى » فى عالم الأخلاق ... لقد فرض على الناس فروضا اجتماعية . سماها فقهاء الإسلام « فروض الكفاية » . يتوجه التكليف بها إلى « الجماعة : الأمة » . ويقع إثم التقصير فيها على الأمة جمعاء.. ولذلك فهى آكد من «فروض العين» الفردية ـ مثل الصلاة والصوم والحج إلى بيت الله الحرام ! ـ..

ورغم أن « الدولة » لم تذكر فى « الفروض الاجتماعية » للإسلام . إلا أن « الواقع » و « العقل » قد حكما بأنه لاسبيل إلى إقامة « الفروض الاجتماعية » الإسلامية بدون هذه « الأداة ـ الدولة » . فغدت ـ فى الإسلام ـ « فريضة

مدنية » اقتضتها « فرائض الدين » ، وقامت بينهما ـ الدين والدولة ـ علاقة شابهت علاقة « العرب والعروبة » بـ « الإسلام الدين » !.. فالدولة ـ وهى ليست فريضة دينية ـ غدت شرطا ضروريا لإقامة الإسلام ونمائه واستمراريته ... والعرب ـ والإسلام ليس خاصا بهم ـ كانواهم أداة الإسلام وحزبه الطليعى الذى أقام له الدعائم وحفظ له الأركان وضمن له الانتشار ..

ولقد كان طبيعيا ـ بل وضروريا ـ أن تكون هذه الدولة « عربية » بقدر ماهى « إسلامية » .. وأن يكون هذا هو حال « الحضارة » التى أقامتها « الأمة » ، بواسطة « الدولة » ، من حول نواة هذا « الدين » !..

لقد اكتمل الإسلام ، بثوابته الدينية ـ عقيدة وشريعة ـ كوضع إلهى ـ باكتمال نزول القرآن الكريم [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا] [1] .. لكن الدائرة من حول « الثوابت الدينية » ـ فى شئون الدنيا وعمرانها .. والدولة وسياستها .. والحضارة والإبداع فيها ـ كانت ، وستظل دائمة النمو والاتساع ..

وبسبب من أن الإسلام هو خاتم الرسالات ، جاء عندما بلغت الإنسانية سن رشدها ، فلم تعد خرافا ضالة تحتاج دوام وتوالى الأوصياء .. فلقد ناسب الإسلام هذا الطور الإنسانى الجديد ، فجعل معجزته « النقلية » ـ القرآن ـ معجزة « عقلية » ، جاءت تحتكم إلى العقل ، ولم تأت لتدهشه كما كان الحال مع معجزات الرسل السابقين .. فعلا مقام العقل فى « الدين » .. وكان طبيعيا

(١) المائدة : ٣ .

أن يكون مقامه أعلى فى شئون الدنيا والدولة والحضارة ، التى أوكل الإسلام إبداع علومها وصياغة نظمها إلى «العقل ـ المسلم» بواسطة «الاجتهاد».

وبسبب من عروبة القرآن والسنة ... وبسبب من عروبة الواقع ، الذى قام مقام « المذكرة التفسيرية » للقرآن والسنة ، فلقد غدا فقه العربية وحذق علومها ، بل والبراعة فى فهم تراثها الجاهلى ـ نثرا وشعرا وحكمة ـ هو الطريق الوحيد للاجتهاد الإسلامى ... وانعقد الإجماع فى الإسلام على عروبة أدوات الاجتهاد .. ومن ثم كانت عروبة ثمرات هذا الاجتهاد .. فجاءت علوم الإسلام عربية فى الأساس .. ووضح ذلك فى « دولته » كل الوضوح ..

● فالعروبة هى السبيل إلى تقنين أحكام الشريعة .. لأنه لاسبيل إلى فقه القرآن والسنة والواقع العربى لعصر الوحى إلا بالتضلع فى علوم العربية .. ومن هنا قامت علاقة التلازم بين إسلامية القانون وبين عروبة مؤسسة التشريع فى الدولة الإسلامية ـ [أهل الحل والعقد] ـ

● ودولة الإسلام ـ فى سلطتها العليا ـ « الخليفة ـ الإمام » ـ لابد أن تكون عربية .. لأن الإسلام قد اشترط أن تكون الدولة « للعلماء » ، فأجمع فقهاؤه على اشتراط العلم البالغ مرتبة الاجتهاد فى رأس الدولة ـ الخليفة ـ .. ولاسبيل إلى بلوغ مرتبة الاجتهاد هذه إلا بعروبة تيسر فقه القرآن العربى المبين[1] ! ..

لقد وقفت حقيقة هذه العلاقة بين «العروبة» و «الإسلام» خلف عروبة

(١) د . محمد عمارة [المعتزلة وأصول الحكم] ص ١٥٢ ومابعدها . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

الدولة الإسلامية ، وجعلت العروة وثقى بين انتشار العربية ـ يوم كانت الدولة عربية ـ وبين انتشار الإسلام .. وفى هذا الضوء نفهم المعنى الحقيقى والعميق لكلمات الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] التى تقول : « إن العرب قد رسموا لهداية الأمة ، وإن الأمم التى تدين بالاسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام ، وهو لسان العرب .. فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام ... »[1] .. ونفهم معنى كلمات الإمام حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] التى تقول : « لقد نشأ الإسلام عربيا .. ووصل إلى الأمم عن طريق العرب .. وجاء كتابه بلسان عربى مبين .. وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ... »[2] .. وفى هذا الضوء نفهم قرارات مؤتمرات الفكر والتعليم والسياسة الإسلامية ـ المبرأة من الشعوبية ـ حول ضرورة دراسة العربية للأمم التى أسلمت ولم تقترن فيها العروبة بالإسلام ؟!..

* * *

لكن .. أية عروبة ؟؟ :

وإذا كان هذا هو « الإسلام » ، الذى ارتبط ـ فى جوانبه الحضارية ـ بـ « العروبة » ، ـ رباطا عضويا وجدليا .. فأية « عروبة » تلك التى ارتبطت هذا النوع من الارتباط بـ « الإسلام » ؟؟..

---

(١) [كتاب آثار ابن باديس] جـ ٤ ص ١٧ ـ ١٩ . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

(٢) حسن البنا [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٦ . طبعة دار الاعتصام . القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

لقد ظهر الإسلام و« للعروبة » فى شبه الجزيرة العربية معنى « **العصبية العرقية .. والتعصب للدم .. بل وللقبيلة على وجه التحديد** » .. وبالطبع فلم تكن ــ ولن تكون ــ هذه العروبة ، بهذا المعنى ، هى التى يرضاها الإسلام ويقيم معها علاقة الإخاء ..

لقد رأى الإسلام فى هذا الفهم لمصطلح «القوم» و«العروبة» بداوة ضيقة الأفق ، تجعل الإنسان أسيرا لأوهام تحول بينه وبين العدل والإنصاف فى العلاقات الإنسانية وتقويم المذاهب والأفكار .. فكان لابد له ــ وهو الذى جاء موحدا لله فى الدين وموحدا للعرب فى الدولة والانتماء ــ من أن يرفض هذا المفهوم الضيق الذى يمزق الجماعة العربية ، سياسيا وقوميا ، تمزيق تعدد الآلهة لها فى المعتقد والدين .. ولذلك وجدنا الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوجه نيرانه الفكرية إلى هذا المفهوم العرقى والقبلى للعروبة ، ويدعو الناس إلى نبذ هذه العصبية الجاهلية قائلا لهم : « دعوها ، فإنها منتنة »[1] ؟!.. ويقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية »[2] ! .. فلما سأله الصحابى واثلة بن الأسقع :

ــ يا رسول الله ، ما العصبية ؟

ــ [أجاب] : « أن تعين قومك على الظلم »[3]

(١) رواه البخارى والترمذى .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه أبو داود .

فإذا ما عاد الصحابي ـ واثلة بن الأسقع ـ ليسأل الرسول :

ـ يارسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟

جاء جواب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ **يميز بين الولاء القومى القائم على معايير العدل ، وبين ذلك الولاء القومى الأعمى الذى يهدر معايير العدل فى سبيل التعصب للأعراق والدماء .. فقال فى جوابه :**

ـ « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم »[1]

فالولاء القومى الواعى ، والمؤسس على معايير العدل هو المضمون الذى زكاة الإسلام ودعا إليه كى يكون المحتوى لمصطلح « القوم » و « العروبة » .. أما الولاء الأعمى ، الذى يهدر معايير العدل فى سبيل عصبية العرق والجنس ، فهو الذى رفضه الإسلام .. وقال فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من قاتل تحت راية عُمِّيَّة ـ [وهى الأمر الأعمى ، الذى لا يستبين وجهه] ـ يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، فَقتِل فَقِتْلَةٌ جاهلية »[2] !

بل لقد رأينا الإسلام ـ منذ ذلك التاريخ القديم ـ يمضى على هذا الدرب فيغرس فى تربة المجتمع الذى صاغه « المفهوم الحضارى » ـ بدلا من « المفهوم العرقى » ـ للعروبة .. فيخطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الناس قائلا : « أيها الناس ... ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى[3] » ! .. ثم يتقدم على هذا

(١) رواه ابن ماجة والإمام أحمد .

(٢) رواه مسلم .

(٣) ابن عساكر [تهذيب تاريخ دمشق] جـ ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

الدرب . فيضع هذا الفكر الجديد فى التطبيق . فى التنظيم الجديد لرعية الدولة العربية الإسلامية . صار الولاء للعروبة . بالمعنى الفكرى واللغوى والحضارى . هو المعيار المحدد لإطار « القوم ـ والقومية » . وليس العرق والدم والجنس .. فالذين كانوا بالأمس أرقاء . ينحدرون من أصلاب وأعراق رومية أو فارسية أو حبشية . غدوا ـ بعد أن تعربوا باللغة والحضارة ـ جزءا من « القوم العرب » . وقام رباط « الولاء » الذى ربطهم بالقبائل التى كانوا فيها من قبل رقيقا ـ وهو رباط اختيارى غير مفروض عليهم ـ قام هذا الرباط مقام « النسب » . فغدت الحضارة والثقافة والفكر « نسبا » جديدا ألف بين الأعراق المختلفة فى كيان قومى جديد .. ورووت السنة الشريفة . فى هذه القضية الكثير من الأحاديث النبوية التى تقول : « مولى القوم منهم[1] » و « الولاء لُحمة كلُحمة النسب[2] » !

ولقد رأينا مفكرا عملاقا كالجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م] يبصر دلالة هذا الانجاز التقدمى الذى صنعه الإسلام فى ميدان المفهوم والمضمون لمصطلح « القوم » و « العروبة » . فيتقدم لتسليط الضوء عليه . ولشحذه سلاحا يواجه به خطر « العصبية القبلية » ومخاطر « الشعوبية » جميعا .. فيتحدث عن الروابط التى نشأت ونمت بين رعية الدول العربية والتى أخذت تمثل خيوطا قومية جامعة تشدهم جميعا لمركز واحد . وتكون منهم ـ رغم تعدد الأعراق القديمة وتنوع الأصول الجنسية ـ «كلا قوميا

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه أبو داود والدارمى .

واحدا » . وفى مقدمة هذه الخيوط والقسمات روابط : اللغة الواحدة والفكر الواحد ، والعادات والتقاليد والشمائل ، والتكوين النفسى المتحد .. ويرى الجاحظ أن هذه الخيوط والقسمات قد غدت من المتانة والرسوخ والوضوح بحيث فاقت « وحدة النسب » و « اتحاد الدم والعرق » ؟!. **فالذين يتحدون فى النسب ، مثل العرب والعبرانيين ـ أبناء إسماعيل وإسحق ، ولدى إبراهيم ـ قد صاروا أمتين ، قوميا ـ رغم اتحادهم فى النسب والدم ـ بسبب أختلاف السمات « القومية ـ الحضارية » ، على حين وحدت هذه السمات « القومية ـ الحضارية » بين ذوى الأصول العرقية المختلفة ـ مثل العرب العدنانيين والعرب القحطانيين ـ فصاروا أمة واحدة وقوما واحدا ؟ ! ..**

يقول الجاحظ فى رصد إنجاز الإسلام الفكرى والواقعى بهذا الميدان وفى تحديد مضمون « العروبة » التى ارتبطت بـ « الإسلام » : « إن العرب قد جعلت إسماعيل ، وهو ابن أعجميين ـ [إبراهيم وهاجر] ـ عربيا ، لأن الله فتق لهاته[1] بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ... وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها ... فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب ... **وإن العرب لما كانت واحدة ، فاستووا فى التربية ، وفى اللغة ، والشمائل والهمة ، وفى الأنف والحمية ، وفى الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكا واحدا ، وكان القالب واحدا ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط** . وحين

---

(١) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم ، مشرف على الحلق .

صار ذلك أشد تشابها فى باب الأعم والأخص ، وفى باب الوفاق والمباينة من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق فى الحسب ، **وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى** ، حتى تناكحوا وتصاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى إسحق ، وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك جميع الدهر لبنى قحطان ... **لأن هذه المعانى قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة**[1] .. » !

هذا هو المعنى الحضارى لـ « العروبة » التى قامت بينها وبين « الإسلام » علاقة عضوية وروابط جدلية وتحقق بينهما الوفاق والإخاء ..

* * *

ونحن إذا شئنا أمثلة أخرى ووقائع جديدة على هذا الارتباط الذى قام بين « العروبة و « الإسلام » ــ منذ عصر البعثة ــ سواء فى ميدان الفكر أو حقل الممارسة والتطبيق ، وجدنا العديد من الأمثلة والشواهد على هذا الارتباط :

● فلقد جاءت البعثة النبوية بالإسلام بعد قرون من الصراع الحربى بين « الفرس » و « الروم » .. وكان النظام الإقطاعى المغلق ، الذى ساد فى فارس ، قد أسهم مع غيره من عوامل الظلم ، فى إضعاف الفرس ، فعجزوا عن قيادة الشرق فى مواجهة الغرب ، فتحقق النصر للروم ، الذين احتلوا الشام ومصر وبلاد الشمال الافريقى وأغروا الأحباش بالاستيلاء على اليمن

---

(١) [رسائل الجاحظ] جـ١ ص ٢٩ ــ ٣١ ، ١١ ــ ١٤ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م .

ومحاولة احتلال مكة بغزوة الفيل فى العام الذى ولد فيه الرسول ، ـ عليه الصلاة والسلام ؟!..

فلما ظهر الإسلام .. كان هناك وعى بالبعد القومى لظهوره . وكيف أنه إيذان بتسلم الأمة العربية زمام قيادة الشرق بأجناسه وأديانه المختلفة فى الصراع التاريخى مع الغرب . بعد أن عجز عن ذلك الفرس الساسانيون ! .. ولمن شاء فليتأمل تعليق الرسول . ـ صلى الله عليه وسلم ـ على انتصار العرب على جنود الفرس فى موقعة « يوم ذى قار » ـ فى العام الأول للبعثة ـ وربطه هذا النصر « العربى » بظهور « الإسلام » .. لقد قال : « اليوم ، أول يوم انتصف فيه العرب من العجم . وبى نصروا[1] » ؟!.

ثم . هاهو يحدث عمه أبا طالب عن ارتباط **« التوحيد الدينى » « بوحدة العرب » . كقوم وجماعة وأمة . وأثر ذلك فى تحولهم من موقع « التابع » إلى مكان « القائد فى المنطقة »** .. « ياعم ، ألا أدعوهم إلى كلمة يقولونها تدين لكم بها العرب . وتؤدى إليكم العجم الجزية ؟ ! .. والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله ! .. إن أمتى ستظهر على الحيرة ، وقصور كسرى ، وأرض الشام والروم ، وقصور صنعاء .. وبشر المسلمين بذلك[2] .. » ؟ !

لقد ارتبط « التوحيد الدينى » بـ « التوحيد القومى » . فى رسالة الإسلام ارتباط وجهى العملة الواحدة كل منهما بالآخر .. ذلك أن وثنية العرب فى

---

(١) ابن عبد ربه [العقد الفريد] جـ٥ ص ٢٦٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م

(٢) ابن الأثير [الكامل فى التاريخ] جـ٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣ .

الجاهلية ، بما كانت تعنى من تعدد الآلهة فى القبائل ، كانت تغذى وتجسد غياب وحدة الهوية لهذه القبائل العربية .. فجاء « التوحيد الدينى » ليوحد هويتها فى « الدين » . وليسهم فى وحدة هذه الهوية فى « القومية والدولة » ومن هنا كانت العروة الوثقى بين « التوحيد الدينى » و « التوحيد القومى » .. ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن الوحدة التى أقامها الإسلام للجماعة العربية باعتبارها « آية » من آيات الله . فيخاطب الرسول ، قائلا : [فإن حسبك الله . هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم . لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم . إنه عزيز حكيم][1] .. وباعتبارها « نعمته » إلهية ، فيخاطب العرب الذين انتشلتهم الوحدة من التشرذم ، قائلا : [واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا][2] ... ثم يذكرهم بحالهم القديم ، يوم كان التشرذم القبلى قد أسلمهم إلى الاستضعاف ، حتى غدوا كالطير المهيض الجناح تتناوشه الطيور الجوارح ؟ ! ـ من الفرس والروم ! ـ .. [واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس] ... ثم تمضى الآية فتحدثهم عن أثر « التوحيد الدينى » على « وحدتهم القومية » ، التى جعلتهم سادة منتصرين ، فتقول : [... فآواكم وأيدكم بنصره][3] !

ولقد بلغ ارتباط « التوحيد الدينى » بـ « التوحيد القومى » ، فى الدولة العربية الإسلامية الأولى ، بلغ من الوضوح والقوة إلى الحد الذى سوغ

---

(١) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٣) الأنفال : ٢٦ .

للخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق قتال الذين ارتدوا عن «وحدة الدولة» ، رغم إيمانهم بأصول الدين ، فلقد اعتبر هذه «الوحدة القومية» حقا من حقوق «التوحيد الديني» . التي رمزت له ـ في هذا الحدث ـ فريضة الزكاة الدينية ؟ ! ..

بل إننا إذا نظرنا في «المعيار» الذى حكم تكوين «رعية» دولة المدينة التي أقامها الرسول ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بعد الهجرة إلى يثرب ، فإننا واجدوه «معيارا قوميا» .. فلقد تكونت هذه الرعية من «**عرب متحدين في القومية ومختلفين في الدين**» .. فالمهاجرون والأنصار تكونت منهم «أمة ـ جماعة الإسلام» والبطون العربية التي كانت قد تهودت من قبائل المدينة قد دخلوا مع المهاجرين والأنصار ـ مع اختلاف الدين ـ في الرعية السياسية للدولة الجديدة .. وتكون منهم ـ على قدم المساواة ـ جيش الدولة الجديدة فحاربوا معا ضد المشركين . واقتسموا الغنائم معا .. ونص دستور الدولة ـ [الصحيفه ـ الكتاب] على أنهم «أمة واحدة» ـ ولا معيار لها هنا إلا المعيار القومى ـ وعلى أن بينهم التأييد والنصح والنصر على أعداء هذه الدولة .. فـ «المؤمنون والمسلمون ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أمة واحدة من دون الناس ... وإن يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ـ [الدستور] ـ .. وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم» !

ثم مضى هذا الدستور يعدد لبنات ـ [قبائل] ـ هذه الرعية ، فوجدناهم

جميعا عربا ، أنصارا ومهاجرين ، وقطاعات متهودة من قبائل المدينة العربية . ولم يكن بينهم أحد من اليهود العبرانيين[1] ... **فهو . إذن «المعيار القومى» ، حكم تكوين الرعية الأولى للدولة العربية الإسلامية الأولى ! .**

وهذه القبلة التى يستقبلها المسلمون فى الصلاة ، كانت فى البدء إلى «بيت المقدس» . وبالرغم من انتفاء الجهة إسلاميا عن الله سبحانه وتعالى ... ومع تنبيه القرآن الكريم على حقيقة : ... [ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ...][2] .. [ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ..][3] .. إلا أن رسول الله ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كان دائم الشوق متصل الرجاء **أن تكون قبلة المسلمين «الدينية» مكانا خالص «العروبة» ، له فى التاريخ الدينى للعرب قداسة أول بيت وضعه الله للناس .. وهو الكعبة المشرفة والبيت الحرام...** وعن هذه الرغبة، وعن الاستجابة الإلهية لها ، تتحدث آيات القرآن الكريم إلى الرسول فتقول : [قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك **قبلة ترضاها** ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره ..][4]

وعندما أرادت الدولة العربية الإسلامية ، فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب ، أن تؤمن قاعدتها فى قلب شبه الجزيرة العربية ، وجدنا

---

(١) النويرى [نهاية الأرب] جـ١٦ ص ٣٤٨ـ ٣٥١ طبعة القاهرة .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

(٣) البقرة : ١١٥ .

(٤) البقرة : ١٤٤ .

« المعيار القومى العربى » حاكما لعملية « الإقرار » و « الإجلاء » ، فأهل الكتاب من العبرانيين أجلاهم عمر عن « القاعدة » إلى « الأطراف » ، على حين بقى أهل الكتاب من العرب دون إجلاء ! .. بل لقد استبدلت الصدقة المضاعفة بالجزية من عرب بنى تغلب ، نصارى نجران ، عندما قيل لعمر بن الخطاب إنهم عرب يأنفون من الجزية[1] ؟ ! .... هكذا علل المؤرخون سبب استبدال ما يوازى الزكاة بالجزية من نصارى العرب .. وفى تقديرنا أن انتفاء « المغايرة » ـ بالمعنى القومى ـ بينهم وبين المسلمين العرب هى التى جعلتهم كلا قوميا واحدا ، فميزت بينهم وبين « الغير » ـ بالمعنى القومى ـ لأن عقد الذمة هو فى الأساس عقد مع « الغير » الذين لم تجمعهم بالمسلمين السمات والقسمات التى تجعلهم جزءا من « الأمة » تجمعهم وحدة الولاء والمساواة فى المواطنة حقوقا وواجبات ! ..

هكذا قامت العلاقة بين « الإسلام » و « العروبة » ..

- فالإسلام هو الذى صنع للأمة العربية وحدتها القومية الأولى .. وجعل لها اليد العليا على الذين أقلوها فيما سبق ظهور الإسلام من حقب التاريخ ...
- والأمة العربية هى التى مثلت بالنسبة للإسلام : الطليعة التى استجابت لدعوته ، وحملت عبء حمايتها ، بالدولة والفتح .. ثم قامت بإبداع حضارته العربية الإسلامية .. وقادت التبشير بعقيدته بين شعوب الأمم الأخرى ..

---

(١) أبو يوسف [كتاب الخراج] ص ٢٧٢ . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٥م .

● وهذه العروبة الإسلامية . كانت دائرة انتماء حضارى وقومى . مثلت واقعا طوره الإسلام .. وما كان له أن يتجاهله أو يقفز عليه ... فالعروبة العرقية الجاهلية ـ والتى مثلت فكرية ـ [إيديولوجية] ـ منافية لإنسانية الإسلام ـ قد اخلت مكانها للعروبة الحضارية ، التى قامت العلاقات العضوية والجدلية بينها وبين الإسلام .. وهى ، بهذا المفهوم ، لم تقف حائلا بين الإسلام الدين وبين العالمية ، بل كانت سبيل الإسلام وأداته إلى هذه العالمية .. فهى دائرة أخص ، لا تلغى الدائرة الأوسع ـ كما هو حال القومية بالمعنى العرقى أو العلمانى ، .حيث لامكان معها لدائرة الملة والاعتقاد ـ وإنما هى الطريق إلى الدائرة الأوسع ـ دائرة الجامعة الإسلامية ـ التى ـ هى بدورها ـ الطريق إلى الدائرة الإنسانية ، التى تجمع الإنسان من حيث هو إنسان ! .

التقدم معا .. والتراجع معا ؟ ! .

من الكلمات الجامعة لعمر بن الخطاب ، تلك الكلمة التى خاطب بها العرب المسلمين فقال : « **الزموا السنّة تلزمكم الدولة** »(1) ؟ ! .. ولقد حدث وسارت الأمور وفق مضمون هذه الكلمات ، **فاقترنت نهضة الإسلام بعروبة الدولة ، وكان تراجع الإسلام مصاحبا لعجمة الدولة** ! ..

وكان عمر بن الخطاب ـ وهو الذى اكتملت فى عهده أركان الدولة العربية الإسلامية ـ واعيا كل الوعى بأن عروبة هذه الدولة رهن ببقاء العرب

---

(1) [خطبٌ عمر بن الخطاب ووصاياه] ص ١٣٩ جمعها وحققها محمد أحمد عاشور . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

قوة ثورية ضاربة ، تلتزم السنة التى ربطت بين العروبة والإسلام .. ومن هنا كان حذره وتحذيره من « الترف » الذى يحول المناضلين والمقاتلين عن ساحات الفتح وميادين البناء . لأن تفشى ذلك فى العرب سيديل دولتهم لحساب الأعاجم الذين يتربصون بهم تملأ قلوبهم مشاعر الثأر والانتقام ! .. والذين يتأملون رفض عمر توزيع الأرض المفتوحة فى أودية النيل وبردى ودجلة والفرات على الجند الفاتحين .. وتمصير الأمصار الخاصة بالجند .. وتمييزهم بالزى المخالف لزى المشركين .. وحجزه أشراف قريش عن مغادرة المدينة إلى حيث الترف فى البلاد الغنية المفتوحة .. ومنعه زواج الجند العرب من السبايا الكتابيات الجميلات ؟ ! .. وإلحاحه على التفقه فى السنة وفى العربية معا ... الذين يتأملون صنيع عمر هذا يدركون مدى وعيه بأهمية بقاء القوة العربية « ثورية ـ خشنة » ، ومدى إدراكه لمخاطر « الترف » على عروبة الإسلام والدولة جميعا ... ومن كلماته الكثيرة فى هذه الأمور : « تفقهوا فى السنة وتفقهوا فى العربية ، وأعربوا القرآن فإنه عربى ! .. وإياكم والتنعم ، وزى أهل الشرك ، ولبوس الحرير ! ... إن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله مُغْرّمات دون عباده ، الا فأما وابن الخطاب حى فلا ، إنى قائم دون شعْب الحرة [1] آخذ بحلاقيم قريش وحُجُزها أن يتهافتوا فى النار .. ؟ ! » [2] ..

ولقد سجل الذين أرخوا لمسيرة الأمة على هذا الدرب ، أن خروج العرب عن هذا النهج الذى دعا إليه عمر بن الخطاب ، وركونهم إلى حياة الدعة

---

(١) أرض بظاهر المدينة .

(٢) [خطب عمر بن الخطاب ووصاياه] ص ١٣١ ، ١٣٥ ، ٦٨ .

والترف وحيازة الأموال والثروات فى البلاد المفتوحة ، قد كان ـ بعبارة الطبرى ـ «أول وهن على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ! ! ..» [1]

لقد امتدت حدود الدولة العربية فشملت فتوحاتها فى ثمانين عاما أوسع مما فتحة الرومان فى ثمانية قرون .. وفى هذه الدولة اقترن تقدم الإسلام بتقدم العروبة ، فشمخت الأبنية الفكرية للعلوم الإسلامية فى مختلف الميادين وتبلورت المدارس الكلامية ، والمذاهب الفقهية إلى جوار العلوم الطبيعية وفنون اللغة والأدب والبلاغة ، وحركة الترجمة والتواصل مع كل الحضارات والمواريث .. وكانت العربيّة هى الأداة والوعاء فى هذه النهضة العملاقة ولها كان الولاء حتى فى المواطن التى لم تتعرب فيها «الجماهير» . ففيما وراء حدود شبه الجزيرة العربية ، تعربت الحواضر وتعربت «النخب» التى أبدعت فى مجالات الفكر ، وأصبح ولاؤها للعروبة الحضارية ، رغم انحدارها من أصلاب عرقية غير عربية ..

* * *

وكما اقترن «الإسلام» بـ«العروبة» فى التقدم والازدهار .. كذلك كان اقترانهما فى التراجع والجمود ! ..

ورغم أن عثمان بن عفان لم يكن كعمر بن الخطاب فى الحزم الذى اشتهر به الفاروق ، إلا أنه قد كان واعيا لمخاطر العجمة وتراجع العروبة عن هذا البناء الذى أقامه الإسلام .. فلقد كتب كتابا عاما يقول فيه للناس : «أما

---

(١) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ ١١ ص ١٢ ، ١٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ .

بعد . فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع .. وإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال : « الكفر فى العُجْمه » ! فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .. »[1] ؟ !

فالترف ، وتراجع العروبة بشيوع اللحن فى أبناء العرب من السبايا وبلحن الأعاجم فى القرآن ، سبيلان لتراجع الصبغة العربية عن أركان الدولة وعن الحياة الاجتماعية كليهما .. وتراجع الصبغة العربية هو باب التكلف فى الدين ، لأنه « إذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا » ! ... والذين ينظرون إلى منابع مذاهب الغلو فى الدين ـ كلامية كانت أو صوفية أو سياسية ـ يرونها منابع أعجمية ، افتقدت الوسطية العربية التى تميز بها الإسلام ! لافتقادها « العروبة » ، التى هى السبيل الوحيد لفقه حقيقة « الإسلام » ! .

ولقد كانت « الشعوبية » هى أبرز التيارات الفكرية والسياسية التى سعت ـ فى ظل الدولة الأموية والعباسية ـ للكيد لكل من « العروبة » و « الإسلام » عندما زعمت انفصام العلاقة بينهما ، فتقدمت إلى الناس معادية « للعروبة » ، تحت رايات « الإسلام » ! .. ففتحت بذلك ، فى تاريخ مسيرتنا الحضارية ، باب الزعم بوجود تناقض بين « العروبة » و « الإسلام » ..

لكن ... إذا كان رسول الإسلام ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، هو

---

(١) [تاريخ الطبرى] جـ ٤ ص ٢٤٥ . طبعة دار المعارف . القاهرة .

القائل : «لا يبغض العرب إلا منافق»[1] . فكيف يستساغ أن تظلل رايات الإسلام فكرا بلغ فى العداء للعرب والعروبة درجة «الدين» ؟ ! .. إن نصر بن سيار [٤٦ ـ ١٣١ هـ ٦٦٦ ـ ٧٤٨ م] يحدثنا كيف تديّن الشعوبيون بالعداء للعرب ، فيقول :

قوم يدينون دينا ماسمعت به عن رسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم فإن دينهم : أن تُقتل العرب ![2]

والذين خبروا فكر الشعوبية ، وأدركوا حقيقة أبعاده ، قد رأوا فيه تجاوزا لما هو معلن من تجريد العرب والعروبة من كل مكرمة ، ومن إلصاق كل المثالب بالعرب ، تاريخا ولغة وأرضا وأدوات عيش وأنماط حياة .. رأوا فيه عداء مستكنا للإسلام ، كدين ، وسعيا لإحياء النحل والمذاهب المجوسية القديمة ، وتمهيد الأرض لهدم الإسلام بإشاعة الشك واللا أدرية والزندقة والإلحاد .. فالشعوبية ، وإن أعلنت ـ فقط ـ عداءها للعروبة ، إلا أن حقيقة دعوتها كانت العداء لكل من «العروبة» و «الإسلام» .. وماكان لهذه الدعوة إلا أن تكون كذلك ، لما رأيناه من الارتباط بينهما ، فى التقدم والتقهقر ، ولدى الأنصار والأعداء على حد سواء ! ..

والذين يبحثون عن التاريخ الذى ظهر فيه ـ علم الكلام الإسلامى فى مبحث الخلافة والإمامة ـ اشتراط «قرشية الإمام» ـ [رأس الدولة] ـ كشرط من شروط «الإسلام» فى الدولة ، يدركون العلاقة العضوية لهذه القضية

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) عبد الصاحب الدجلى [الشعوبية] ص ١٤ طبعة النجف سنة ١٩٦٠م .

بالدفاع عن عروبة الدولة ضد العجمة ، وصلة ذلك بكل من العروبة والإسلام ... **فاشتراط «قرشية الإمام» يعني اشتراط عروبة الدولة .. وهذا الشرط لم يظهر في الفكر السياسي المبكر ، يوم لم يكن هناك خطر على هذه العروبة .. أما بعد أن أطلت الشعوبية برأسها . وبدأت مخاطر العجمة على السلطة العليا للدولة ، فإن هذا الشرط ـ شرط عروبة الخلافة والسلطة العليا للدولة ـ قد اتخذ مكانه في الفكر السياسي الإسلامي . تعبيرا عن انتصار الإسلام للعروبة . واحتماء العروبة بالإسلام**[1] ! ..

* * *

وعلى الرغم من أن هارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣ هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م] قد صد خطر الشعوبية بحيلولته بينها وبين السيطرة على جهاز الدولة بما عرف بنكبة البرامكة [١٨٧ هـ ٨٠٣ م] ، الأمر الذي أتاح للعروبة أن تزدهر فتبدع أكثر صفحات حضارتنا إشراقا بقيادة المعتزلة . فرسان العقلانية العربية الإسلامية.. على الرغم من هذا التطور الإيجابي في الصراع بين «العروبة الإسلامية» و «الشعوبية المجوسية» ، إلا أن كثيراً من الإحباط قد أصاب التيار العربي بهزيمة الخليفة الأمين [١٧٠ ـ ١٩٨ هـ ٧٨٧ ـ ٨١٣ م] في صراعه الدامي مع أخيه المأمون [١٧٠ ـ ٢١٨ هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م] فتوزعت القوى النشطة في التيار العربي بين فصائل ثلاث :

- قوم أصابهم الإحباط . بعد هزيمة الأمين . فأسلموا أنفسهم إلى حياة الدعة

---

(١) [المعتزلة وأصول الحكم] ص ١٩٠ ـ ١٩٧ .

والترف ، واعتزلوا صراعات الأجناس والمذاهب الدائرة من حول الخلافة والدولة ..

- وآخرين ممن غلبت عليهم البداوة ـ واصلوا الثورة فى صفوف الخوارج على النحو الذى كان منذ قتال على ومعاوية فى معركة «صفين» !
- أما القطاع الأكبر من التيار العربى ـ وفيه أغلب المعتزلة ـ فلقد انخرط فى الثورات العلوية التى قادها أئمة الزيدية ضد بنى العباس ..

ونظرت «الدولة» فإذا المخاطر تحدق بها من كل الاتجاهات : الشعوبية الفارسية .. وبداوة الخوارج .. والعرب العلويون .. ثم بوادر حركات استقلالية لأقاليم الأطراف .. وكل ذلك قد أخذ يغرى الدولة البيزنطية بالآمال فى تحريك حدودها واستعادة مستعمرات قديمة لها حررها الفتح العربى فى الشام ..

صحيح أن أغلب هذه المخاطر ليس بجديد على الخلافة العربية .. لكن بنى أمية قد عالجوا أمثالها بالاعتماد على العنصر العربى والعصبية العربية ، لأن مواجهتهم كانت مع الشعوبية الفارسية فى الأساس .. وحتى العلويين والهاشميين فإنهم لم يكونوا يومئذ الممثلين للتيار العربى . بل كان اعتمادهم على الموالى بالدرجة الأولى... **لكن الجديد الذى واجه به العباسيون هذه المخاطر القديمة ، والخطأ القاتل الذى اقترفه الخليفة العباسى المعتصم [١٧٩ـ ٢٢٧ هـ ٧٩٥ـ ٨٤١م] هو توهمه أن طوق النجاة للخلافة من صراعات الأجناس والمذاهب المحلية ، هو فى اعتماد الدولة على قوة عسكرية قوية غريبة عن كل هذه الأجناس والمذاهب المحلية ، ولاعلاقة لها بمنطلقات هذه**

الصراعات ، ولا يربطها ولاء بأى من أطراف هذا الصراع .. لقد توهم هذا .. وخيل إليه أن ولاء هذه القوة العسكرية الغريبة والمجلوبة من خارج ميدان الصراع سيكون لسيدها وحده : الخليفة العباسى ! ... فبدأت الدولة تجلب الترك المماليك ، وأقامت لهم مدينة «سامراء» معسكرا خاصا بهم ، يتبع الخليفة فى العاصمة بغداد ...

لكن .. ما هى إلا سنوات تضخم فيها حجم هذه «المؤسسة العسكرية المملوكية» ، حتى أغرتهم القوة بأن يكونوا الطرف الأقوى فى لعبة الصراع .. وإذا لم يكونوا عربا ، فهم ـ فى الشكل على الأقل ـ مسلمون ! .. فكان أن أصبحوا القوة العظمى فى الدولة ، وبدلا من أن يكون معسكرهم «سامراء» تابعا لبغداد ، أصبح هذا المعسكر ـ «سامراء» ـ هو عاصمة الدولة ، تتبعها بغداد ؟ ! ... وكان انقلاب المتوكل العباسى [٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ ٨٢١ ـ ٨٦١ م] علامة مميزة على هذا التحول الذى أصاب الدولة بالعجمة ، والذى بدأ مسيرة حضارتنا ـ فى بطء وتعرج ـ نحو الجمود والفقر فى الإبداع .. ومرة أخرى ، ظهرت فعاليات ذلك القانون .. قانون ارتباط «العروبة» بـ «الإسلام» ...

فعندما أصبحت الدولة فى قبضة الترك المماليك ، وهم غرباء عن الروح الحضارية للأمة ، لا علاقة لهم بعروبتها ـ لأنهم ترك مماليك ـ ولا علاقة لهم بالجوهر العقلانى لإسلامها ـ لأنهم لم يعرفوا من الإسلام إلا بعض طقوسه الشعائرية ـ كان طبيعيا أن يبدأ ترويج مقولة تناقض «العروبة» مع «الإسلام» ـ أو على الأقل عدم تلازمها ـ لأن «الإسلام» رباط قائم ـ ولو

شكلا ـ بين هؤلاء الترك وبين جمهور الأمة .. أما «العروبة» فإنها مصدر التناقض بين الحاكم والمحكوم ، تستنفر المحكومين للخروج على هذه السلطة غير العربية ، التى تغلبت على الدولة بقوة السلاح ؟ .

لقد سيطر على الدولة عسكر من مثل «وصيف» و«بغا» و«كيغلغ» و«ياجور» و«بايكباك» و«بكالبا» و«يارجوخ» و«أصفجون» و«كاشتمر» و«كنجور» و«تكين» و«أغرتمش» و«ابن كندا جيق» و«أساتكين» و«كتبغا» و«خمارويه» و«كافور» و«كجك» و«جقمك» و«خوشقدم» و«تمربغا» و«كولكيران» .. الخ .. الخ .. ؟؟ ! ! ..

وعندما حدث هذا الانقلاب المملوكى ، الذى سيطرت به العجمة على الدولة تراجعت «العروبة» و«الإسلام» جميعا ...

● فالتيار العقلانى قد أُقصى عن مراكز التأثير .. بل وسجن أعلامه .. وحل محلهم «السلفيون ـ النصوصيون» ، أعداء العقل والرأى والقياس والتأويل .. فـ «استعجم الإسلام» ، لأنه لاطاقة «للجمود النصوصى» بفقه دين عقلانى كالإسلام ... فاتخذت الحياة الفكرية سبيلها ـ ببطء وتعرج ـ إلى العصر الذى أعلن فيه غلق باب الاجتهاد ، فتجمد الفكر ، بينما استمر تطور الواقع ، فاتسعت الهوة بينهما ، وبدأت مرحلة «غربة الفكر الإسلامى وغرابته» بالقياس إلى واقع الحياة ؟ ! ..

● أما «العروبة» ، فيكفى لتجسيد المأساة التى أصابتها ، فى ظل عجمة الدولة ، أن نقارن بين الطموح الذى حاولت تحقيقه ، فقطعت فيه أشواطا عندما تعربت الحواضر والحياة الفكرية فى عالم الإسلام الفسيح من المحيط

الأطلسى وحتى شمال غرب الصين .. وعندما كان السعى حثيثا لإنجاز تعريب العامة والجمهور أيضا فى كل هذه الأصقاع ... يكفى أن نقارن بين هذا الطموح الذى عرف طريقه للممارسة والتطبيق . وبين الواقع البائس الذى تراجعت إليه العروبة عندما قامت المحاولات الجادة لتتريك الناس فى عقر دار الأمة العربية ذاتها . فى ظل السلطة العثمانية . التى كانت الامتداد لعجمة الدولة والسلطة والسلطان ؟ ! ...

نعم .. لقد تراجعت « العروبة » و « الإسلام » معا ... وكان ذلك مدخل أمتنا وحضارتنا إلى عصر جمودهما المظلم والوسيط ! ..

وللذين يحبون الاستئناس بآراء أعلام من مفكرينا الإسلاميين فى هذا الذى نقول . نقدم رأى ثلاثة من هؤلاء الأعلام ...

١ ـ **فالأستاذ الإمام محمد عبده** : يصف هذا التحول الذى أصاب مسيرتنا الحضارية . فيقول : « انظر . كيف صارت مزية من مزايا الإسلام ـ [تسامح المساواة] ـ سببا فيما صار إليه أهله ! **كان الإسلام دينا عربيا . ثم لحقه العلم فصار علما عربيا . بعد أن كان يونانيا . ثم أخطأ خليفة** ـ [المعتصم العباسى] ـ فى السياسة . فاتخذ من سعة الإسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيرا له . ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى . لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى . ـ صلى الله عليه وسلم ـ . **فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم** وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه . فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ـ وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ـ **هناك استعجم الإسلام**

وانقلب أعجميا ! .. خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه.، وبئس ما صنع بأمته ودينه ، أكثر من الجند الأجنبى ، وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن إلا عشية أوضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام ، والقلب الذى هذبه الدين .. ؟ ! »[1] .

٢ ـ والإمام حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م] : يرصد هذا التحول الأعجمى ، ويؤكد على دوره فى تحلل الدولة الإسلامية فيقول : «إن من أهم عوامل التحلل فى الدولة الإسلامية ... انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن ، لصعوبة إدراكهم لمعانيه .. »[2] ؟ ! ..

هنا يربط الرجل بين « العجمة » ـ وهى تراجع « العروبة » ـ وبين تراجع « الإسلام » ! ..

٣ ـ أما المقريزى [٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١ م] : فإنه يضع يدنا على حقيقة لم ينتبه لها الكثيرون ، على خطورتها وبلاغة دلالاتها ! .. فكثيرون منا هم الذين يعتقدون أن الاستعمار الحديث هو الذى بدأ جريمة تنحية الشريعة الإسلامية ـ وهى قانون الأمة الطبيعى ـ عن عرشها وسيادتها فى مؤسسات التشريع والقضاء فى بلادنا ... لكن المقريزى يخبرنا أن « العجمة المملوكية » هى التى بدأت اجتراح هذه السيئة ، عندما جعلت الحكم فى

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) حسن البنا [مجموعة رسائل الإمام الشهيد] ص ١٣١ ، ١٣٢ . طبعة دار الشهاب . القاهرة .

الدواوين السلطانية - [أجهزة الدولة] - وفى شئون الجند لقانون الخان الوثنى جنكزخان [٥٦٢ - ٦٢٤ هـ ١١٦٧ - ١٢٢٧ م] بدلا من الشريعة الإسلامية ؟ ! .. يضع المقريزى يدنا على هذه الحقيقة فيقول : « ... إن جنكزخان قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسة » .. جعله شريعة لقومه ، فالتزموه كالتزام أول المسلمين حكم القرآن .. فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق . وأسروا كثيراً منهم وباعوهم . تنقلوا فى الأقطار . واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب - [٦٠٣ - ٦٤٧ هـ ١٢٠٦ - ١٢٤٩ م] - جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك ديار مصر . وأولهم المعز أيبك - [٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م] - وكانوا إنما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية ... **فجمعوا بين الحق والباطل . وضموا الجيد إلى الردىء . وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام . وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية .. واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان ، والاقتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم .. على مقتضى الياسة ، وجعلوا إليه ، مع ذلك ، النظر فى قضايا الدواوين السلطانية ..**»[1] ؟ !

هنا ، ارتبطت « العجمة » - وهى تراجع عن « العروبة » - بالانحراف والتراجع عن « شريعة الإسلام » ؟ ! ..

فن التقدم - تقدم « الإسلام » و « العروبة » - الذى أثمر حضارة « عربية -

(١) [الخطط] جـ٣ ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ . طبعة دار التحرير . القاهرة .

إسلامية » عالمية . جعلت من الإسلام منارة الدنيا ، التى أضاءت بالعربية أرجاء المعمورة ... إلى التراجع الذى سادت فيه « السلفية ـ النصوصية الجامدة » .. وأغلق فيه باب الاجتهاد .. واستهلكت الأمة فيه القرون ـ تحت سلطان السلطة الأعجمية تجتر « الحواشى » و « الهوامش » على « المتون » وتزجى الفراغ بصنع المحسنات اللفظية والزينات الشكلية .. حتى لقد حاولت العجمة تتريكها ، بعد أن كان الاستعراب شرف الفكر والمفكرين والعلم والعلماء والأدب والأدباء ! ..

* * *

اليقظة الحديثة :

لكن أمة عظيمة . ذات مجد عريق . وإبداع أصيل . وحضارة متميزة وتراث غنى . وأعداء كثيرين ! كأمتنا العربية . ماكان لها أن تسقط سقوطا دائما فى هذا المأزق الذى قادتها إليه العجمة « المملوكية ـ العثمانية » .. فالمحنة تلد الهمة .. والمأزق يقدح زناد الفكر .. وشدة التضييق تجمع وتوحد الأشلاء الممزقة . طالما بقيت فيها بقية من حياة ؟ ! ..

لقد بدأ . مع اقتراب القرن الثامن عشر الميلادى من نهايته ، وكأنما التاريخ قد استدار ليضع الأمة العربية على مفترق الطرق الذى وضعها عليه إبان ظهور الإسلام ؟ ! ..

● فكما عجز الفرس . قديما . عن قيادة المنطقة فى مواجهة التحديات البيزنطية حتى لقد سيطر الروم على الشام ومصر وشمال إفريقيا ، وأعانوا الأحباش على السيطرة على اليمن ومحاولة غزو مكة قلب وطن الجماعة العربية.... كذلك

عجز الأتراك العثمانيون عن قيادة المنطقة فى مواجهة الاستعمار الغربى الحديث .. فانفتحت فى جدار الدولة العثمانية العديد من الثغرات التى نفذ منها الاستعمار ، بالامتيازات وبالاحتلال لكثير من أقاليم وطن العروبة وعالم الإسلام ..

● وكما تقدمت الأمة العربية ، قديما ، تحت رايات الإسلام العربى والعروبة المسلمة ، فقادت المنطقة فى فتوحات التحرير الغربية التى أزاحت موجة الغزو البيزنطى وقيود الضعف الكسروى الظالم عن كاهل المنطقة ، لتقيم دولة وحضارة العروبة والإسلام ... وجدت هذه الأمة نفسها ، مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر ، مدعوة إلى نضال ، تخرج به وطنها ومصيرها من المأزق ، وتجدد به شباب حضارتها بتجديد « دينها » كى تتجدد « دنياها » سالكة ذات السبيل ، ورافعة ذات الأعلام .. سبيل وأعلام « العروبة المسلمة .. والإسلام العربى » ! ..

فالوهابية : أومأت إلى الملامح القومية العربية للإسلام ، عندما عارضت ـ لا السلطة العثمانية فحسب ـ وإنما « عجمة الدولة » ، بتذكيرها الأمة بشرط « القرشية » ـ أى العروبة ـ لسلطة الدولة العليا ! ..

والسنوسية : سارت على ذات الدرب عندما قال إمامها الأول محمد بن على السنوسى [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م] بضرورة عروبة الخلافة .. وعندما تحدث إمامها الثانى أحمد الشريف السنوسى [١٢٨٤ ـ ١٣٥١ هـ ١٨٦٧ ـ ١٩٣٣ م] عن الأتراك فقال : لقد أصبحوا « مقدمة النصارى ـ [أى المستعمرين الأوربيين] ـ ما دخلوا محلا إلا ودخله

النصارى ؟ ! »[1] .. وعندما قال المهدى السنوسى : « الترك والنصارى إنى أقاتلهم معا »[2] ؟ ! .

والمهدية : صنعت ذلك ، أيضا ، عندما أعلن المهدى ، محمد أحمد [١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] العداء للأتراك ، وشن عليهم حربا لا هوادة فيها ، ودعا الشعب إلى مغايرة الأتراك[3] ؟ ! .

أما تيار الجامعة الإسلامية : الذى تبلور من حول رائده جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨١٨ - ١٨٩٧ م] فهو الذى بلغت فى دعوته روابط « العروبة » و « الإسلام » - كمرتكزات لمشروع النهضة المنشودة - قمة الوضوح والعمق والشمول ..

● فالأفغانى يؤمن بوحدة النوع الإنسانى ، وبوحدة الأمة الإسلامية .. لكنه ينبه على أثر تمايز الأقاليم ، وما يحدثه هذا التمايز من مغايرة بين « الأقوام » .. فوحدة النوع الإنسانى قد جعلت من الكرة الأرضية له وطنا .. لكن اختلاف الأقاليم فى اللغة والأخلاق والعوائد والبيئة - وهى من طبيعة الإقليم - قد ميزت الأقاليم بمؤثرات « **وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة ، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة** »[4] .

---

(١) د . أحمد صدقى الدجانى [الحركة السنوسية] ص ١٠٧ ، ٢١٦ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م .

(٢) لو ثروب ستودارد - وشكيب أرسلان [حاضر العالم الإسلامى] جـ ١ ص ٢٩٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧١م .

(٣) انظر كتابنا [العرب والتحدى] ص ١٨٥ - ١٨٨ طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م .

(٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

● وفى المحيط الإسلامى الكبير تتميز الأمة العربية ، كأمة بالمعنى القومى .. ذلك «أنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها ... والأمة العربية هى «عرب» قبل كل دين ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان»[1] !

● والجامعة الإسلامية لا تعنى تنازل الأمة العربية عن قسمة عروبتها المتجسدة فى عروبة اللغة والتراث .. وإنما العكس هو الصحيح .. فهذه الجامعة الإسلامية لابد وأن تقترن فيها «العروبة» بـ «الإسلام» ، فيتعرب غير العرب من المسلمين ، لأن العربية هىَ لسان الإسلام ، كما هى لسان العرب ! .. ولذلك ، فإن الأفغانى لم يقف من محاولات العثمانيين «تتريك» العرب موقف الرفض والإدانة فقط ، وإنما دعا إلى تعرب الأتراك ، لتنتفى التناقضات من بينهما ، ليس بتآخى «الأمتين» ـ التركية والعربية ـ وإنما استهدافا لبلوغهما وضع الأمة الواحدة ، على أن تكون أمة عربية ؟ ! .. وفى ذلك يقول : «لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية صنعت ذلك ، وسعت لتعريب الأتراك لكانت فى أمنع قوة .. إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين ـ [العربية والتركية] ـ النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الإسلامى من عدل .. ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ! وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى ؟ ! .. فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى

(١) المصدر السابق . ص ٢٣٧ .

الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر؟ ! »[1] .

● وعلى ذات الدرب يسير عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م] فيؤكد أن هذه الدورة من دورات نهضة الشرق لابد وأن تكون بقيادة عربيه . لأن دور الإسلام الطبيعى فى هذه النهضة وإمكانات الأمة العربية ، ومكانتها المتميزة إسلاميا تقتضى ذلك .. « **فالعرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين ، وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون عن اتباعهم أخيرا ...** »[2] .. فكما قادوا نهضة الشرق إبان ظهور الإسلام ، عندما التحمت العروبة بالإسلام . هم اليوم الوسيلة الوحيدة للنهضة الشرقية المأمولة ، وتحت ذات الأعلام .. أعلام العروبة والإسلام .

● وذات الأفكار ، التى تلح على اقتران « العروبة » بـ « الإسلام » ، وعلى الضرورة الإسلامية لوحدة الأمة العربية ، لتمايزها القومى ، ولأهمية وحدتها القومية فى نهضة عالم الاسلام .. ذات هذه الأفكار يؤكدها ويفصلها إمام الجناح المغربى لتيار الجامعة الاسلامية الشيخ عبد الحميد بن باديس

---

(١) المصدر السابق . ٣٥٨

(٢) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٥٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م .

[١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] فيقول : « إن العرب قد رشحوا لهداية الأمة ، وإن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام .. ونبى الإسلام ، محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان رسول الإنسانية .. ورجل القومية العربية والأمة العربية فى آن واحد .. »[١] أما الوحدة السياسية للوطن القومى للأمة العربية فهى واجب .. ذلك أننا «إذا قلنا : العرب ، فإننا نعنى هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقا إلى المحيط الأطلانطيق غربا ، والتى تنطق العربية وتفكر بها ، وتتغذى من تاريخها ، وتحمل مقدارا عظيما من دمها ، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة . هذه الأمة العربية تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ورابطة الألم ، ورابطة الأمل . فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة .. والوحدة السياسية بين شعوبها المستقلة استقلالا حقيقيا .. تمكن .. وتجب .. »[٢] .

● أما حسن البنا .. الذى قاد أكبر التيارات الإسلامية « المنظمة » فى عصرنا الحديث وأكثرها تأثيرا على الجمهور الإسلامى فى وطن الأمة العربية ، بل وخارج هذا الوطن .. فإن موقفه من علاقة العروبة بالإسلام ، ومن قضية الوحدة العربية شديد الوضوح والحسم .. وما أجدره بأن يجتذب

(١) [كتاب آثار ابن باديس] جـ ٤ ص ١٧ ـ ١٩ ، ٢١ . جمع وإعداد : د . عمار طالبى . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ .

(٢) المصدر السابق . جـ ١ مجلد ٢ ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ .

« العروبيين » و « الإسلاميين » إلى كلمة « واحدة - سواء » فى هذا الموضوع ! ..

لقد تناول حسن البنا علاقة « العروبة » بـ « الإسلام » ، والموقف من « الوطنية » - التى سماها « القومية الخاصة » - ومن « الوحدة العربية » ، ومن « الخلافة الإسلامية » ، ومن وحدة النوع الإنسانى ... تناول الموقف من هذه القضايا بروح المسلم الذى عاد إلى فطرته ، متدينا بالإسلام : دين الفطرة .. فالإسلام ، من حيث هو عقيدة وشريعه ، هو «وضع إلهى» ، جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس كافة .. فهو دين عالمى ، ليس خاصا بجنس من الأجناس أو قومية من القوميات .. وهو ، بهذه الصفة ، وبهذه الطبيعة يؤلف رابطة « الأمة » - أى الجماعة والجامعة - بين كل الذين يتدينون به ، من مختلف الأجناس والقوميات واللغات ..

لكن هذا الإسلام العالمى ، فى عقيدته وشريعته ، قد تميز وامتاز بأنه دين الفطرة [فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم][1] .. ولذلك ، فإنه - فى الأمور الحياتية - لايقفز على « الواقع » ولاينكره ولايتجاهله أو يتنكر له ، مادام غير مناقض لمقاصد الشريعة ، التى جماعها : تحقيق إنسانية الإنسان ، كخليفة عن الله ، سبحانه فى هذا الوجود ..

والإنسان المسلم إذا عاد إلى فطرته ، فى موضوعنا هذا ، لاشك أنه واجد مايلى :

---

(١) الروم : ٣٠ .

لهذا الإنسان المسلم حنين وروابط وولاء وانتماء لموطن ولادته ومرتع نشأته ومحل ذكرياته .. وله مثل ذلك نحو « الوطن » الذى شب فيه .. وكذلك نحو « وطن » الأمة التى يشترك معها فى اللغة الواحدة ، التى تسهل سبل الاتصال والتفاعل والوحدة ، ومن ثم تنمى الألفة وعوامل الانتماء والولاء ـ وخاصة إذا ماكانت هذه اللغة هى لغة دينه الأقدس وتراث هذ الدين وفكره ـ .. وله كذلك حنين وولاء وانتماء إلى الجماعة التى تدين بدينه ، وهى أمة الإسلام ... ثم هو ، من وراء ذلك ، إنسان مدعو إلى أن يكون عضوا عاملا ومتفاعلا ـ بالتأثير والتأثرـ مع روابط الإنسانية التى تضم كل بنى الإنسان ...

إنها « الدوائر » التى تنطلق من الأخص إلى الخاص إلى العام فالأعم .. من القرية ، إلى الإقليم ، إلى الوطن ، إلى الدائرة القومية ، إلى الجامعة الإسلامية ، إلى العالم .. دونما تعارض أو تناقض أو تضاد ..

وهى ذات الفطرة التى تنفى التناقض بين ولاء الإنسان المسلم لأسرته وعائلته ، وشعبه ، وأمته ، وإنسانيته ..

وهى ذات الفطرة التى لم تعرف التناقض بين حب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمكة ـ التى خاطبها ، عند مغادرته إياها مهاجرا ، بقوله : « إنك أحب أرض الله إلىّ . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت ! » ـ وهو الحب الذى تحرك حنينا جارفا عندما قدم الصحابى أصيل بن عبد الله الهذلى من مكة إلى المدينة ، فسأله الرسول :

ـ يا أصيل ، كيف عهدت مكة ؟

ـ فقال : عهدتها قد اخصب جنابها . وابيضت بطحاؤها . وأعذق إذخرها [١] . وأسلب ثمامها [٢] . وأمشر سلمها [٣] » !

فقال الرسول : حسبك يا أصيل ! .. دع القلوب تقر . لاتُحزِنّا » ؟! [٤]

هى الفطرة التى لم تعرف التناقض بين هذا الحب الأخص الذى امتلأت به نفس الرسول لمكة ، وبين انتمائه الجديد ، منذ الهجرة للمدينة ، التى سأله أهلها ـ يوم العقبة ـ :

ـ « هل عسيت ، إن أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا » ؟!

ـ فكان جوابه : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ـ [أى منزلى فى منازلكم .. وقبرى فى مقابركم .. ومن طلب دمكم فقد طلب دمى !] أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم [٥] » !

ولقد استمرت هذه الفطرة الإسلامية تعصم « وطنيتنا » من ضيق الأفق الذى يخلق التناقض بينها وبين « قوميتنا » ، كما يعصم « قوميتنا » من التعصب

---

(١) الإذخر : نبات حجازى . وأعذق : صارت له أفنان .

(٢) الثمام : نبت حجازى . وأسلب : صار له خوص .

(٣) أى أورق .

(٤) ابن الأثير [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] ـ ترجمة الصحابى « أصيل » . طبعة دار الشعب . القاهرة .

(٥) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م .

الذى يصطنع العداء بينها وبين جامعتنا الإسلامية .. فكان التدرج فى الولاء والانتماء فطرة إنسانية تزكيها فطرة الإسلام ! .

من هذه الروح ، وبهذا المنطق ، واستشرافا لهذا الأفق نظر الشيخ حسن البنا إلى العلاقة بين « الوطنية » و « الوحدة العربية » و « الرابطة الإسلامية » .. فقال ــ كمرشد عام للجماعة [الإخوان المسلمين] ــ : «كان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصا على خير وطنهم ، وتفانيا فى خدمة **قومهم** .. فالإسلام قد فرضها فريضة لازمة لامناص منها أن يعمل كل إنسان لخير **بلده** ، وأن يتفانى فى خدمته ، وأن يقدم أكبر مايستطيع من الخير **للأمة التى يعيش فيها** ، وأن يقدم فى ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا ، حتى أنه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر إلا لضرورة ، إيثارا للأقربين بالمعروف . فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التى هو عليها ، **وأن يخدم الوطن الذى نشأ فيه.. فالإخوان المسلمون يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار ، ولايجدون غضاضة على أى إنسان أن يخلص لبلده ، وأن يفنى فى سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار ، هذا من وجهة القومية الخاصة .**

ثم ، إن الاسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ، يوم كان المسلمون مسلمين ؟! .. وقد جاء فى الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام . وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم . فالعرب

هم عصبة الإسلام وحراسه ... وإن تمسكنا بالقومية العربية يجعلنا أمة تمتد حدودها من الخليج إلى المحيط ، بل إلى أبعد من ذلك ، ويبلغ عددها أضعاف الملايين المحصورة فى وادى النيل ، فأى مصرى يكره أن تشاطره هذه الشعوب التى تظللها العربية شعوره وآماله وأفراحه وآلامه ؟!.. إن من يحاول سلخ قطر عربى من الجسم العام للأمة العربية يعين الخصوم الغاصبين على خفض شوكة وطنه وإضعاف قوة بلاده ، ويصوب معهم الرصاصة إلى مقتل هذه الأوطان المتحدة فى قوميتها ولغتها ودينها وآدابها ومشاعرها ومطامحها ... فليس فى الدنيا جامعة أقوى وأقرب من جامعة تجمع العربى بالعربى ، فاللغة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتاريخ واحد ...

إن وحدة العرب أمر لابد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه .. فالعرب هم أمة الإسلام الأول وشعبه المتميز ، وبحق ماقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » . ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها . فكل شبر أرض فى أرض وطن عربى نعتبره من صميم أرضنا ومن لباب وطننا .. ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية .

إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولايرون بأسا أن يعمل الإنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على سواه . ثم هم ، بعد ذلك ، يؤيدون الوحدة العربية ، باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية ، باعتبارها

السياج الكامل للوطن الإسلامى العام . ولى أن أقول ، بعد هذا : إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله ... وأنا فى غنى ، بعد هذا البيان ، عن أن أقول : إنه لاتعارض بين هذه الوحدات ، بهذا الاعتبار ، وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها ..

أما الخلافة الإسلامية ، فإن الإخوان المسلمين يجعلون العمل لإعادتها فى رأس مناهجهم ... ولكنهم يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التى لابد منها ، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات :

- لابد من تعاون تام ثقافى واجتماعى واقتصادى بين الشعوب الإسلامية كلها ..
- يلى ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد ..
- يلى ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية ..

حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين ، كان عنه الاجتماع على « الإمام » ... »[1] .

فهل هناك أوضح وأعمق وأشمل ـ فى عرض موقف الفكر الإسلامى من القومية العربية والوحدة العربية ـ من هذا الذى أعلنه الإمام حسن البنا ؟! ..

إن الوحدة الوطنية هى الشرط الضرورى والطريق الوحيد للوحدة

---

(١) حسن البنا [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٥ ـ ٥٠ .

العربية ... والوحدة العربية للوطن القومى للأمة العربية واجب ملح ، لأن جامعة العروبة هى « أقوى الجامعات وأقربها » ... أما الخلافة الإسلامية فإنها « رمز » لتضامن وعلاقات ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية تفضى إلى « عصبة أمم إسلامية » ، تشد أزر المستضعفين فى مواجهة الأقوياء .

* * *

هكذا ... وعلى هذا النحو الواضح والعميق والشامل والحاسم .. عادت إلى الفكر الإسلامى صحوته فى عصرنا الحديث ، فخرج من عصوره المظلمة ، ليواصل ـ بالاجتهاد والتجديد ـ تألقه الأصيل ، فى كثير من قضايا « الدين » و « الدنيا » .. ومنها قضية العلاقة العضوية والرابطة الجدلية بين « العروبة » و « الإسلام » ، والموقف الإسلامى من الوحدة القومية لوطن الأمة العربية .

عودة النغمة النشاز ؟! :

لكن ... بالرغم من هذا الوضوح والعمق والحسم الذى رأيناه : علاقة عضوية وروابط جدلية بين « العروبة » و « الإسلام » ، وانحيازا من الفكر الاسلامى ـ القديم والحديث إلى ضرورة النضال فى سبيل الوحدة العربية **باعتبارها : وحدة المسلمين العرب ... وهم الأغلبية الساحقة فى الأمة العربية ـ ولأنها الطريق الوحيد إلى نهضة الإسلام والمسلمين من وراء الوطن القومى للأمة العربية، لما للأمة العربية من دور ريادى وقيادى فى المحيط**

الإسلامى ، تاريخيا ، ولمكان العربية والعروبة من الإسلام الدين والحضارة والتراث ...

بالرغم من هذا الوضوح .. فإن ساحة الفكر والسياسة قد عادت ، مرة أخرى ـ رغم زوال عصور العجمة « المملوكية ـ العثمانية » وازورار فكريتها المتخلفة ـ عادت ساحة الفكر والسياسة ، فى وطننا العربى ، تشهد ، مرة أخرى تلك النغمة النشاز ، الزاعمة تناقض « العروبة » و « الإسلام » ، وعداء « الإسلام » لـ « القومية العربية » و « الوحدة العربية » ! !

فالمفكر الإسلامى ، المرحوم سيد قطب [١٣٢٤ ـ ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦ م] : يدعى « أن الوطنية » و « القومية » و « التجمعات الإقليمية » التى برزت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، قد أدت دورها خلال هذين القرنين .. ولم تعد تملك رصيدا جديدا »[1] ! ..

وهو ، بذلك الادعاء ، يغفل ويتجاهل الدور الذى على هذه الروابط والجوامع أن تؤديه ـ فى ظروف بلادنا وما ماثلها ـ فى النضال ضد الاستعمار وفى سبيل النهضة .. فهى لم تستنفد ، بعد مهامها .. ثم إنها ليست هى « قوميات الغرب » العدوانية ، المعادية لقيم وأخلاقيات شرائع السماء ، بل إنها ـ فى مثل واقعنا ـ السبيل للنهضة التى تمكن إنساننا من إحياء وتطبيق القيم والأخلاقيات والشرائع التى جاءت بها الأديان ..

وهو ينفى ـ فى معارضة لما أثبتناه بهذه الدراسة ـ أية علاقة بين حضارتنا وبين العروبة ، ويتبنى مقولة تناقض صفة « العربية » مع صفة « الإسلامية »

---

(١) سيد قطب [معالم فى الطريق] ص ٦ ، ٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م .

فى هذه الحضارة ، فيقول : « ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما « عربية » ، إنما كانت دائما « إسلامية » ، ولم تكن يوما « قومية » إنما كانت دائما « عقيدية » .. [1] » ..

وهذه مقولة قد دحضناها ،عندما أثبتنا انتفاء التعارض ـ بل وقيام العلاقة العضوية والروابط الجدلية ـ بين « العروبة » و « الإسلام » ..

ثم هو يذهب فيسقط أى قيمة للرابطة القومية والقسمات القومية فى إيجاد الدائرة الأخص فى المحيط الأوسع للملة والاعتقاد .. فيقول : « إنه لاوطن للمسلم إلا الذى تقام فيه شريعة الله ، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط فى الله . ولاجنسية للمسلم إلا عقيدته التى تجعله عضوا فى « الأمة المسلمة » فى « دار الإسلام » ، ولاقرابة للمسلم إلا تلك التى تنبثق من العقيدة فى الله ، فتصل الوشيجة بينه وبين أهله فى الله .. » [2]

وهذه المقولة ـ التى تتناقض كل التناقض مع « نظرية الدوائر » ، التى عرضناها للإمام حسن البنا ـ تتجاهل حقائق تبلغ فى فكر المسلم حد البديهيات :

● فوطن المسلم هو وطنه .. حتى لو لم تطبق فيه الشريعة الإسلامية .. وعليه الجهاد لتقوم الشريعة فيه !..

● وجنسية العقيدة .. وعضوية الأمة المسلمة فى دار الإسلام لاتعنى القفز

---

(١) المرجع السابق . ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٥١ .

على الواقع المتمثل فى الدوائر ـ الوطنية والقومية .. التى تسبق جامعة الإسلام .. فرباط الأمة لايلغى رباط الأسرة ولاينفى ذاتية الفرد !..

● والقرابة لا تختص برباط العقيدة الدينية .. فالإسلام لا ينكر بنوّة المسلم لأبوية المشركين ولا يهدر حقوقها بل يدعوه للبر بهما ـ بر الابن بأبويه ـ وللقيام بحقوق القرابة ـ مع انتفاء رباط العقيدة الدينية ـ [ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىّ ، ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون] [(١)] .

والزوج المسلم للزوجة غير المسلمة ـ الكتابية ـ قريب لها ، وهى قريبة له ـ بل هى سكن له ـ وإن لم تنبثق هذه العلاقة ـ علاقة القرابة ـ من العقيدة فى الله ! ..

تلك هى مقولة الأستاذ سيد قطب ـ إذا عرضناها على ماقدمنا من فكر الإسلاميين فى هذه القضية ، ظهر الفارق بينهما بجلاء .. **فارق « الفكر الإسلامى » عن « نفثة الأديب المظلوم » ؟ ! ..**

● **وكاتب آخر** : يلتقط هذا الخيط ، فينفى أن تكون للروابط القومية أية قيمة ، ويحكم بأن علاقة المسلم المصرى بأخيه المصرى مساوية تماما لعلاقته بالمسلم فى أندونيسيا ونيجيريا وتركستان [(٢)] ؟!... بل ويصل فى هجومه على

---

(١) لقمان : ١٤ ، ١٥ .
(٢) د . محمد رشاد خليل مقال بعنوان [شخصية مصر التاريخية] مجلة [الدعوة] عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨هـ مارس سنة ١٩٧٨م .

دعاة القومية العربية إلى حد وصفهم بأنهم : « الشعوبيون العرب »[1] ؟؟! ! ..

● **وإحدى الجماعات الإسلامية الجديدة ـ [الجهاد] ـ** : تجعل هذا الفكر ـ الخارج عن سياق تراث الإسلام فى هذه القضية ، والمناقض لآراء أئمة الصحوة الإسلامية الحديثة فى علاقة « العروبة » بـ « الإسلام » ـ تجعل [جماعة الجهاد] من هذا الفكر رأيها المعلن ، فعندما يسأل أحد قادتها : ـ « هل هناك علاقة بين القومية والإسلام فى تصوركم ؟

[**يجيب**] : « **القومية نوع من أنواع العنصرية المرفوضة فى الإسلام** وهى مناصرة القوم ومؤازرتهم لمجرد الانتماء لهم قرابة أو لغة أو مكانا أو جنسا أما الإسلام فدعوة عالمية للناس كافة ، والرابطة فيه تقوم على أساس عقائدى فالولاء لأولياء الله مهما بعدت درجة القرابة أو اختلفت اللغة أو نأى المكان والعداء لأعداء الله ولو كانوا أولى قربى . **فدعوة القومية إن هى إلا شعار من تلك الشعارات الأفاكة التى بثها المستعمرون** وروجوها ليسهل لهم تدمير الأمة الإسلامية بعد خلعها من ربطة الإسلام التى هى منبع قوتهم ومصدر عزتهم وليحولوا الأمة إلى فرق متناحرة ودويلات هشة يمكن السيطرة عليها ، بل ـ وإذلالها . وقد كان ... » ! !

وصاحب هذا الفكر ، يعلن ـ فى ذات الحديث ـ أن جماعته تسير على

---

(١) مجلة [الدعوة] عدد جمادى الأولى سنة ١٣٩٨هـ إبريل سنة ١٩٧٨م .

الدرب الذى ارتاده المرحوم سيد قطب ..) [1] ؟!

● **وقاض سودانى** : يجلس على منصة « محكمة الجنايات » ليحاكم عددا من الشباب بتهمة الانتماء إلى أحد الأحزاب القومية . حيث يحظر القانون قيام الأحزاب ــ فيحول سهام الاتهام إلى « القومية العربية » و « الوحدة العربية » .. ويقول ــ بجرأة مذهلة ــ : « **ومن المعلوم ، ضرورة ، أن دعوة القومية العربية والوحدة العربية هى دعوة للعنصرية والشعوبية ... تعارض الشريعة .. وهذا مما تجمع عليه أقوال المسلمين** .. » [2] ؟؟؟!!! ..

ونحن لانريد أن نقول لهؤلاء الذين يصفون « القومية العربية » بالعنصرية : إنكم تتحدثون عن القوميات العلمانية العدوانية الأوربية .. أما القومية العربية فهى دائرة انتماء لأمة تسعى للتحرر وصد العدوان ــ وهى ليست أيديولوجية مناقضة للإسلام ، ولاجدارا يحول بين المسلمين العرب وبين النضال فى سبيل التضامن الإسلامى والإخاء الإسلامى .. وأن الذين يحولون بين العرب وبين أن يمدوا نطاق نضالهم إلى ماوراء المحيط والخليج ليسوا هم القوميين وإنما الشعوبيون فيما وراء المحيط والخليج ؟!..

كما أننا لانريد أن نقول للذين يصفون القومية العربية والوحدة العربية « بالشعوبية » : إن مصطلح الشعوبية ، يعنى تحديدا : « النزعة التى تنكر

---

(١) عبود الزمر . صحيفة [النور] العدد ١٥٥ ــ ٧ جمادى الأولى سنة ١٤٠٥هـ ٢٧ فبراير سنة ١٩٨٥م .

(٢) القاضى : د . المكاشفى طه الكباشى . وقائع جلسة محكمة جنايات أم درمان (رقم ١) بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٨٥م .

تفضيل العرب .. وتحاول تصغير شأنهم ، والحط منهم .. »[1] .. فالشعوبية هى النقيض لحركة القومية العربيةولدعاة ودعوة الوحدة العربية !..

نحن لا نريد تفصيلا لهذا القول فنضيف إلى هذه الصفحات تفنيدا لهذا الفكر الغريب ، إذ يكفى لتفنيده عرضه على النصوص الواضحة والعميقة والشاملة التى قدمناها للإمام الشهيد حسن البنا فى هذا الموضوع ـ وهو الإمام الذى يزعم الانتساب إلى دعوته أصحاب هذا الفكر النشاز !!..

لكن السؤال الجوهرى الذى سقنا هذه الآراء النشازكى نسأله هو :

إذا كانت مقولة التناقض بين « العروبة » و« الإسلام » قد ألقيت فى مجرى تطورنا الفكرى والحضارى من خارج المكونات الأصيلة لفكرنا العربى الإسلامى ـ من الشعوبية الفارسية تارة ومن العجمة «المملوكية ـ العثمانية» تارة أخرى .. وإذا كان فكر اليقظة والصحوة الإسلامية الحديثة قد دحض هذه المقولة الشاذة ـ على النحو الذى قدمنا ـ فما هو المصدر الذى دفع هذه المقولة ، مرة أخرى ، لتطل فى فكر الحركة الإسلامية المعاصرة على لسان المرحوم سيد قطب ؟؟.. ذلك هو السؤال ، الذى تكشف إجابته مبلغ شذوذ هذه المقولة عن سياق الفكر الإسلامى لأمتنا عبر تاريخنا الطويل ...

ولحسن الحظ .. فإن الذين قرأوا فكر المرحوم الأستاذ أبى الأعلى المودودى [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م] أمير [الجماعة الإسلامية] فى الهند

---

(١) انظر [لسان العرب] لابن منظور . طبعة دار المعارف . القاهرة . وكذلك [المعجم الوسيط] وضع مجمع اللغة العربية . القاهرة .

وباكستان ، ثم قرأوا فكر المرحلة الأخيرة للأستاذ سيد قطب ، يدركون ـ دون عناء ـ كيف جاء فكر سيد قطب فى كتابه [معالم فى الطريق] « صورة طبق الأصل » من فكر المودودى حول القضايا التى عرض لها هذا الكتاب .. ومنها علاقة الإسلام بالقومية ..

لكن الذين اقتدوا بسيد قطب فى رفضه للقومية وعدائه للقومية العربية لم يدركوا خصوصية الملابسات التى أفرزت فكر المودودى فى القومية ، والخطأ البالغ فى استعارة سيد قطب لهذا الفكر وتوظيفه فى إطار ملابسات لاوجه للشبه بينها وبين الملابسات الخاصة التى أفرزته فى شبه القارة الهندية ..

● لقد صاغ المودودى فكره عن القومية مابين سنة ١٩٣٧م وسنة ١٩٤١م عندما كان [حزب المؤتمر] الهندى يسعى لبناء الهند « الموحدة المستقلة الديمقراطية العلمانية » .. ولقد أسس حزب المؤتمر دعوته على مقولة أن الهند « قومية واحدة » .. وتلك هى الفكرة التى رفضها المودودى وقاد ضدها صراعا فكريا وسياسيا طويلا انتهى باستقلال باكستان سنة ١٩٤٧ م ..

● وكانت حجة المودودى أن الهند متعددة القوميات ، من المنظور الحضارى ، وأن وحدة الهند ستعنى السيطرة الأبدية للأغلبية الهندوسية (٧٥٪ من السكان) على الأقلية المسلمة (٢٥٪ من السكان) .. وأن « القومية الواحدة » المزعومة ، فى ظروف الهند ، لا تعدو القومية بالمعنى السياسى المؤسسة على وحدة الأرض ، والتى تتجاهل التعددية القومية لسكان الهند المؤسسة على التمايز الحضارى .. فدافع المودودى عن التعددية القومية ، ودعا

إلى رسم مستقبل الهند المستقلة وفق معايير هذه التعددية القومية .. وفي ذات الوقت أدان هذه « القومية السياسية » ، بمضامينها الغربية العلمانية ، التي تعزل الإسلام ـ على الرغم من أنه دين ودولة ـ عن الهيمنة على المؤسسات المنظمة لشئون الحياة ..

● فضد هذه « القومية السياسية » ، التي رآها المودودي سبيلا لسيطرة الأغلبية الهندوسية على الأقلية المسلمة ، والتي رآها ـ بمحتواها العلماني ـ أيديولوجية معادية للإسلام .. ضد هذه القومية بعينها كان هجوم المودودي فلقد قال عنها : « إنها دين جديد » يناقض « الدولة الفكرية » الإسلامية ويحول بين أصحابها وبين النزعة « الإنسانية » ، وهي تعني « أن يحل الشعب منزلة الألوهية » ! .. ولذلك فليس لها مكان ولا « حظ في إيجاد دولة الإسلام الفكرية وتركيبها »[1] .. ثم مضى الرجل فساق ضد هذه القومية الهندوسية الكافرة كل الاتهامات ، التي جاء سيد قطب فانتزعها من ملابساتها ووظفها في إطار الأمة العربية ذات القومية الواحدة ، التي يكون المسلمون فيها أكثر من ٩٥٪ من تعداد أبنائها ؟! ..

● إن الذي رفضه المودودي هو القومية السياسية [Political Nationaity] بينما كان داعيا مناصرا للقومية الحضارية [Caltural Nationality].. فهل من الدقة ـ ولا نقول الأمانة ؟ ! ـ أن تؤخذ بعض عبارات الرجل لتوظف في رفض قوميتنا العربية ، وطابعها الحضاري واضح كل الوضوح ، وأغلبيتها

(١) المودودي [نظرية الإسلام السياسية] ص ٧١ ، ٧٥ طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة عنوانها « نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور »] سنة ١٩٦٩م .

الإسلامية لا تخطئها عين ، ونزعتها الإنسانية التحررية لا تخفى ، وعلاقتها بالإسلام على النحو الذى قدمنا ؟ ! ..

وهل من الدقة ـ ولا نقول الأمانة ؟! ـ أن يغفل الناقلون النصوص الأخرى الكثيرة التى ناصر فيها المودودى القومية ، فيضللوا بذلك الإغفال قطاعات شبابية من الحركة الإسلامية ويشعلوا نيران معارك فكرية مفتعلة تقسم صفوف الأمة إلى « إسلاميين ـ لاقوميين » و « عروبيين ـ لا إسلاميين » ؟ ! ..

إن المودودى الذى استندوا إليه فى هذه المقولة النشاز ، هو الذى يقول عن القومية « ... أما القومية ، فإن أريد بها الجنسية [Nationality] **فهى أمر فطرى لا نعارضه ، وكذلك إن أريد بها انتصار الفرد لشعبه ، شريطة ألا يستهدف تحطيم الشعوب الأخرى ، وإن أريد بها حب الفرد لشعبه فنحن لا نعارضها كذلك ، إذا كان هذا الحب لا يعنى معنى العصبية القومية التى تجعل الفرد يحتقر الشعوب الأخرى.. وإن أريد بها مبدأ الاستقلال القومى ، فهو هدف سليم كذلك ، فمن حق كل شعب أن يقوم بأمره ، ويتولى بنفسه تدبير شئون بلاده . أما الذى نعترض عليه ونعتبره شيئا ممقوتا نحاربه بكل قوة فهو القومية التى تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة شأنها ، ولو كان ذلك بظلم الآخرين وإذلال نفوسهم !** »[1] .

هكذا سقطت وتسقط مقولة التناقض بين « العروبة » و « الإسلام » ،

---

(١) المودودى [الإسلام والمدنية الحديثة] ص ٢٥ ، ٢٦ . طبعة القاهرة . سنة١٩٧٨م .

والزعم برفض الإسلام لقوميتنا العربية والوحدة القومية لوطن الأمة العربية.. سقطت قديما لأنها كانت «شذوذا أعجميا» ألقته الشعوبية والمعجمة « المملوكية ـ العثمانية » فى المجرى الذى شهد ارتباط عروبتنا المسلمة بإسلامنا العربى .. وتسقط حديثا لاستنادها إلى نصوص مبتورة مجردة من الملابسات التى أفرزتها وموظفة فى إطار مغاير، بل ومناقض، لذلك الذى أفرز تلك النصوص !..

* * *

بقى أن نقول، فى ختام هذه الصفحات:

● **إن عروبة إسلامنا لاتعنى اختصاصه بالعرب من دون الناس، وإنما تعنى ضرورة اقتران العربية بالإسلام، تنتشر أينما ينتشر وتدرس حيثما يتم التبشير بعقيدته وشريعته.. لأنها السبيل الوحيد الحق لوعى الإسلام الحقيق وفقه عقيدته وشريعته وإقامة نظامه فى هذه الحياة .. إن ترجمة معانى القرآن قد تيسر الإيمان بعقائد الإسلام، والتعبد بشعائره.. فالعقائد والشعائر ثوابت قد اكتملت، وليست موضوع تطور ولا إبداع ولا اجتهاد.. ولكن الإبداع الحضارى والسياسى يستلزم الاجتهاد المتطلب فقه العربية وعلومها إلى الحد الذى ييسر فقه الإعجاز البيانى للقرآن الكريم.. ولذلك فإن حضارة الإسلام كانت وستظل عربية فى جوانب الفكر والإبداع .. ومن ثم فلابد من اقتران العربية والتعريب بالإسلام، فتنمو العروبة ـ أفقيا ورأسيا ـ بنمو وانتشار الإسلام ..**

● وإن الإدراك السياسى لعلاقة « العروبة » بـ « الإسلام » يتجاوز ، فى الخطر والأهمية ، الميدان الثقافى و « النظر الفكرى » إلى حيث يمثل طوق النجاة لأمتنا من التشرذم .. فالحديث عن مشروع « إسلامى ـ لاعربى » لن يجد فيه العرب غير المسلمين مكانا لهم ـ وتلك ثغرة فى جدار أمة مستهدفة يتربص بها أعداء كثيرون ! .. كما أن الحديث عن مشروع « عربى ـ لا إسلامى » لن تجد فيه الأقليات المسلمة غير العربية مكانا لها ـ وتلك ، أيضا ، ثغرة لايجب الاستهانة بمخاطرها .. أما الوعى بعمق العلاقة بين «العروبة» و«الإسلام» فهو الذى سيتيح لمشروعنا الحضارى أن يجمع المسلمين غير العرب ، برباط الإسلام الذى تتدين به أغلبية الأمة .. وأن يجمع العرب غير المسلمين ، برباط العروبة التى هى قومية أغلبية الأمة .. كما أنه هو السبيل إلى جمع التيارات الممثلة لأصالة الأمة : « العروبيين » و « الإسلاميين » ، فى مواجهة قوى « التغريب » والغزو الفكرى والاستلاب الحضارى ..

● وإن إقامة وحدة الدولة القومية للأمة العربية ، هى فى الحقيقة وحدة للمسلمين العرب ـ أغلبية الأمة العربية ـ وتحقيق للشرط الأول من شروط النهضة الإسلامية الأشمل ، بإيجاد القيادة والريادة العربية فى المحيط الإسلامى ، وهى القيادة التى ارتبطت عزة الإسلام بقوتها ومنعتها ، كما اقترن تراجعه بما أصابها من تدهور وتشرذم واضمحلال .. وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما قال : « الكفر فى العجمة .. ولايبغض العرب إلا منافق .. وإذا ذل العرب ذل الإسلام » ! ..

- ٣ -

نصــوص فــى
الإسلام .. والعــروبة ..

ـ ١ ـ
جمال الدين الأفغانى
(١٢٥٤ ـ ١٣١٥ هـ - ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م)

(أ) الرد على «رينان» ..

(ب) العروبة .. والتعرب ..

(جـ) فعاليات آداب اللسان ـ (اللغة) ـ ..

(د) بين العرب والأتراك

(هـ) المسألة الشرقية ..

(و) السلطان عبد الحميد ..

الـرد علـى رينـان[1]

إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الديانة الإسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم . (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ماوراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها : ـ أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها ؟ أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم ؟ أم أن أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام ، أو حملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هى جميعا مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة » .

فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد . كما أعلم

(١) فى سنة ١٨٨٣م . ألقى المستشرق الفرنسى ارنست ريان محاضرة . بباريس . انتقص فيها العرب والعروبة . انطلاقا من مبحثه « العصرى ـ العرق » فى تقسيم الأجناس والحضارات . فرد عليه الأفغانى بمحاضرة نشرتها صحيفة « ديبا » الفرنسية فى ١٩ مايو سنة ١٨٨٣م .. « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى » ص ٢٠٨ . ٢٠٩ .

وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعنى العلم والفلسفة) .

«وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويغذ السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية .. فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم ، وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها ... ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه نصبهم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة فى طى النسيان ، وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعى للعلوم ؟ .

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ، ووضحوها ونسقوها تنسيقا منطقيا ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق ، وتنطوى على التثبت والدقة النادرين ، وقد كان الفرنسيون والانكليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب . فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة

العربية[1] ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم أو ليس هذا برهانا آخر ناصعا على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟

« وبينما يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية فى غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاما ، وأن العالم الإسلامى إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحى فى الثقافة الذهنية ، اذ يقول : ـ ان أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كنابهى السياسيين من أصل حرانى أو أندلسى أو فارسى أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذى لعبوه فى العالم الإسلامى ، ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عربا وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عربا وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة ، وهى الصابئة ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية أما ابن باجة وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

« ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم ، ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟

---

(١) وذلك بعد شرح أبي الوليد بن رشد لآثار أرسطو.

لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوهما بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى » .

العـروبـة ... والتعـرب[1]

لبيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه . وأنه أفعل الوسائل بعد القهر ، للحكم فيهم ، ولترك الأثر بينهم ، فيكفى لذلك النظر فى ظهور الإسلام وفتوحاته ، حربا كان أم صلحا ، وانتشاره فى أقل من عصر فى أعظم المعمور من الأرض ، فقد عم جزيرة العرب ، فالشام فمصر ، فالعراقين ، فالهند فأقصى الشرق ، حتى فروق الآستانة . وهاهو قبر خالد أبى أيوب الأنصارى وجامع القعرية المشهور «بجامع العرب» فى محلة غلطة من أكبر الشواهد .

نعم إن زحف العرب ووفودهم على البلاد ، إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا . وإلا فأداء الجزية للدخول مع القوم فى حقيقة المساواة ، وللقيام فى حفظ كيان المجموع . وكان من يقبل الإسلام لا إكراه عليه فى قبول العادات وتعليم اللسان . كذلك من أدى الجزية فلا إكراه عليه فى دينه وباقى مميزاته ، بل يبقى على مألوفه وموثرات إقليمه وخواصه . ولا خطر على قلب فاتح إسلامى أن يعمم آداب قومه ولسانهم ، أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل . ومع ذلك نرى **أن كل من دان بالإسلام ، أو رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم للتعرب .**

(١) المصدر السابق ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

والسبب فى ذلك أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر ، مثل الأنفة من الكذب ، والوفاء بالعهد ، ومطلق العدل وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة ، وإغاثة الملهوف ، والكرم والشجاعة ، وباقى الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة .

وأمر طبيعى ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من لم يتخلق بها ، لأن الإنسان إنما ينفعل بروحه وشعوره . والانتخاب الطبيعى فطرى فى الحيوان ، وأشده ظهورا ووضوحا فى الإنسان .

لذلك انعطفت قلوب الأمم على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم سواء فيه البلاد التى فتحت عنوة ، ووضعت فيها الحرب أوزارها ، أو صلحا وأولى مقدمات العادة الاستحسان ، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكة .

والإعجاب بآداب قوم ، باعث على حب التقرب منهم ، وأعظم وسائل التقرب : التفاهم ، فيتبارون فى تعلم اللسان .

هكذا تم للعرب ورسخ لهم فى معظم مافتحوه من الأمصار والبلدان والممالك ، آثار أدبية ، فضلا عن الآثار العمرانية ، من لسان وعادة وأخلاق ما أمكن استئصالها ، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة . فمصر ، بينما هى هرقلية رومانية ، ومقوقسها عامل له فيها ، أصبحت فى قليل من الزمن إسلامية فى الأغلبية ، عربية بالصورة المطلقة ، فى كافة مميزات العرب . وهكذا القول فى سوريا والعراق وغيرهما ، بدون أن يبذل فى سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى ، أو يستعمل له أقل الوسائل ، كما ذكرنا .

نعم إن أكبر حامل ، وأفعل عامل ، على تعرب أولئك الأقوام هى الفضائل الأخلاقية والصفات العالية التى كانت تأتى بها العرب ، مع بأسهم وشجاعة أبطالهم .

فعاليات آداب اللسان[1]

أما انتشار اللسان العربي ، ما عدا بلادهم (شبه الجزيرة) ، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه ، ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل ، بل إن ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل .

حتى إن العرب قبل الإسلام ، وهم فى تلك الحالة الجاهلية ، والبداوة المحضة ، وبعدهم عن كل حضارة ، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك ، مثل كسرى أنو شروان محلا رفيعا ، ويأخذون الجوائز ويثرون بتجارتهم من الأعاجم بآداب لسانهم ، وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التى تأخذ بمجامع القلوب .

هكذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد يناسبه سلاسة اللسان وأدبه فكان إذا ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل « الحرث بن كلدة » مثلا استطاع بآداب اللسان ، وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

وكذلك الشاعر فى قبيلته إذا نبغ ، ولو كان وضيع النسب ، أجلته القبيلة واعتبرته حامى ديارها بأدبه وشعره ، وأغنته بالمال والماشية .

وأما فى الحضارة الإسلامية ، وفى دولها ، فكثير ممن برع بالأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة ، وأما من أثرى بأخذ جوائز الخلفاء والملوك ، من الادباء ، فلا يعدون كثرة .

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى ، أما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة بمنزلة أكبر المفاخر .

فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل كل ماسواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد ماشاء الله .

بين العرب والأتراك[1]

جاءنى يوما أديب كبير من أدباء الأتراك وبيده كتيب صغير فيه مفكرات « ضبا باشا » بخطه ، فقرأت ما ترجمته بالحرف :

[توغلنا فى الفتوحات حتى توسطنا كبد أوروبا ، ودخلنا « فينا » ، واضطررنا للتخلى عنها ، وليس لنا ثمة أدنى أثر أدبى أو مادى ، وهكذا بالاستدلال سيكون حالنا فى بقية تركية أوروبا مثل بلغاريا ، والفلاخ ، والبغدان والصرب ، والجبل الأسود ، وغيره من البلدان .

إنه ليحزن المؤرخ كلما تكرر قول الشاعر العربى :

إن آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

أما العرب ففى كل ما فتحوه من البلاد ، حربا كان أو صلحا ، قد تركوا من الآثار الأدبية والمادية ، ما لا يقوى على ملاشاته الأدهار . فالمسلم ، أو المسيحى واليهودى ، فى مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شىء على نسبته العربية ، فيقول «عربى» ثم يذكر جامعته الدينية .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦ .

فهى تنطق بأفصح بيانٍ على مر الدهور أنها حكمت من تلك الأمة.

وآثارهم المادية فى الأندلس لا تقل عن آثارهم المدنية فى باقى الأمصار والأغرب أن التركى والجركسى والأرناؤوطى ، وغيرهم من العناصر ، يستعرب متى وجد أو سكن فى بلاد العرب بأقرب الأوقات ، ويمتزج فى المجموع حتى تخال أنه «عربى قح» .

أما فى حكمنا فلم نستطع أن نسترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الإسلامى ، والسماح التركى ولين الجانب] . أ هـ .

* * *

لوكان ضيا باشا حيا لأزلت له ريبة من حال قومه الأتراك .

إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر ، لما اعتقد أن الأتراك قد شابهوا العرب تماما ، بمعنى أنهم دخلوا فى دين الإسلام ، وجروا على سننهم بالفتوحات ، من حيث العدل ولين الجانب . ولكن فاته أن لكل دين لسانا ولسان دين الإسلام (العربى) . ولكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها تتكون العصبية .

فالأتراك أهملوا أمرا عظيما ، وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح ، رحمة الله عليه . وأحب أن يعمل بها السلطان سليم ، وهى قبول اللسان العربى لسان الدولة ، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء ، بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله.

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهرى فقط ، بل بفهم

أحكامه والعمل بآدابه ، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان ، وهو أهم الأركان .

قامت السلاطين العظام من آل عثمان بفتوحات جليلة ، وعملت خيرات ومبرات جزيلة ، وقربوا إليهم من كان فى عصرهم من فحول العلماء من المسلمين ، وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربى ، وبعض علومه ، وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربى ، وغالوا فى التقدير حتى إنهم كانوا (على ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ القاموس العربى للفيروز آبادى (وهذا لو صح ، غلو غير معقول) ، وليس هو من الفائدة فى شىء .

بقيت الأتراك فى فتوحاتهم على تلك الصورة ، وفى مجموعهم بداوة صرفة لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ، ولم ينقلوا سواها للبلاد .

نعم إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد ، ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان . والعرب لو كانوا مثلهم لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرا منهم ، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ولبقوا بداوة محضة ، همهم فتح البلاد للاستغلال ، وجمع الأموال للرفاه والترف ، أو للبذخ والسرف .

الأمر الذى قضى على الدول التى خلت قبل الإسلام وبعده ، والتى ما كان ليقضى عليها سواه . فالانغماس فى السفه والترف والبذخ والسرف ، من العوامل الأساسية فى حالتى الاضمحلال والانقراض ، وأقل نتائجه صرف الهمم عن معالى الأمور ، وعدم الاكتراث بما يحتاجه الملك من التعهد بأسباب دوام العمران .

وأشد ما فيه من المخاطر احتقار مطالب الجمهور التى كلما تمادى الملك

المحجب وعونته المترفون المسرفون فى إهمالها والضغط على طالبيها ، تحتشد الأحقاد فى الصدور ، وتستحكم منهم النفرة ، ولا يلبث كل ذلك طويلا حتى يظهر فى حين لا يرقبه الملك ولا أعوانه الذين غصبوا حق الأمة وهضموا حقوقهم العامة بصفتهم «خاصة» .

فالأتراك قد اتفقوا شكلا مع العرب ، والنتيجة من حيث هى نتيجة مؤلمة فواحدة للقومين والأمتين أما فضل العرب بترك الآثار العمرانية والأدبية فليس له كبير أهمية بالنظر إلى نتائج الأمور ومصيرها .

* * *

إن عدم ترك الأتراك أثرا بعد أن توغلوا فى فتحهم لأوروبا ، ودخولهم « لفينا » وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أدبية أو عمرانية ، لا يعد حطة ، كما أن بقاء آثار العرب فى الأندلس من أقدس واجبات من استطاع أن يأتى بتلك الآثار ، وتجشم لإبرازها وإبداعها تلك المهالك والأخطار والأموال ، أن يعد لحفظها فى حوزته ، وتحت سلطانه ما استطاع من قوة ، لا أن تبقى أثرا بعد عين .

والأثر فى مثل هذه الحال أدعى للحزن ، لأنه أفصح من كل بلاغة على التفريط ، وأنطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان .

بل أرى أن عدم ترك الأثر على هذا النمط أولى من تركه ، لعدم التأثر (وان خالف هذا القياس بعض الأوروبيين) .

فالافرنسيس مثلا ، ألف مهرة كتبتهم «شناعات الحرب السبعينية» سنة

١٨٧٠ م ، وصوروا ضعفهم تجاه الألمان ، وعدم تدبرهم للأمور ، وهفوات قوادهم ، وأسباب خذلانهم ، وما أتاه عدوهم من الجرائم ، والتمثيل بصورة أفظع من أن يصورها العدو الألمانى ، فهم يذكرون ذلك ليثأروا ، ولكن على اهتمام متواصل ، لترقى الأمة ، وإعداد ما يستطيعون من قوة .

وأما العرب والترك ففى كل فتوحاتهم ، سواء فيه من ترك آثارا أو لم يترك فقد تركوا من بعدهم خلفا من الأبناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آبائهم وأجدادهم ، وعن إعداد القوة هم غافلون ، وعن واجباتهم لاهون، وإن ذكّرتهم لا يذكرون ، وإن أيقظتهم لا يفيقون ، بل هم فى غفلتهم راقدون ، وعلى القدر كل شىء يحيلون .

ولو عملوا بالقانون الإلهى ، وبقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » لكان أوفر خير للأمة ، و (السعى) أدل السبل على النجاح وأحسن ما تربى عليه الناشئة .

المسألة الشرقية [1]

مختصر المسألة الشرقية . هى العراك بين الغربي والشرق . وقد لبس كل منهما لصاحبه درعا من الدين .

فالغربي تذرع بالنصرانية ، والشرق بالإسلامية ، وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدي محركيها فالقائمون بالنصرانية يسخرون الدين لأجل الدنيا ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة .

والعاملون بالإسلامية ، يسخرون الدنيا لأجل الدين ، واذا هم لا يعملون بأحكامه ، يخسرون الدين والدنيا معا .

إن فتح القسطنطينية ، تلك العاصمة العصماء ، من قبل السلطان محمد الفاتح (٨٥٦ ـ ٨٥٧) هى التى ولّدت الحقد فى الملوك المسيحيين ضد المسلمين ، وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها ، لمناصبة الدولة العثمانية ، وتعمل على إذلالها وضعضعتها ، وإخراجها من فتوحاتها الأوروبية بكل وسيلة ، وفى كل سانحة وفرصة .

---

(١) المصدر السابق . ٢٢٨ ـ ٢٤٢ .

والأكثر فى الحروب والتغلب . والانتصار فيهما ، إنما يكون بالقوة والعلم ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست ، أو من يوم ما استقلت به سنة ٦٩٩ [١] ، وراقبت حركات العالم الغربى ، وجرت معه حيثما جرى فى مضمار المدنية ، والحضارة ، وقرنت إلى فتوحاتها المادية ، القوة العلمية ، على نحو ما فعلت اليابان أقله ، لما كان ثمة مسألة شرقية ، أو لما ظهر ذلك التباين الذى لا يثبت معه الحكم طويلا ، وهو تحكم الجهل بالعلم ، أو «حكومة جهل تحكم حكومات علم» ، ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم ، وما مسألة الدين إلا ذريعة تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية «وهى دفع الجهل ، والحكومة الجاهلة عن الحكم بأمة عالمة لها تاريخها ولسانها ، وآثارها ، ولو كانت بالية» .

وإذا كان للضغينة الدينية شىء من الدخل فى إيجاد المسألة الشرقية والاحتفاظ بها ، فإنها ليست هى كل أسباب المسألة ، بدليل أن سلاطين آل عثمان فتحوا ، وتوغلوا ، وضموا الممالك ، وكانوا يدينون بالإسلام . ومن دخل فى ملكهم وتحت سيطرتهم كانوا نصارى ، وأشد تمسكا بالنصرانية مما هم الآن . فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد والمناهضة ، لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك ، وعدم ظهوره ، بل رضوخ الطوائف والإمارات النصرانية للحكم العثمانى الإسلامى ، أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن هى وحدها الفاعلة فى أمر المسألة الشرقية ، التى امتدت ، وستمتد إلى غير

(١) هجرية ــ وهى توافق سنة ١٣٠٠م ، وفيها كان تأسيس الدولة العثمانية فى الأناضول .

تركيا ، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق فى شكلها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا .

إذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الإسلامية على الحكومات النصرانية لوجدناه منحصرا « فى القوة والعلم » . وهكذا يدول أمر الدول انتصارا وانكسارا .

والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الإسلامية بالعلم ، مصدر القوة وينغلب المسلمون بالجهل ، مصدر الضعف .

علم الأتراك يوم تسنى لهم فتح الممالك «علم الحروب وتعبئة الجيوش» وجهل الأوروبيون ذلك ، ولم يضارعوهم فيه ، فانتصر الأتراك وانكسر الفرنجة

التزم الأتراك ، والسلاطين العظام منهم جانب الدين ، وكان على منصة المشيخة الإسلامية علماء أعلام ، وفقهاء ، وأجلاء عالمون عاملون بحقيقة الإسلام وأحكامه ، فعدلوا فى الرعية ، وأمّنوا من دخل فى ذمتهم ، وسهلوا لهم الصعاب ، وحافظوا على جامعتهم من دين ولسان وعادة ، فرضخ المستعمَرون (بالفتح) من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم بالنسبة لجهل غيرهم فى تلك الأعصر .

فظل النصارى فى طاعة العثمانيين ، وظلوا فى كل المعانى رعية لهم ما دامت تلك المؤهلات والصفات فى الفريقين ، القوة والعلم فى الحاكم ، والضعف والجهل فى المحكوم . حتى إذا انعكس الأمر ، وبأن الجهل مصدر الضعف فى الأمة الحاكمة ، وظهر العلم مصدر القوة فى الأمم المحكومة ، نهضت للتخلص من ربقة الاستعباد لمن دونهم فى العلم ، واستبسلت فى الرجوع لحكم ذاتها

بذاتها . وقد سهل عليهم كل صعب فى هذا السبيل ، إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ ، تلك النعمة التى كانت وتكون على الدولة أكبر نقمة ، ولا مناص لها من تحمل أعباء ذلك ، وهى سنة الوجود .

لأن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها ، من دين ولسان وتاريخ ، ولم تستحل وتنحل فى غير عنصرها ، فهى أرقب الناس للفرص وأعلق الخلق بإعادة مجدها ، وبجديد وإعادة سيرتها الأولى ، ولن تثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها ، وتزداد نشاطا ، وتستمد قوة معنوية كلما آنست من حاكمها المستهين بها استطالة بغير حق . واستهضاما لحقها بغير وجه مشروع وبقهر ليس له من الانصاف نصيب ، وبقتل يحيي ميت العزائم .

ومن ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ، ونشأتها ، لا يتمالك نفسه من الإعجاب بنشاطها ، وكثرة ما فتحته من الممالك ، وأخضعت لسلطانها من الأمم ، ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ من تفريطها ، وعدم جريها مع أحكام الزمن ، وحرمانها نفسها ، ومن دخل فى حكمها من الأمم أن تجرى وإياهم فى ميدان الحضارة ، وأن يبقى لها أثر من الآثار فى تلك الممالك والأمصار .

نشأت فى الجيل السابع للهجرة ، أو آخر القرن الثالث عشر الميلادى بآسيا الصغرى ، فاستخلص السلطان عثمان الأول ما بأيدى السلجوقيين من الملك ، وهو القسم الشرقى ، ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربى .

وقد حول العثمانيون أنظارهم ، وصرفوا قوتهم وهمتهم إلى شبه جزيرة

البلقان ، تلك البقعة الغريبة فى وضعها الجغرافى ، إذ وقعت فى أقصى الجنوب الشرقى من أوروبا ، وإلى جانب آسيا .

وبعد انقسام المملكة الرومانية إلى شرقية وغربية ، كانت شبه جزيرة البلقان فى المملكة الشرقية ، وفيها غير تركيا : اليونان والصرب ورومانيا والجبل الأسود ؛ ولك من هذه الأمم عنعنات ، ومطامع ، وعروق وأنساب ونزعات طائفية واختلافات مذهبية ، وأميال سياسية ، كانت معها البلقان فى سائر الأعصر مهد الفتن والقلاقل ، ولاتزال كذلك ، وسيعم بلاء البلقان أهله ويتعدى إلى ما سواه من الممالك ، لأن كل دويلة من هذه الدويلات الصغيرة تطمح فى تكبير حوزتها ، وهذا الكبر لا يتم إلا بتصغير جارتها ، أو بابتلاعها ومن وراء هذه المطامع فى حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضا ، الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن ساعد على استقلالهم ، وإخراجهم من الحكم العثمانى ، وهم بمساعدة البلقانيين على الاستقلال إنما يريدون أن يبتلعوه ويملكوه جزءا بعد جزء ، وستكون الحجة ، عنصر السلاوى ، والصقلبى وكانت الحجة من قبل تخليص النصرانية من الحكم الإسلامى ، والصحيح : قوىّ يحاول اقتناص وابتلاع الضعيف .

* * *

هذا بحث يطول .. ولنعد إلى ما كنا فيه من النظر إلى ما ترك العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك .

افتتح السلطان مراد الثانى بلغاريا سنة ١٣٨٢ م ، وبقيت تحت حكم العثمانيين وفى حوزتهم نحوا من أربعة أجيال ، والبلغاريون قوم أشداء ، وأصلهم

من المغول ، مثل المجر والفنلنديين . نزحوا من جهات قازان فى روسيا وأوروبا ونزلوا بلاد البلقان فى الجيل[1] السابع للميلاد ، وهى من أول نشأتها ألفت الاستقلال وحافظت على مكانتها ، وكانت دولة البيزنطيين تخشى بأسها ، ثم أخذت فى التقهقر ، فافتتحها الروسيون ، ثم ناهضتهم وأعادت استقلالها فى القرن الحادى عشر ، ثم دخلت فى حوزة الروم وصارت جزءا من المملكة الرومانية الشرقية ، ثم استقلت ثالثة . ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين ، وماذا فعلوا مع البلغار فى مدى تلك الأجيال ، وأى أثر عثمانى تركوا فى بلغاريا ؟ .. لا شىء .. بلى .. تركوا لهم جامعاتهم الكبرى من دين ولسان وتاريخ . يسيرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين وحكامهم الأتراك من القاعدين مكتفين بالفخفخة والغطرسة والفخر بالأسلاف .

هذه أربعة قرون وبلغاريا تحت الحكم العثمانى ، وهى لا تزداد إلا انحطاطا . حتى إذا ما صارت إيالة ممتازة بموجب معاهدة برلين ، نهضت وقطعت شوطا بعيدا فى الحضارة والعمران والترقى . وصار لها جانب يخشى حتى من الدولة العثمانية .

أما الصرب ، فهى أيضا من فتوحات مراد الثانى سنة ١٣٨٩ م ، وبقيت كذلك فى حوزة العثمانيين أكثر من أربعة قرون ، وقد حاولت التخلص من حكم العثمانيين مرارا ، وآخر ثورة قام بها الصربيون دامت أربعة عشر عاما

(١) الجيل : القرن .

نال بها الصربيون من الباب العالى نوعا من الاستقلال ، وسنة ١٨٧٨ م استقلت تماما بمقتضى معاهدة باريز ، ولحقت بجارتها بلغاريا .

وكذلك اليونان ، فقد أخضعتها الدولة العثمانية مع من أخضعت من ممالك البلقان ، وظلت فى حوزتها وتحت حكمها إلى سنة ١٨٢٩ م ، فاستقلت بمناصرة أوروبا وبعد حروب طويلة دامت سبع سنين ، واشتركت فيها العمارة (الأسطول) المصرية بقيادة إبراهيم باشا ، إذ أرسلها محمد على باشا الكبير إلى « المورة » (الأمر المعروف) .

أما رومانيا ، وكانت فى القرن الثانى عشر عبارة عن إمارتى « فلاخيا » و « مولدافيا » ، وقد خضعوا للعثمانيين ، وكانوا يؤدون الجزية من سنة ١٣٩٢ م إلى سنة ١٧١٦ م . ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثمانى ، ثم احتلت روسيا البلاد وأعادت لهم امتيازاتهم التى كانت لهم وخسروها من سنة ١٧١٦ م ، ثم كانت ثورة سنة ١٨٦٦ م وانتهت باختيار الرومانيين البرنس « شارل دى هو هنزلزن » الألمانى . ثم قرر مؤتمر برلين استقلال الولايتين المعروفتين « بالفلاخ والبغدان » استقلالا تاما ، ودعاهما باسم رومانيا ، وفى سنة ١٨٨١ م جعلت الإمارة مملكة ونودى بأميرها ملكا .

أما الجبل الأسود ، وله من اسمه نصيب ، فهو مقاطعة صغيرة ، جبلية وعرة ، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلا مربعا ، وسكانه مايتان وسبعة وأربعون ألفا ، وهم من العنصر الصقلبى ، وأكثرهم فلاحون رعاة ، على غاية من شقاء العيش ، هذه الامارة الحقيرة ، قديمة العهد بالاستقلال ، ولم يرضخها ويفتتحها من العثمانيين إلا ذلك السلطان العظيم سليمان القانونى ، الذى وصلت

السلطنة العثمانية فى عصره إلى منتهى المجد والعظمة .

ولما كان الجبل الأسود على ما ذكرنا من الفقر والوعورة ، وأهله أولو بأس وشدة واستبسال فى الدفاع عن استقلالهم ، فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها ، والجبليون من حين لآخر يجاهرون بالعصيان ، حتى إذا حملت عليهم جيوش العثمانيين يتظاهرون بالرضوخ ، وهكذا من سنة ١٥٢٦ م إلى زمن البرنس «نقولا» «وهو ملك الجبل الحالى» ظل معترفا بسيادة الدولة إلى سنة ١٨٦٢ م ، ثم جاهر بالعصيان والتمرد حتى إذا كان مؤتمر برلين ، «ذلك القضاء المبرم» على الدولة ، فقد أعلن استقلال الجبل الأسود ، والتحق بإخوانه أمراء شبه جزيرة البلقان ، وتخلصوا من حكم آل عثمان .

هذه هى شبه جزيرة البلقان التى افتتحها العثمانيون ، وبقيت فى حوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال ، فماذا أحدثت فى تلك الممالك من آثار العمران ؟ وماذا تركت فى تلك الشعوب من الذكرى ؟ وماذا أعدت من الحزم والرأى والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والإمارات فى حوزتها ؟

وإذا كان الجواب : «لا شىء» .. حينئذ يضطرنا الإنصاف ، إلى أن نقول : إن الدولة العثمانية فى فتوحاتها ، وما شاهدناه من تفريطها ، لم تكن لتحسن الاستعمار[1] ، بل بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية فى مدنيتها وعلومها وصنائعها .

شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليونا ، ولكل

---

(١) الاستعمار ، هنا ، بمعنى : العمران .

أمة ومملكة جامعات ومميزات ، من تاريخ ودين ولسان وعادات وأخلاق وهى فى كل هذا على طرف نقيض مع العثمانيين الأتراك ، فلو أخذت الدولة بالحزم بعد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأى ، لعلمت أن بقاء تلك الممالك فى حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعمد إلى وسائل تعميم لسانها ، بإحداث دور علم وغيرها ، حتى إذا استطاعت ، وتسنى لها فى ظرف جيل أو جيلين أن تعمم لسانها ، كان لها أحد العوامل الكبرى للبقاء ولعدم سرعة الانفصال والتفكك ، إذ يكونون أتراكا باللسان مثلا ، أو بالدعوة الدينية كما تفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين من الانجيليين والرهبان ، وبتشييدهم «دور العلم» .

فإذا انتشرت الدعوة الدينية ، وقبلتها الأمة المستعمَرة ، اشتركو بجامعة ثانية ، وهى اللسان ، والدين ، فكان الارتباط أشد وأوثق .

وهكذا إذا فازت على مدى أربعة أجيال ، أن تعمم الجامعات التى لها بين تلك الشعوب ، اشتدت عرى الاتحاد وانتفى التغاير ، وأسباب النفرة ، أما والدولة العثمانية لم تفعل فى ممالك البلقان ما ذكرنا ، ولم تفكر فيه ، فضلا عن أن تسعى إليه ، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها ، واستقلالهم أمرا محتما وقوعه لا مرد له (سنة الله فى خلقه) .

ثم لننظر فى فتوحات الدولة للممالك الإسلامية ، من مصر ، والشام فحلب فبغداد ، وتونس ، وسائر الممالك العربية ، فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب ، وكان لجامعة الدين التأثير العظيم فى قبول الحكم العثمانى ، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها ، وعملت بالفكرة من عهد

السلطان محمد الفاتح ، أو السلطان سليم ، بأن يتخذ اللسان العربى ، وهو لسان الدين ، لسانا رسميا ، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة وآمن حصن من الانتقاض والخروج عن سلطانهم ، ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامى ، على جهل باللسان العربى ، جعل لهم فى القلوب منزلة ، ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين .

فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام « بالتركى وبالعربى » ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الإسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات .

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا . وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل همام ، مثل الفاتح أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم ، غير عسير .

ولكن مع الأسف ، عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى ، خطأ بيّن ، لا يضارعه إلا توغل العثمانيين فى أوروبا ، وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة .

لأن المستعمرة مهما عظم موقعها وطاب هواؤها ، لا يصح أن تتخذ قاعدة أو عاصمة الملك ، لأسباب أهمها : أن المستعمرة كالثوب العارية ، قابل للاسترداد ، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاؤها إلا من ضعف السلطان فى

عواصمها . ومنها بُعد المستعمرة ، على الغالب ، عن مجموع القوة ، وإحاطتها بأعداء الملك وأعوانه .. الخ ..

انظر ، هل ترى دولة أوروبية جعلت عاصمة ملكها فى غير قلب مملكتها وفى غير مكان نشأة تلك الأمة . فالانكليز لم يجعلوا عاصمتهم ، مع سعة ملكهم إلا جزيرة بريطانيا ، وفى قلبها مدينة «لندن» وهى الجزيرة التى سكنها البريطانيون فى دور توحشهم . والفرنسيس فى باريس ، قلب بلاد الغاليين .

وهكذا بقية الدول ، لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها ، وانتقاضها فإنه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكا خاصا . وعلى هذا جرى الخلفاء الراشدون فمقرهم كان المدينة ، وهى قلب البلاد العربية ، محاطة بقوة العرب من سائر الجهات ، ثم الأمويون ، فى الشام ، ثم العباسيون فى بغداد ، والعاصمة أنشأها المنصور إنشاء ، وكان فى ملكهم من المدن ما هو اطيب هواء ، وأمنع موقعا من بغداد ، ومع ذلك فلم يستبدلوا العارية بالملك الصرف .

نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يمحوه الدهر ، خصوصا بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد ، ومعه خالد أبو أيوب الأنصارى ، صاحب المقام المعروف بالسلطان أيوب ، ولم يظفروا .

ثم العباسيون ، واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها ، وغيرهم من ملوك الإسلام ، ولم يظفر بالفتح ، وبمعنى الحديث الشريف «لتفتحن القسطنطينية ، فنعم الأمير أميرها ، ونعم الجيش ذلك الجيش» ، إلا ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيب الله ثراه .

ولا أرتاب أن فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين أو للعباسيين ، لما جعلوها

عاصمة ملكهم ، بل جعلوها كغيرها من الممالك مستعمرة ، تتقوى المملكة بجباية الأموال منها ، وفوضوا أمر إدارة شئونها لأحد الدهاة منهم ، كما فوضوا مصر ، والأندلس ، والسند ، وبخارى ، وبلاد الفرس ، وغيرها للمقتدرين من العمال ، وهذا هو الحزم وغاية الصواب .

وأما شبه جزيرة البلقان ، فإن كان فى ظاهر أمر فتحها من الأتراك ما يدل على القوة والبأس ، فإنه فى حقيقة الأمر كان مصدر بلبال للدولة . وإضعاف لقوتها ، ولم تسكن فيها القلاقل والفتن. ولم تفتر الدولة من تجبيش الجيوش ، وإراقة الدماء فى سبيلها ، كل ذلك ، وبالنتيجة كان البقاء فى البلقان غير مضمون ، بل كان استقلال ممالك البلقان مجزوما فيه من كل عاقل .

ولقد سمعت من المرحوم «عالى باشا»، ذلك الصدر الأعظم ، الكبير العقل ، النافذ النظر . وهو يعتقد أن داء البلقان سوف يضعف جسم الدولة ، وسوف تضطر مكرهة على التخلى عن البلقان ، بعد خسارات مادية ومعنوية لا يمكن تعويضها ، وأنه وجد طريقة للتخلص من البلقان مع حفظ شرف الدولة والاستعاضة عنه بمبالغ جسيمة يمكن إصلاح بقية المملكة بها .

ويا للأسف ، كيف أن هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا الفكر السليم ، والعمل الذى فيه كل خير وكان أمر الله مفعولا .

فلو فعلت الدولة ، وأخذت برأى عالى باشا وغيره من حكماء الوزراء أو بالذى تصوره لها من أنها تتخذ بغداد عاصمة ملك ومقر الخلافة ، وعندها الدجلة والفرات والخابور والبصرة وشط العرب . ذلك النيل الذى يفيض كل أربع عشرة ساعة مرة ، وتلك السهول الخصيبة التى على جانبى وضفتى ذينك

النهرين العظيمين ، والتى مساحتها عشرة أضعاف أراضى مصر ، على أقل تعديل ، وأعظم منها خصبا وأكثرها إنباتا .

* * *

رحم الله محمد على باشا ، ذلك الأمى الكبير ، نابغة رجال أعصار وأجيال ، فقد طوى تحت جبته هما تدكدك الجبال ، وقلبا يقدم به على هائل الأعمال ، وتحت عمامته دماغا فعالا وعقلا جوالا وبصرا نافذا ، وفكرا ثاقبا ورأيا صائبا .

بلغ الرجل من حدة الذهن وفرط الذكاء والدهاء وبعد النظر أنه بعد أن حسّن خراج مصر تحسينا بينا ، ونظم ما اختل من أمورها ، واستنهر النيل للقناطر الخيرية ، ومنها يجرى فى الجداول والترع ، عرض على الباب العالى والتمس من السلطان أن يعيضه بالبصرة عن مصر ، وأنه يعد إسعاف هذا المسئول ، منّة وفضلا ، فتأمل ؟؟ ..

هذا الرجل العظيم ، لو لم يعلم يقينا أن البصرة خير من مصر ، لما طلب ما طلب ، هذه هى البصرة ، وأما الموصل « ذات الربيعين » ، فما شئت عنها فقل .

ثم إذا علمنا أن المسافر من بغداد فى عصر الرشيد كان يمشى فى ظل الأشجار حتى يبلغ غوطة دمشق ، ومصب نهر « قويق » فى حلب ، ثم إذا اتجه من هنالك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان فى سهول « أطنة » ، وفى الجنوب عند دمياط ورشيد والإسكندرية يصب النيل المبارك ، وأن كل تلك الممالك والأمصار والأنهار ، وهى ملك خاص للمسلمين ، لا ينازعهم فيها

منازع إلا أولو القوة من أهل المطامع ، ونزاعهم بالختل والخداع وبالحيلة والمكر ليس إلا .

فلو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم ، واستعربوا ، وترأسوا ذلك الملك وعدلوا فى أهله ، وجروا على سنن الرشيد أو المأمون ـ على الأقل ـ ولا نقول ، على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين .

فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانبا ؟ وأمنع حوزة ؟ من ؟؟ ولكن مع الأسف ، إن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير « الحرب » ، وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص فى شئون العمران ، أقل روية وعملا من سواهم . يسوءنى ، وأنا ممن يحبهم ، وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى ، لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، باللسان التركى ! ! . ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية ، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة ، لما رأينا للاتراك شعرا يُقرأ ، أو منثورا يُفهم ، أو بيانا يترجم عن جنان . وهو فى حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية ، تجده قد خف وزنا ، وانحط معنى .

فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ، ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان .

لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضيع فى خلوات عديدة ، فكان يسمع بكل إصغاء ، ولكنه فى النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له ، وفهمت من أوضاعه ، وأسارير وجهه ، أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربى ، وفكرة الفاتح والسلطان سليم بذلك صواب ، وكذلك لا يحب أن يعترف أن توغلهم فى أوروبا ، وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ .

نعم .. إن زمن العمل قد مضى وانقضى ، وكان الحزم فى إخراج تلك التصورات إلى حيز العمل ، والدولة العثمانية إبان عزها واستكمال قوتها وبأسها ، أما اليوم فالأمر للقوة ، والطاعة على الضعيف ، وليس باستطاعة عبد الحميد أن يفعل ما كان بإمكان السلطان الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم أن يفعله .

فحولت وجهى عن ما لا يمكن إلى ما يمكن ، وفيه وقاية ما بقى من أملاك السلطنة العثمانية فى غير أوروبا .

فقلت للسلطان عبد الحميد : أتأذن فى تقديم لائحة فى تصوراتى ، لتحسين حالة المملكة ، والتحوّط بصونها من مطامع الأعداء ؟ . قال : لا أريد أن تكتب شيئا من ذلك ، إذ لا أحب أن يطلع أحد على ما يدور بيننا ، بل قل لى ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة ، فأنا لك من السامعين . قلت : أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ترسل إليها الولاة من الآستانة ، مثل باكير باشا ، ومحمد باشا اليدكشى ، وأمثالهما ، لجمع الأموال من غير وجهه وتوزيعها على رجال الدولة هنا «الآستانة» فقط ، على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتكم . هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة ؟ أم جعلها خديوية كما هى

قبل الانكليز ، خاضعة للدولة ، ومن الأجزاء المتممة للسلطنة ، يأتمر خديويها بأمركم ، والعساكر المصرية عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق مع جيوش السلطان ، وبكل المعنى رعية خاضعة طائعة ؟ .. فتفكر مليا ، وحول وجهه نحو النافذة عنى ، حتى ظننت أن الحديث قد أساءه ، وأنه لا يحب الخوض فيه ولا العود إليه ، وإذا هو بغتة قد التفت ، وتوجه بكليته إلى ، وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا ، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة . وقال : لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية ، ثم ماذا ؟ .. قلت : يا مولاى ، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ، ومساحة أملاكها فى آسيا فقط ستماية وواحد وستين ألف ميل مربع ، ومساحة بريطانيا وايرلاندا ماية وعشرون ألف ميل . فتأمل (!) فتبدأ بالبعيد منها ، والمطموع فيها ، مثل طرابلس الغرب ، فتجعلها خديوية ، ثم إلى ولايات بغداد ، فالبصرة والموصل فتجعلها خديوية ، وإلى بيروت ، وسورية ، وحلب ، مع القدس فتجعلها خديوية ، ثم إلى جزائر بحر سفيد وكريد مع أدرنة وسلانيك فتجعلها خديوية ، ويشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شىء .

ثم الحجاز ، فتجعل خديويها الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم والأحسن سيرة ، ثم اليمن ، وخديويها يكون الإمام الزيدى .

أما الأناضول وولاياته قونية . وأنقرة . وأيدين . وأطنة . وقسطمونى وسيواس . وديار بكر . وبتليس . وأرضروم . ومعمورة العزيز . وآن وطرابزون . فتقسم إلى ثلاث خديويات . يكون لكل خديوية منفذ بحرى

الواحد على البحر الأسود إما فى سيواس أوصامسوم ، والثانى فى بروسة والثالث فى أزمير.

وبلاد الألبان ، وهى ولايات قوصوه ، ويانيه ، وأشقودرة ، ومناستر فتجعلها خديوية أيضا ، هذه يا مولاى عشر خديويات ، بل عشر ممالك كل واحدة منها أعظم موقعا من اليونان ، وأكبر مساحة ، وأخصب أرضا ، وأنشط قوما ، وأرجح عقولا ، وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية ، أو التفوق عليهم ، إلا شكل الحكم ، وقيود وأغلال المركزية القاتلة للهمم ، الموهنة للعزائم .

ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم ، أحد رجلين ، إما الخامل البليد ، المرتكب ، وهمه جمع المال وتوسيع الخراب . وإما الرجل النشيط العاقل ، وليس له من الأمر شيء ، إلا الاستئذان من الباب العالى لترميم جسر فى بغداد مثلا سقط منه حجران أو أكثر ، فلا يصدر الإذن إلا بعد أشهر وأعوام ، وبعد أن يكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر.

هذه الخديويات ، يا مولاى ، أول من تفوضها إليهم ، أهل بيتك من أمراء آل عثمان ، فتخلصهم من القعود من النساء ، وتربية الخصيان فيحسن بالضرورة ، كل منهم ما تولاه من أجزاء السلطنة ، ومصير ذلك التحسين والخير إليه ولأسرته ، ويكون مع كل أمير وزير فاضل أمين . ثم لا أرى مانعا يمنع من العهد ببعض الخديويات إلى من عرف من الوزراء بالإخلاص والهمة ورجاحة العقل ، ومن غير الوزراء أيضا ، وجلالة السلطان إذا شاء وفتش عنهم ، وجدهم فى غير حاشيته الذين يدخلون على بلاطه ، ولحضوره ويحشون آذانه

بالباطل . ويمنعون عنه كل حقيقة ، ويقصون عن قربه كل فاضل .

وقد رأيت السلطان ، وهو على تمام الإصغاء لما أقول ، قد تقطب وجهه وعلته كآبة امتعاض وحزن ، فقلت : يا مولاى ! وعزة الحق ، وبولائى لأمير المؤمنين ، ونصحى للمسلمين ، أن ما ساقنى لما قلته إلا الاخلاص ، والحرص على ملكك ، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية ، التى ليس لجمع شتاتها ، وتوحيد كلمتها الا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة . وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك ، الجزء بعد الآخر ، فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام أوثق ، وأشد وأحكم . وما وجدت ذلك السلك إلاّ بذلك الشكل الذى قدمته ، ولما انتهيت .. هز السلطان رأسه وتناول لفافة من التبغ ، أسرع فى تدخينها ، وقال :

ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان ؟ وما أبقيت لتخت آل عثمان ؟ قلت : يبقى جلالة مولاى السلطان ، ملك أولئك الملوك ، وينضم إلى العرش العثمانى عشرة عروش غير عرش مصر ، ثم متى نهضت تلك المقاطعات ، والخديويات ، وأخذت نصيبها من الرقى والعمران وصارت «مثلا» خديوية العراق مثل خديوية مصر ، ثروة وانتظاما ، لا شك فى أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى ، للاتحاد معها ، اذ هى فى أمس الحاجة لشد الازر . ولصون كيانها من مطامع الغرب ، الموجه نحو عموم دول الشرق .

ثم ما أسرع الافغان للانتظام فى ذلك السلك ، سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى . ثم ومتى تم ذلك ، وسيتم إن شاء الله . هل تقعد أهل الهند ، وراجاتها وأمراؤها ، والماية

وثمانون مليونا من المسلمين ، عن نصرة الخليفة الأعظم واللحاق لشد ساعد خوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية فى الشرق ، وعن هندهم أيضا ، أو ينهضوا نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين ، ويرجع الشرق للشرقيين ، وما ذلك على الله بعزيز .

أما السلطان عبد الحميد ، فكان سيئ الظن ، لا يأمن أحدا ، ويسيء الظن فى كل أحد ، فقال لى : يا حضرة السيد ، هل اجتمعتم بإسماعيل كمال بك فى هذه الأيام ؟ .. فانتقلت بسرعة إلى ما يرمى إليه السلطان ، وهو أن إسماعيل كمال بك كان قد كلف ، أو تعين لولاية طرابلس الغرب وطلب توسيع صلاحياته . وأن يكون له الحق فى عقد قرض لتحسين وإصلاح الولاية وغير ذلك . وقد سمعته من بعض الزائرين ، وليس من نفس الرجل أجبت : يا مولاى ، أعتقد أننى لا أسخر ضميرى لجد العرب «إسماعيل بن إبراهيم الخليل» ، إذا ، فما أبعد إسماعيل كمال ، أن يسخرنى ، أو أن أسخر له . وما اتبعت فيما عرضته على جلالتكم الا داعى النصح والإخلاص . فلم يرد السلطان جوابا على ما ذكرته وسردته . بل قال ، مثلا تركيا «آت اسكدردن كجتدى» ومعناه : «ان الجواد اجتاز اسكدار» ، وهو مثل يضربونه عند الأتراك «لما فات من الأمر» ولا حيلة فيه .

* * *

هذا ما كان منى فى هذا الشأن ، يا شيخ بنى مخزوم[1] ، وهذا ما كان من

(١) المخاطب هنا محمد باشا المخزومى ، مدون « خاطرات » جمال الدين الافغانى ، وصاحب الفضل فى حفظ هذه الفصول والاحاديث والخواطر التى أملاها جمال الدين .

السلطان عبد الحميد ، سلطان العثمانيين ، وخليفة المسلمين ، الذى تعنو له وجوه ما يقرب من الثلاثمائة مليون ، ينتظرون من هذه الدولة هبة ليحيا بها حقهم ، ويموت ويهلك باطل غيرهم .

كيف لا تذهب النفس حسرات ، وأكبر سلطان فى المسلمين ، هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح ، وإصلاح الملك ، والمحافظة ، أو المطالبة بصريح حقه فى أجزاء سلطنته ، بل روح الممالك الإسلامية «باب الحرمين ، مصر» .

وفى صون مصر فى حوزة الملك الإسلامى ، وكشف الانكليز عنها صون للممالك العثمانية ، وغلق لكل بلية مهيأة فى المسألة الشرقية .

وعزة الحق ! إن ما كتبته عن حق مصر ، وما استنهضت من الهمم ، وما حذرت به من سوء المصير ، لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم ، ولرفرفت على أجداثهم ، ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ، ومرائى مريعة . كاد أن لا يخلو سطر من (العروة الوثقى) إلا وفيه ذكر مصر ، ولا براهين وأدلة على ظلم الانكليز ، إلا ويتمثل فى مصر ، ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا وتراه فى التهاون فى أمر مصر ، وذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الإسلامية والعرب عموما نغول ، وبعروقها اتصال .

ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة ، وكل مقاطعة إسلامية شرقية هى بمنزلة مصر ، وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم ، فالشراك لها منصوبة ، والسقوط ـ والعياذ بالله ـ قريب . الا اذا نشطت العقول وعمل أولو العزم ، ولمت الأمم الشرقية شعثها ، ووحدت كلمتها وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها .

ما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموما بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسا ، إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، وأقصر طيات المسافة فى الذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية ، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه ، ويلم شعثه ، ويمد بعضهم لبعض يدا ، عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم .

ولكن ، ياللأسف ! إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين فى الشرق كان من شاهق عظيم ، لا يمكن للحكيم الوقوف فى سبيل سقوطه وهو فى وسط الانحدار ، أو بقربه من نقطة المركز. ذلك الشاهق العظيم ، شاهق حكمة الدين ؟ .. وإذا كان انحطاط الأمم مرضا ، وله سير معلوم ، فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير ، بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطفات والمسكنات حتى ينتهى السير ، ويبل العليل ، ويدخل فى دور النقاهة ، هذا اذا لم يمت ، وكان فى موته راحة ، ولميت مع الأموات خير من ميت الأحياء ! ولقد أحسن من قال :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

... نعم هو الحق الذى لا مرية فيه ، لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان ، ولكن هو القدر فلا يغالب . ولو كان لنصح الحكيم تأثير لما أخطأ الجاهل .

السلطان عبد الحميد (1)

إن السلطان عبد الحميد ، لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة خصوصا فى تسخير جليسه .

ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيا عنه ، وعن سيرته وسيره ، مقتنعا بحجته سواء فى ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ولكن .. يا للأسف ، ! إن عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوب الملوك ! .

* * *

رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستورى ، وأن الإسلام أول من عمل به فى سلطانه . ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ، ومرامى الدول الغربية ، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما .

وأعظم ما أدهشنى ، ما أعد من خفى الوسائل ، وأمضى العوامل ، كى لا تتفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ، ويريها عيانا محسوسا أن تجزئة

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨ .

السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها .

وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التى أحدثتها أوروبا ، أحبولة لتضعضع بها السلطنة العثمانية ، وتتذرع بها للتدخل فى الشئون ، لتقتطع من أجزاء المملكة ، جزءا بعد آخر ، وكلما حاولت أوروبا أن تجمع كلمة دول البلقان ، للخروج عن الدولة بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل ما ربطوه وتفريق ما جمعوه من كلمة وكيد . فالبلغار مع شدة شكيمتهم ودهاء أميرهم البرنس فرديناند ، رضخ طائعا لأمر عبد الحميد ، ولبس الشعار العثمانى (الطربوش) ، وافتخر برتبة المشيرية ، وانتظم مع مشيرى الدولة فى حفلة صلاة الجمعة « السلاملك » .

أما أمير الجبل الأسود « نقولا » ، فكان أمره مع السلطان عبد الحميد كولد لا يرى الفرج إلا من أبيه . كان كلما شكا قلة ذات اليد ، وطلب كفالة على استقراض زهيد ، يرسله له دون عوض ولا سند . أكثر جهاز ابنته التى زفها على ولى عهد إيطاليا (الملك الحالى الآن) كان من جيب السلطان عبد الحميد . وهكذا بقية دول البلقان مع ذلك السلطان العظيم الشأن .

ضاقت أوروبا ذرعا بسياسة السلطان عبد الحميد ، وحيطته ويئست من أكثر دول البلقان ، فحولت كيدها بدس الدسائس ، وصرفت همتها بالاستغواء إلى أخف الدويلات حلوما وأكثرها غرورا وطيشا ، وهى دولة اليونان . فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية لتتدهور بالحرب مع السلطان عبد الحميد .

* * *

أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال

مكايد أوروبا ، وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذى فيه نهضة المسلمين عموما) فقد دفعني إلى مد يدى له ، فبايعته بالخلافة والملك ، عالما علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شراك أوروبا ، ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد الأخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومى ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم .

* * *

وأى الأعمال أنكرها مولانا السلطان عليّ ؟ .. إنى أقسم لك بعزة الحق أنه لم يدر بينى وبين عباس حلمى خديوى مصر شىء من هذا (نقل الخلافة إليه) أصلا .. لماذا انزعج السلطان وأزعج لهذه الأكاذيب ؟؟

وما وسعنى لغيظ لم أكظمه ، من اهتمام السلطان بمثل هذا البهتان ، وهذه الاختلاقات والأراجيف المضرة فى حيثية الخلافة ، وعظيم خطرها ، ورفعة شأنها ، مع معرفتى دناءة مختلقيها ومرتبيها ، وهو يدعو عليهم بشر الدعاء كالعجوز الدردبيس البتراء .

ليسمح لى جلالة السلطان أن أذكر مثلا حضرنى الآن .. إن أحد الأمراء استزار رجلا فى قصره ، فلما جاء الرجل وجد على باب القصر كلبا هائلا عقورا ، يجرأ على الأسود ، وربما افترسها ، فهز عليه ، ونبح ، وتحفز للوثوب فخاف الزائر وأحجم عن الدخول .. فى أثناء ذلك أشرف الأمير من نافذة القصر ، وأهل بالزائر ، وسهل ، واستعجله بالصعود إليه .

قال : أيها الأمير ، كيف الوصول إليك ؟؟ وهذا الكلب العقور المدهش باسط ذراعيه ، فاغر فاهه ؟؟ أنهره ، أو مر من يمنعه عنى .

قال الأمير : أنا من هذا الكلب أخوف منك .. وهكذا أظن حالنا يا صاحب الشوكة .

* * *

أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، وأن أكون همازا مشاء بنميم ، ما هذا الهذيان فى هذا الزمان ؟؟ وفى أى مقام جليل خطير ، هم يتلاعبون ؟؟

خلافة عظمى ؟ وإمامة كبرى ! !

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

الخلافة ! كفالة الله فى خلقه ، فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الإمامة ، والخلافة ، وما تتطلبه من الشروط والصفات ؟ أين ؟؟ !

الخديوى (عباس حلمى الثانى) بظروفه ، وما أحاق وأحاط بمصره ، هو عندى أعجز من السلطان عن تصريف أمور الخلافة ، والقيام بأعبائها على ما يلزمها من مزايا وشروط ، أهمها الاستقلال .

نعم لو تخلصت مصر من براثن بريطانيا ، وتسنى لعباس ، مع ذكائه وتطلعه ، أن تكون له همة محمد على الكبير ، ومضاء إبراهيم ، وسخاء إسماعيل لوقع من الخلافة على ما يرجوه ، ولكن أين الولاية الخاصة لأمير المؤمنين اليوم فى ممالك الإسلام ؟؟ وأين المؤمنون الملتفون حول خليفة الرسول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟؟ وأين الحرية المطلقة للخليفة فى تعريفها على وجه الشريعة أو السير على سيرة الراشدين ؟ وأين القوة التى يدفع بها إذلال أو استعمار أو استعباد

المسلمين فى بلادهم وممالكهم وديارهم ؟ وأين ؟ وأين ؟ فلا حول ولا ..

* * *

ياجلالة السلطان .. مللت من تعاطينا الشكاية ... ومن غيرك صاحب الأمر ؟؟ ! !

خذ بحزم جدك محمود ، واقص الخائنين من خاصتك (الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال فى الولايات ، وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة) .

خفف الحجاب عنك ، وأظهر للملأ ظهورا يقطع من الخائنين الظهور . وأعتقد أن نعم الحارس الأجل « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

سبحان الله .. إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه ، وليس من يعترض منهم . أفلا يكون لجمال الدين حق أن يلعب فى سبحته كيف يشاء ؟ ! !

أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك ، لأنى رجعت عنها . نعم .. بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد . بيد جلالتك الحل والعقد ، وبإمكانك ألا تعد ، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء ، وقد رجوتك بالأمر الفلانى ، ووعدت بأنك تمضيه ، ولم تفعل .

٢

عبد الرحمن الكواكبى

(١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م)

(أ) الأتراك .. والعرب ..

(ب) دور العرب القيادى فى الإحياء الإسلامى

(ا) مخالفة الأتراك للعرب[1]

أما عدم التطابق فى الأخلاق بين الرعاة والرعية ، فله شأن عظيم ، كما يظهر للمتأمل المدقق فى تواريخ الأمم من أن أعاظم الملوك الموفقين والقواد الفاتحين كالاسكندر ، وعمر ، وصلاح الدين ، ـ رضى الله عنهما ـ ، وجنكيز ، والفاتح ، وشرلكان الالمانى ، وبطرس الكبير وبونابرت ، لم يفوزوا فى تلك العظائم إلا بالعزائم الصادقة مع مصادفة تطابقهم مع رعاياهم وجيوشهم فى الأخلاق والمشارب تطابقا تاما ، بحيث كانوا رؤساء حقا لتلك الأجسام ، لا كرأس جمل على جسم ثور ، أو بالعكس ، وهذا التطابق وحده يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها ، فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها ، حيث لا يكون لها فى غير ذلك فلاح أبدا ، كما قال الحكيم المتنبى :

إنما الناس بالملوك ، وهل يفلح عرب ملوكها عجم ؟ !

ومما لا خلاف فيه أن من أهم حكمة الحكومات أن تتخلق بأخلاق الرعية ، وتتحد معها فى عوائدها ومشاربها ، ولو فى العوائد غير المستحسنة فى ذاتها ، ولا أقل من أن تجارى الحكومة الأجنبية أخلاق الرعية ولو تكلفا وقتيا ، إلى أن توفق لاجتذابهم إلى لغتها فأخلاقها فجنسيتها ، كما فعل الأمويون والعباسيون

---

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ .

والموحدون[1] ، وكما تهتم به الدول المستعمرة الافرنجية فى هذا العهد ، وكما فعل جميع الأعاجم الذين قامت لهم دول فى الإسلامية ، كآل بويه والسلجوقيين[2] والأيوبيين[3] والغوريين والأمراء الجراكسة وآل محمد على[4] ، فإنهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب ، وامتزجوا بهم وصاروا جزءا منهم .

وكذلك المغول والتتار صاروا فرسا وهنودا ، فلم يشذ فى هذا الباب غير المغول

---

(١) وهى التى أسسها فيلسوفها وداعيتها « المهدى » « محمد بن تومرت » (٤٧١ - ٥٢٥هـ . ١٠٧٨ - ١١٣٠م) فى المغرب والأندلس . وهى دولة ذات عقيدة اسلامية سلفية مع اتجاه إلى العقل ورفض لتفريعات الفقهاء وتخريجاتهم الغريبة عن العقل . والتى سادت مجتمع « المرابطين » . ولقد تأسست دولة الموحدين عندما استولى « المهدى » محمد بن تومرت بواسطة رجله القوى وقائد جيوشه « عبد المؤمن بن على » على مراكش سنة ٥٤١هـ ١١٤٦م . . كما انتهت هذه الدولة بسقوط مراكش العاصمة بيد قبيلة « بنى مرين » شبه البدوية سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) . راجع فيليب حتى (تاريخ العرب) « مطول » جـ٣ ص ٦٤٩ - ٦٥٣ . عبد الواحد المراكشى (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) ص ٢٤٥ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

(٢) البويهيون ينحدرون من قبائل الديلم جنوبى بحر قزوين . ولقد سيطروا على خلافة بغداد من سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م .) حتى سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٠م) ثم تبعهم السلاجقة الذين سيطروا على خلافة بغداد ، ودام لهم السلطان موحدا تارة مجزءا تارة أخرى حتى سنة ٥٩١هـ (١١٩٤م) راجع : فيليب حتى (تاريخ العرب) « مطول » جـ٢ ص ٥٦٤ - ٥٧٨ .

(٣) وهى الدولة التى أسسها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) .

(٤) والكواكبى متأثر فى تقييمه هذا لاسرة محمد على بعاملين أساسيين : « أ » تجربته الذاتية فى التعاون مع الخديوى عباس حلمى . وهى التجربة التى أتاحت للكواكبى حرية الحركة والكتابة والتفكير فى وطنه الثانى ، القاهرة ، بعد فراره من نير الأتراك العثمانيين المتسلط على حلب ، موطنه الأول .
« ب » ذلك التقييم الذى قدمه جمال الدين الافغانى لحكم هذه الأسرة والذى تناثرت سطوره وعباراته فى كتاباته وأحاديثه ، حتى شاعت فى ذلك التاريخ . راجع فى موضوع العامل الثانى كتابنا « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى » ص ٩٦ ، ٤٦٦ ..

الأتراك ، أى العثمانيين ، فإنهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم ، فلم يسعوا باستتراكهم[1] كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا ، والمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتألمنوا . ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب ، كما
يستدل عليه من أقوالهم التى تجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال فى حق العرب :

كإطلاقهم على عرب الحجاز « ديلنجى عرب » أى « العرب الشحاذين » .

وإطلاقهم على المصريين «كور فلاح » ، بمعنى « الفلاحين الأجلاف » .

و « عرب جنكنه سى » ، أى « نور العرب » ، و « قبطى عرب » أى « النور المصريين » .

وقولهم عن عرب سوريا : « نه شامك شكرى ونه عربك يوزى » ، أى « دع الشام وسكرياتها ولا تر وجوه العرب » .

وتعبيرهم بلفظة « عرب » عن « الرقيق » وعن كل حيوان أسود .

وقولهم : « بس عرب » أو « عربى قذر » .

---

(١) وذلك قبل ظهور الحركة « الطورانية » فى تركيا ، وهى الحركة التى سعت لتتريك العرب ، والتى كانت نواة الحركة القومية التركية التى ازدهرت بعد انهيار السلطنة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . والحركة الطورانية هذه واضطهادها لسمات العرب القومية كانت من العوامل التى عجلت بثورة العرب ضد الأتراك فى سنة ١٩١٦م . راجع فى ذلك كتابنا (العروبة فى العصر الحديث) ص ٣١٣ وما بعدها ٣٣٩ وما بعدها .

و « عرب عقلى » ، أى « عقل عربى » أى « صغير » ، و « عرب طبيعتى » ، أى « ذوق عربى ، أى فاسد » ، و « عرب جكه سى » أى « حنك عربى ، أى كثير الهزر » .

وقولهم : « بونى يبارسه م عرب أوله يم » أى « إن فعلت هذا أكون من العرب » .

وقولهم : « نرده عرب نر طنبوره » ، أى « أين العرب من الطنبور »[1] .

هذا والعرب لا يقابلونهم على كل ذلك سوى بكلمتين : **الأولى** هى قول العرب فيهم : « ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل ، والترك والجراد » .

والكلمة الثانية : تسميتهم بالأروام ، كناية عن الريبة فى إسلاميتهم وسبب الريبة أن الأتراك لم يخدموا الإسلامية بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم .

وإنهم أتوا الإسلام بالطاعة العمياء للكبراء ، وبخشية الفلك أبى المصائب ، وباحترام مواقد النيران « اوجاقات » ، فزادوا بذلك بلات فى طين الخرافات .

(ب) دور العرب القيادى فى الإحياء الإسلامى[2]

قررت الجمعية فى اجتماع الوداع المنعقد فى رابع أيام العيد بعض أمور ينبغى أن

---

(١) والطنبور آلة موسيقية . والمراد : أين العرب من الفن الموسيقى الخاص بأصحاب الذوق الراقى والشعور المرهف والحس الرقيق .

(٢) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى . ص ٣٣٥ ـ ٣٥٨ « والحديث عن جمعية أم القرى » .

تسر ولا تذاع ، غير أنها رأت أن يلحق منها بهذا السجل ما يأتى :

قرار عدد « ٦ » : إن الجمعية بعد البحث الدقيق والنظر العميق فى أحوال وخصال جميع الأقوام المسلمين الموجودين وخصائص مواقعهم ، والظروف المحيطة بهم ، واستعداداتهم وجدت أن لجزيرة العرب ولأهلها ، **بالنظر إلى السياسة الدينية** مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر فى غيرهم . بناء عليه رأت الجمعية أن حفظ **الحياة الدينية** متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقا ، وأن انتظار ذلك من غيرهم عبث محض [١] .

على أن لبقية الأقوام أيضا خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقاما مهما فى بعض وظائف الجامعة الإسلامية : مثل : إن معاناة حفظ الحياة السياسية ولاسيما الخارجية متعينة على الترك العثمانيين [٢] .

ومراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية يليق أن تناط بالمصريين [٣] .

---

(١) لأن الجمعية إنما تريد « طريق السلف » ، و « الحركات السلفية » سبيلا لحفظ « الحياة الدينية » وتجديدها ، وشبه الجزيرة العربية ، فى ذلك الحين كان عامرا بمد متعاظم للحركة السلفية ، سواء أكان ذلك فى شمالها أم فى الجنوب ، أما الحياة السياسية والحربية والاقتصادية والعلمية فان الكواكبى يرى حذقها فى غير البدو ويراها مرهونة بنهضة بقية العرب ومساعدات غير العرب من المسلمين .

(٢) ويعلق الكواكبى هنا بقوله : « لأنهم متقنون فن « الديبلوماتيك » ، أى المراوغة فى المقال والتلون فى الأحوال » .

(٣) والكواكبى لا يخرج المصريين من العرب ، وإنما هو يميزهم عن العثمانيين ، وكذلك عن العرب العثمانيين فى المشرق لأنهم كانوا يومئذ ، سياسيا ، تحت النير الاستعمارى الانجليزى ، وليسوا ، فى الواقع ، جزءا من الدولة العثمانية التى انعقدت جمعية أم القرى لانقاذ العرب المستظلين برايتها أساسا .

والقيام بمهام الحياة الجندية يناسب أن يتكفل بها الأفغان وتركستان والخزر والقوقاس يمينا ومراكش وإمارات أفريقيا شمالا .

وتدبير حفظ الحياة العلمية والاقتصادية خير من يتولاها إيران وأواسط آسيا والهند ومايليها . وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية . بناء عليه رأت الجمعية من الضرورى أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها . وأهلها ومن يجاريهم[1] ، وإن تبسط لأنظار الأمة ماهى خصائص الجزيرة وأهلها **والعرب عموما** ، وذلك لاجل رفع التعصب السياسى أو الجنسى ، ولأجل إيضاح أسباب **ميل الجمعية للعرب** . فنقول :

١ ـ الجزيرة : هى مشرق النور الإسلامى .
٢ ـ الجزيرة : فيها الكعبة المعظمة .
٣ ـ الجزيرة : فيها المسجد النبوى وفيه الروضة المطهرة .
٤ ـ الجزيرة : أنسب المواقع لأن تكون مركزا للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقا وأقصى أفريقيا غربا .
٥ ـ الجزيرة : أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأديانا ومذاهب .
٦ ـ الجزيرة : أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب .
٧ ـ الجزيرة : أفضل الأراضى لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظرا لفقرها الطبيعى .

---

(١) وهذا دليل على أن فهم الكواكبي للعرب انما كان فهما مرنا وحضاريا ومستنيرا ، لا محصورا فى سكان شبه الجزيرة فقط ، بل فى « العرب عموما » ، كما يقول : أما التركيز على « الجزيرة وما يليها ، وأهلها ومن يجاريهم » فهو إشارة لتخصيصه العرب العثمانيين ، أى عرب المشرق ، بالمزيد من الاهتمام ..

٨ ـ عرب الجزيرة : هم مؤسسو الجامعة الإسلامية[١] لظهور الدين فيهم[٢] .

٩ ـ عرب الجزيرة : مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم .

١٠ ـ عرب الجزيرة : أعلم المسلمين بقواعد الدين لأنهم أعرقهم فيه ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة فى الإيمان .

١١ ـ عرب الجزيرة : أكثر المسلمين حرصا على حفظ الدين وتأييده والفخار به ، خصوصا والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم فى الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا[٣] .

١٢ ـ عرب الجزيرة : لم يزل الدين عندهم حنيفا سلفيا بعيدا عن التشديد والتشويش[٤] .

---

(١) أى الرابطة الروحية والمادية التى تربط أهل الملة الإسلامية .

(٢) وهنا يعلق الكواكبى بقوله : « وكذلك من يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى أفريقيا » .

(٣) وهذا يدل على قصد الكواكبى بـ « العرب » سكان العالم العربى فى القارتين الآسيوية والأفريقية ، من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى .

(٤) الدين الحنيف ، والملة الحنيفة والحنيفية ، وصف يطلق على الإسلام والشريعة التى جاء بها ، وهو من المصطلحات المختلف فى معناها ، وإن يكن أقربها وأشهرها هو : أن الدين الحنيف ، هو المنتسب إلى شريعة إبراهيم ، فلقد كان العرب المتعبدون ببقايا هذه الشريعة ـ قبل الإسلام ـ يسمون : « الحنفاء » ، أى الموحدين .

١٣ ـ عرب الجزيرة : أقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية [١]

١٤ ـ عرب الجزيرة : أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات ، فلم تختل عزتهم .

١٥ ـ عرب الجزيرة : أقدم الأمم مدنية بدليلى : سعة لغتهم ، وسمو حكمتهم وأدبياتهم .

١٦ ـ عرب الجزيرة : أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة و سبيل مقاصدهم ، وأنشطهم على التغرب والسياحات . وذلك لبعدهم عن الترف المذل لأهله .

١٧ ـ عرب الجزيرة : أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم ، فهم يخالطون ولا يختلطون .

١٨ ـ عرب الجزيرة : أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم [٢] .

١٩ ـ العرب عموما : لغتهم أغنى لغات المسلمين فى المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت .

٢٠ ـ العرب : لغتهم هى اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون [٣] .

---

(١) ويعلق الكواكبى هنا بقوله : « وبقوة ذلك لم يزالوا يأخذون خراجا ممن يأخذون باسم هدية » .

(٢) وهنا يعلق الكواكبى بقوله : « هذا سبب عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين »

(٣) وتعداد المسلمين اليوم يقترب من التسعمائة مليون نسمة . يبلغ تعداد العرب منهم نحو مائة وخمسين مليون نسمة .

٢١ ـ العرب : لغتهم هى اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين .

٢٢ ـ العرب : أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية .

٢٣ ـ العرب : أعرق الأمم فى أصول الشورى فى الشئون العمومية [١] .

٢٤ ـ العرب : أهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية [٢] .

٢٥ ـ العرب : من أحرص الأمم على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة [٣] .

---

(١) ويعلق الكواكبى هنا بقوله : « يشهد لهم بذلك القرآن فى قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام حيث قالت تخاطب الملأ ، أى المستشارين الأشراف : (يأيها الملأ افتونى فى أمرى ، ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ، قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) ... » .

(٢) وفى فكر الكواكبى عن الاشتراكية شهادة أصالة لهذا الفكر فى تراثنا العربى الإسلامى الحديث الذى هو امتداد لتراثنا القديم . ويراجع فى ذلك الفصل الذى كتبناه عن فكره الاشتراكى فى أعماله الكاملة .

(٣) ويعلق الكواكبى هنا بقوله : « يكفى برهانا على ذلك مجاملة أهل الجزيرة لسياح الافرنج . ما عدا تلك الفعلة التى اندفع إليها ابن الصابح . ونال عليها بعد عامين رتبة باشا . وترجيح اليهود الهجرة للبلاد العربية . وعدم اشتراك البلاد العثمانية فى حوادث الارمن الأخيرة كالموصل . وماردين وسعرد . ونصيبين . والمدن العربية من ولاية حلب . وأما حوادث لبنان . والشام . وحلب فى القرن السابق . فما كانت متولدة عن تعصب دينى أو جنسى بل عن غرور جماعة من الدروز بالانكليز وجماعة من المسيحيين بنابليون الثالث » . أهـ . واشارة الكواكبى الأخيرة إنما تعنى الفتنة والمذابح التى دارت مابين الدروز والموارنة فى سنة ١٨٦٠م . والتى راح ضحيتها عشرات الآلاف من القتلى والمصابين .

٢٦ ـ العرب : أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقدوة للمسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون عن اتباعهم أخيرا .

فهذه هى الأسباب التى جعلت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب فى الدين وللحزم والعزم عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وأن يحميهم من التعصب السيئ للسياسات والجنسيات . ومن الكبر والأنفة ، ومن التخاذل والانقسام . ومن الانقياد إلى وساوس الأجانب الأضداد ، وإلا فينتابهم الخطر القريب المحدق بهم وتتخاطفهم النسور المحلقة فى سمائهم . والله الموفق . إليه ترجع الأمور .

٣

عبد الحميد بن باديس

(١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م)

(أ) محمد صلى الله عليه وآله وسلم رجل القومية العربية ..

(ب) العرب فى القرآن ..

(جـ) الوحدة العربية .. هل بين العرب وحدة سياسية ؟ ..

(د) مصطفى كمال ...

(هـ) الخلافة ؟ .. أم جماعة المسلمين ؟؟ ..

(١)

محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

رجل القومية العربية [1]

لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه . فعناية المرء بنفسه ـ عقلا وروحا وبدنا ـ لازمة له ليكون ذا أثر نافع فى الناس ، على منازلهم منه فى القرب والبعد . ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية مادام مهملا مشتتا لا يهديه علم ، ولا يمتنه خلق ، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه . وإنما ينفع المجتمع الإنسانى ويؤثر فى سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله فأخذ الأصول الثابتة من الماضى ، وأصلح من شأنه فى الحال ، ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذى وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته .

فمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو رسول الإنسانية ، كانت أول عنايته موجهة إلى قومه وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن أن يتم إنسانيا أو شعبيا إلا بمراعاته : فكان « أول دعوته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعشيرته لقوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » [2] فلما نزلت صعد

---

(١) كتاب آثار ابن باديس . جـ ٢ مجلد ٢ ص ١٧ ـ ٢١ .

(٢) الشعراء : ٢١٤ .

الصفا ثم نادى « يا صباحاه » ـ وكان دعوة الجاهلية إذا دعاها الرجل اجتمعت إليه عشيرته ـ فاجتمعت إليه قريش عن بكرة أبيها ، فعم وخص فقال : **أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أكنتم مصدق ؟** . قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : **فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يابنى كعب ابن لؤى ، يابنى مرة بن لؤى ، ياآل عبد شمس ، ياآل عبد مناف ياآل هاشم ، ياآل عبد المطلب ياصفية ، يافاطمة ، سلونى من مالى ماشئتم ، واعلموا أن أوليائى يوم القيامة المتقون ، فإن تكونوا يوم القيامة ، مع قرابتكم ، فذلك . وإياى ، لا يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم فأصد بوجهى عنكم فتقولون يامحمد فأقول هكذا** ـ وصرف وجهه إلى الشق الآخر ـ **غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها** .. ثم وجه دعوته إلى بقية العرب لقوله تعالى : «لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك»[1] ، وهم عامة العرب ، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج وما يتصل بها من أسواقهم ، ثم عمم دعوته ، لقوله تعالى : «لأنذركم به ومن بلغ»[2] ، فكاتب ملوك الأمم وقد عمت دعوته العرب وتهيأ أمرهم لعموم دخولهم فى الإسلام ، وكان ذلك أيام هدنته مع قريش قبيل فتح مكة . ثم تجد أكثر السور المكية قد وجه فيها الخطاب إلى قريش وإلى العرب ، وعولجت فيه مفاسدهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية وماكان منهم من تحريف وتبديل لملة إبراهيم فكان أول الإصلاح متوجها إليهم ومعنيا بهم حتى ينتشلوا من وهدة جهلهم

---

(١) القصص : ٤٦ .

(٢) الأنعام : ١٩ .

وضلالهم وسوء حالهم وتستنير عقولهم وتتطهر نفوسهم وتستقيم أعمالهم فيصلحوا لتبليغ دين الله وهدى رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للأمم بالقول والعمل .

ثم لأجل أن يشعروا بأن القرآن هو كتاب هداية لهم كلهم ، وأن الرسول لهم كلهم ، أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فعم جميع لهجاتهم ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يخاطبهم بتلك اللهجات وينطق بالكلمات منها ليس من لهجة قريش . **وكان فى هذا ما أشعرهم بوحدتهم بالتفافهم حول مركز واحد ينتهون كلهم إليه ويشتركون فيه . وقد نبه على هذا المعنى قوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون »** [1] فأخبره أن القرآن شرف له ولقومه ـ نزل بلغتهم ونهض بهم من كبوتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهيأهم لهداية الأمم وإنقاذها من الهلاك وقيادتها لعزها وسعادتها ـ وأنهم يسألون عن هذه النعمة . يقول هذا ليعملوا بالقرآن ويعلموا أن شرفه إنما هو للعالمين .

على أن العرب رشحوا لهداية الأمم ، وإن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام . علم هذا فبين أن من تكلم بلسان العرب فهو عربى وإن لم يتحدر من سلالة العرب ، فكان هذا من عنايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رشحوا له . بين هذا فى حديث رواه ابن عساكر فى تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : (جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة

---

(١) الزخرف : ٤٤ .

هذا الرجل «يعنى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ» فما بال هذا «يعنى الفارسى والرومى والحبشى ما يدعوهم إلى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه» فقام إليه معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ فأخذ بتلابيبه «ما على نحره من الثياب» ثم أتى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأخبره بمقالته فقام النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مغضبا يجر رداءه «لما أعجله من الغضب» حتى أتى المسجد ثم نادى : الصلاة جامعة «ليجتمع الناس» ، وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «أيها الناس ، الرب واحد والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى» فقام معاذ فقال : فما تأمرنى بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : «دعه إلى النار» فكان قيس ممن ارتد فى الردة فقتل .

تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد ، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد ، فليس الذى يكون الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة ، وإنما الذى يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد : ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير ، ثم وضعت شاميا وجزائريا ـ مثلا ينطقان باللسان العربى ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب فى ذلك كله ، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة فى توحيد الأمم .

فانظر بعد هذا إلى ما قرره هذا النبي الكريم ، رسول الإنسانية ورجل القومية العربية ، فى الحديث المتقدم فقضى بكلمته تلك على العصبية العنصرية الضيقة المفرقة ، فنبه على تساوى البشر فى أنهم كلهم مخلوقون لله ، فربهم واحد

وأنهم كلهم من عنصر واحد ، فأبوهم آدم واحد ، وذكّر بأخوة دين الإسلام دين الأخوة البشرية والتسامح الإنسانى ، ثم قرر قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع فى تكوين الأمم . **ووضع للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعيا لتتسع دائرتها لجميع الأمم التى رشحت لدعوتها إلى الإسلام بلغة الإسلام** . وقد كان ذلك من أعظم ما سهل نشر الهداية الإسلامية وتقارب عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها وتعاونها ذلك التمدن الإسلامى العربى الذى أنار العالم شرقا وغربا ، وكان السبب فى نهضة الغرب والأساس لمدنية اليوم . وبذلك أيضا كانت الأمة العربية اليوم تجاوز السبعين مليونا عدا لا تخلو منهم قارة من قارات المعمورة .

كوّن **رسول الإنسانية ورجل القومية العربية** أمته هذا التكوين المحكم العظيم . ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل . فلم يكونها لتستولى على الأمم . ولكن لتنقذهم من سلطة المتسولين باسم الملك أو باسم الدين . ولم يكونها لتستخدم الأمم فى مصالحها ، ولكن لتخدم الأمم فى مصالحهم . ولم يكونها لتدوس كرامة الأمم وشرفها ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد . إلى درجات العز والصلاح والكرامة وبالجملة : لم يكونهم لأنفسهم بل كونهم للبشرية جمعاء . فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم غوستاف لوبون : لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب نعم لأنهم فتحوا فتح هداية لا فتح استعمار . وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد .

هذا هو **رسول الإنسانية ورجل القومية العربية** الذى كان له الفضل ــ بإذن

الله ـ عليهما ، ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين له بهذا الفضل ويتغنى العرب غير المسلمين بذكره . وكم دبجت أقلام الكتاب والشعراء من إخواننا نصارى العرب بالشرق من حلل البيان فى الثناء عليه والإشادة بفضله .

هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذى نهتدى بهديه ، ونخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه ، ونحيا لها ونموت عليها ، وإن جهل الجاهلون ... وخدع المخدوعون ... واضطرب المضطربون ...

وإلى أعتابه الكريمة نتقدم بهذه الكلمة فى مولده الشريف ، الذى هو عيد **الإسلام والعروبة والإنسانية كلها** . عاد الله فيه باللطف والرحمة على الجميع .

(ب)
العـرب فى القـــرآن (1)

ـ ١ ـ

حق على كل من يدين بالإسلام ويهتدى بهدى القرآن أن يعتنى بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام ، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام ، ولعناية القرآن بهم ، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض . فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام ، فلأن العرب هيئوا تاريخيا لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية ، ولأن الله الحكم العدل الذى يضع الأشياء فى مواضعها بحكمة ، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم فى شريعته ، ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة ، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال . ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس .

وأما عناية القرآن بالعرب فلأجل تربيتهم ، لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة فيجب أن يأخذوا حظهم كاملا من التربية قبل الناس كلهم ، ولهذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية فى مراميها البعيدة إصلاحا لحال العرب وتطهيرا لمجتمعهم وإثارة لمعانى العزة والشرف فى نفوسهم ، ومن هذا الباب الآيات التى

---

(٢) كتاب آثار ابن باديس . جـ ٢ مجلد ٢ ص ٥٩ ـ ٧٦ .

يذكر بها العرب أن هذا القرآن أنزل بلسانهم مثل : « إنا جعلناه قرآنا عربيا »[1] « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »[2] والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب . ومن أول القصد إلى العرب والعناية بلسانهم وتنبيههم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم دون جميع الألسنة ، جلبا لهم حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم .

إن العرب قوم يعتزون بقوميتهم وهم قوم ذوو عزة وإباء خصوصا فى الجاهلية فكان من حكمة القرآن أن يجلب نافرهم ويقرب بعيدهم بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم .

ومن هذا الباب توسعة الله فى قراءة القرآن على سبعة أحرف وهى اللهجات التى تجتمع على صميم العربية وتختلف فى غير ذلك . وسع عليهم فى ذلك لتشعر كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها . لأن اللسان الذى نزل به لسانها . وهذا هو ما يقصده القرآن ، ومن هذا الباب أيضا إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »[3] الآية .

فمن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبى فى شىء لا فى لغتها ولا فى شىء من مقوماتها ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف ويحدثها كثيراً عن أمة اليهود التى لا يناديها إلا بيابنى إسرائيل تذكيرا لها بجدها الذى هو مناط فخرها ، كل ذلك لأنها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلو ــ ويذكرها بالذكر ــ

---

(١) الزخرف : ٣ .

(١) يوسف : ٢ .

(٣) التوبة : ١٢٨ .

وهو فى لسانها الشهرة الطائرة والثناء المستفيض يقول تعالى لنبيه وهو يعنى القرآن : «فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك »[1] . والأنبياء لم يبعثوا إلا فى مناسب الشرف ومنابع القوة ومنابت العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها ، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين . **فقوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » يعنى أنه شرف لكم ، وقومه هم العرب لا محالة .**

ويقول بعد ذلك : « وسوف تسئلون » ليشعرهم أن عليهم من الواجبات فى مقابلة هذا الشرف الذى أعطوه ما ليس على غيرهم ، ولا شك أن ثمن المجد غال .

وهذا الشرط الذى ذكره الله وذكّر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ .

لأن الأمة التى لا تؤدى ثمن المجد لا تحافظ عليه . ثم هى أمة لا يعتمد عليها فى النهوض بنفسها ولا بغيرها . وإنما ذكّرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء الشرف الإنسانى فى نفوسها ، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم ، وما ذكر القرآن العرب بتكريم بنى آدم وخلقهم فى أحسن تقويم إلا ليعاملوهم على هذه القاعدة التى وضعها الخالق ، وإن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس ليستذلوا من هذا النوع ما أعز الله ويهينوا منه ما كرم الله .

---

(١) الزخرف : ٤٤ .

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف فى نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر. وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة فى اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل. وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذى هيأهم لذلك ولو كانوا أذلاء لما تهيئوا لذلك العمل العظيم.

وانظروا واعتبروا ذلك بحال أمة هى أقرب أمة إلى العرب وهى أمة إسرائيل فإنها لم تكن مهيأة لإنقاذ غيرها. وإنما هيئت لإنقاذ نفسها فقط لأن مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى تلك الدرجة العليا: ولذلك عانى موسى معها ما عانى مما قصه القرآن علينا لنعتبر به فى الحكم على الأمم.

ولا حاجة إلى التطويل فى الحديث عن بنى إسرائيل فإن القرآن قد فصل لنا شئونهم تفصيلا، وإنما أنبهكم على هذا الفارق الجوهرى بين الأمتين.

وقد تقولون إن بنى إسرائيل اختارهم الله وفضلهم على العالمين. والجواب الذى يشهد له الواقع أنه اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون وليكونوا مظهرا للنبوة والدين فى أول أطوارهما وأضيق أدوارهما وهذا هو الواقع **فإن الأمة العربية استطاعة أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله**، وأما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم وإنما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق، وما نهضوا بأنفسهم إلا بعد موسى بزمن، مع اتصال حبل النبوة فيهم ومغاداة الوحى الإلهى ومُرَاوَحَته لهم.

فالأمتان العربية والإسرائيلية متمايزتان بحديث القرآن عنهما، وإذا تلمسنا

الحكمة المقصودة من اختيار الله لبنى إسرائيل ، مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة ، وجدنا تلك الحكمة فى القرآن مجلوة فى أبلغ بيان ، فى قوله تعالى : «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئـمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون» [1] .

فالسر المتجلى من هذه الآية هو أن الله أراد بما صنع لبنى إسرائيل وبما قال لهم أن يعلم هذا العالم الإنسانى من سنن الله فى كونه مالم يكن يعلم، وهو إخراج الضد من الضد وإخراج الحى من الميت وإنقاذ الأمة الضعيفة التى لا تملك شيئا من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية من العباد الأقوياء المتألهين ، فهو مثل عملى ضربه الله لخلاص أضعف الضعفاء من مخالب أقوى الأقوياء ، وجعل المستضعفين أئـمة وارثين ، وسادة غالبين ، والتمكين لهم فى الأرض ، ورؤية الأقوياء المستعلين فى الأرض عاقبة باطلهم لكيلا ييأس المستضعفون فى الأرض من روح الله ، وقد قال موسى لبنى إسرائيل تمكينا لهذا المعنى فى نفوسهم : «عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون» [2] .

وإلى هذا المثل العملى تشير الآية : «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على

---

(١) القصص : ٥ .

(٢) الأعراف : ١٢٩ .

الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »[1] .

وأما العرب فإنهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم من شرف متأصل واستعداد كامل وصفات مهيئة ، ولهذا كان منبع الرسالة بمكة وشأنها عند العرب هو شأنها ، فهم مجمعون على تخليصها ولأنها فى وسط الجزيرة وصميمها ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية فى الطباع والألسنة تلك المؤثرات التى يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم . وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة فى الطباع وعجمة فى الألسنة ، جاءت من الاختلاط بالأجنبى ، ولا أضر على مقومات الأمم من العروق الدساسة . فاليمن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم ، والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام ، والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية . فكانت هذه الأطراف تنطوى على عروبة مزعزعة المقومات ولم يحافظ على الطبع العربى الصميم إلا صميم الجزيرة ، ومنه مكة التى ظهر فيها الإسلام ، وهذا الوسط وإن كان عريقا فى الصفات التى تسمى العصر لأجلها جاهليا ، ولكنه بعيد عن الذل الذى يقتل العزة والشرف من النفوس والجاهل يمكن أن تعلمه والجافى يمكن أن تهذبه ، ولكن الذليل الذى نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس فى نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال .

هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة .

---

(١) البقرة : ٢٤٣ .

وشيء آخر يرتبط بهذا وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة ، ولا عجب فى هذا ، فاللسان الذى اتسع للوحى الإلهى لا يضيق أبدا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها .

العرب في القرآن

ـ ٢ ـ

أيها الإخوان :

جعلنا عنوان الخطاب « العرب فى القرآن » وقلنا فى أول كلمة منه إن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام . فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة .

والعرب مظلومون فى التاريخ ، فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور .

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة ، ويزيد هذا التخيل رسوخا ما هو مستفيض فى آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم .

والحقيقة التى يجب أن أذيعها فى هذا الموقف هى أن القرآن وحده هو الذى أنصف العرب . والناس بعد نزول القرآن قصروا فى نظرتهم التاريخية إلى العرب فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد . والتاريخ يجب ألا ينظر من جهة واحدة

بل ينظر من جهات متعددة وفى العرب نواح تجتبى ونواح تجتنب ، وجهات تذم وتقبح وجهات يثنى عليها وتمدح . وهذه هى طريقة القرآن بعينها . فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل . وينوه بصفاتهم الإنسانية التى شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات .

ولنذكر عادا فهى أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب ونعى عليها الصفات الذميمة التى تنشأ عن القوة قال تعالى : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة »[1] .

فالنظرة التاريخية المجردة فى هذه الآية وفيما ورد فى موضوعها ترينا أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أمة من أمم الأرض فى زمنها حتى إن الله جل شأنه لم يتحد قولهم : « من أشد منا قوة ؟ » إلا بقوته الإلهية التى يذعن إليها كل مخلوق ، ولو كانت فى أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها . وأن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهى أمة معتدة بقوتها وعظمتها .

ومن هذه الآية وحدها نستفيد أن عادا كانت أشد الأمم قوة ، وأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الأرض ، وأن تلك المؤهلات فيها وفى غيرها من شعوب العرب هى التى أعدتهم للنهوض بالرسالة الإلهية .

---

(١) فصلت : ١٥ .

وإن القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات وإنما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغى ومحادة الله ، بدليل قوله لهذه الأمة : «ويزدكم قوة إلى قوتكم»[1] . فهو يضمن لهم إن هم آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكينا وبقاء ، ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعى إليها والمنفر من الضعف وإنما شرع القرآن بجنب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل .

وكذلك قوله تعالى : «أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون»[2] ، فإن هذه الآية ـ زيادة عن إفادتها لمعنى ما قدمناه ـ تكشف لنا نواحى من تاريخ هذه الأمة العربية ومبلغ مدنيتها وتعميرها فهى تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية ، وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة فى الأمة ، ومأخذ هذا من قوله : «بكل ريع» .

والآية فى قوله (آية) هى بناء شامخ يدل على قوتهم أو هى آية هادية للسائرين ، وهى على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم ومازالت عظمة البناء تدل على عظمة البانى .

ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذى هو مظهر القوة ، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ فمحط الإنكار قوله : «تعبثون» ،

---

(١) هود : ٥٢ .

(٢) الشعراء : ١٢٨ .

ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل .

والمصانع ، يقول المفسرون إنها مجارى المياه أو هى القصور ، وعلى القولين فهى دليل على معرفتهم بفن التعمير علما وعملا وبلوغهم فيه مبلغا عظيما فهى من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه .

•

ولكن ليت شعرى ما الذى صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظى الاشتقاقى ؟ والذى أفهمه ولا أعدل عنه هو ان المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل من العمل ، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التى تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران . وهل كثير على أمة توصف بما وصفت به فى الآية ، أن تكون لها مصانع بمعناها العرفى عندنا ؟ بلى ! وإن المصانع لأول لازم من لوازم العمران وأول نتيجة من نتائجه .

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات ! والحق أن السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار والقرآن الذى يحث على السير فى الأرض والنظر فى آثار الأمم الخالية حقيق بأن يحشر السائحين فى زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين ، فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود .

ولا يقولن قائل : إذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يقبحها لهم وينكرها

عليهم ؟ فانه لم ينكرها عليهم لذاتها وانما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها . فان المصانع التى تشيد على القسوة . والقسوة لا تحمد فى مبدأ ولا غاية . وأى عاقل يرتاب فى أن المصانع اليوم هى أدوات عذاب لا رحمة ووسائل تدمير لا تعمير؟ فهل يحمدها على عمومها وأن دلائل حضارة ومدنية كانت ؟ .

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة .

((وإذا بطشتم بطشتم جبارين)) لابد لكل أمة تسود وتقوى من بطش ، ولكن البطش فيه ما هو حق بأن يكون انتصافا وقصاصا وإقامة لقسطاس العدل بين الناس ، وفيه ما هو بطش الجبارين . والجبار هو الذى يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك ، فبطشة إنما يكون انتقاما لكبريائه وجبروته وإرضاء لظلمه وعتوه وتنفيذا لارادته الجائرة التى لا تبنى على شورى وإنما تبنى على التشهى وهوى النفس ، لذلك لم ينقم منهم البطش لأنه بطش ، وإنما نقم منهم بطش الجبابرة الذى كله ظلم .

وفى القرآن ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب . وكالعلاقة لحضارة عاد بعينها . وهى حكاية عاد إرم ذات العماد

فهذا الوصف البليغ الذى نقرؤه فى سورة الفجر صريح بألفاظه ومعانيه فى أنه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها . فالعماد لا تكون إلا فى القصور والأبنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم . وقد قال تعالى وهو العالم بكل شىء إنه « لم يخلق مثلها فى البلاد »[1] . ومدينة هذا وصفها لا تشيدها الا أمة لا نظير لها فى

---

(١) الفجر : ٨

القوة وآثار الحضارة يتبع بعضها فى الضخامة والعظم ، والوصف القرآنى لها وإن سيق للاتعاظ بعاقبتهم يدل الباحث التاريخى على أنهم بلغوا فى الحضارة غاية لا وراءها ، وهم أمة عربية . فهذه المدينة شيدت فى جزيرة العرب لا محالة . وإن الأقرب فى التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية فى قوله تعالى : « ألم تر » علمية لأن التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين ولمن لم تتيسر له ، ولو ائتمرت الأمم الإسلامية بأوامر القرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها ، ولو فعلوا لأمكن أن يعثروا على آثار هذه المدينة أرض عاد وهى معروفة ، ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية وبين العلم والاتعاظ ، وإننا لا نعبأ فى مقام البحث العلمى بما حف هذه الحكاية من أساطير. ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حينما تعرض لنقض تلك الأساطير.

العرب فى القرآن

-٣-

وأمة أخرى من الأمم العربية وهى ثمود ، وهى أمة عربية نلعنها بلعن القرآن لها. ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة. فصالح رسول هذه الأمة يقول فى دعوتها إلى الله وتعريفها بنعمه : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)[1] . فأمة أية أمة لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير ، وهى كثيرة ، ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية .

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودى عدة آيات بليغة الوصف ،ولكن أبلغها وصفا وأدقها تصويرا قوله تعالى : « أتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين»[2]

أما المغزى الذى سيقت هذه الآية لأجله فهو النعى عليهم ، كيف يستعينون بنعم الله ، التى يسرها لهم ، على الكفر به ، وإنذارهم أن الكفر بها وبمؤتيها سيكون سببا فى زوالها ، وفى ضمن هذا عرفنا حالتهم التى كانوا عليها فى تعمير

---

(١) هود : ٦١ .

(٢) الشعراء : ١٤٩ .

الأرض ، وهى حالة أمة بلغت النهاية فى الحضارة المادية وفنونها من زرع الأرض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة وتقسيم المياه على تلك الغروس إلى ما يستلزمه كل ذلك من علم بحال الأرض وطبائعها وأحوال الأشجار المغترسة وطبائعها وأحوال الفصول الزمنية وأحوال الجو وأحوال التلقيح والآبار والجنى وعلم بأصناف التمتع من مناظر ومجالس ومقامات ومآكل . ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الأيدى السارقة ، وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم لأجل تذكيرهم والتذكير بهم ، وقد ذكرهم القرآن فى مواضع بإتقانهم لنحت الحجر ، والشجر والحجر آيتا الحضارة المبصرتان ، ومن يعرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت إلا على نحت الحجر وغرس الشجر .

وإن نحت الحجر ليستدعى حاسة فنية ويستدعى مع ذلك قوة بدنية ، وقد نعتهم القرآن فى نحتهم للحجر بحالة ملابسة فوصفهم مرة بأنهم آمنون ومرة بأنهم فارهون ، والفاره هو الذى يعمل بنشاط وخفة ولا يأتيه ذلك إلا من خبرته بما يعمل وعلمه بدقائقه واعتياده له . ومعنى هذا أن أصول هذه الصناعة التى اشتهر بها المصريون القدماء والرومان قد رسخت فيهم ، ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلت لكم فى طالعة الخطاب .

هاتان أمتان من الأمم العربية أثبت القرآن حالها فكان لنا مصدرا تاريخيا معصوما فى إثبات حضارة الشعوب العربية التى بزت فيها الأمم .

ولننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى الجزيرة وهى اليمن التى عرفها اليونان وغيرهم وعرفوا المدنيات التى قامت فيها فسموها بالعربية السعيدة ، وإننا

إذا انتقلنا إلى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القُدْموس[1] والمجد الباذخ والماضى الزاهر لهذه الأمة التى نفتخر بالانتساب إليها ونباهى الأمم بمدنياتها بالحق والبرهان . وإننا فى حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن .

قال تعالى : « لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق »[2] .

ليس المقام مقام تبسط فى وجوه البلاغة المعجزة التى تنطوى عليها هذه الآيات ، فقد استوعبت تاريخ أمة فى سطور . وصورت لنا أطوارا اجتماعية كاملة فى جمل قليلة أبدع تصوير ، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة فى جمل جامعة لا أظن غير اللسان العربى يتسع لحملها كقوله : « قرى ظاهرة » وكقوله : « وقدرنا فيها السير » . وكقوله : « باعد بين أسفارنا » ، حتى إذا وصل القارئ إلى مصير هذه الأمة التى سمع ما هاله من وصفها واجهه قوله تعالى : « فجعلناهم أحاديث » ، وأدركه الغرق فى لجج البلاغة الزاخرة .

اللهم إن السلامة فى الساحل ، وإننا لا نعدو موضوعنا تصور حضارة

---

(١) القدموس . أى القديم .
(٢) سبأ : ١٥ ـ ١٩ .

العرب مما يحكيه القرآن عنها فى معرض بيان مصائرها حين كفرت بأنعم الله وبرسله .

الآيات صريحة فى أن مدنية سبأ كانت مدنية زاهرة مستكملة الأدوات ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته وعلم كما نعلم أن مدن سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال . ويمين من ؟ وشمال من ؟ إنه ولا شك يمين السائر فى تلك المدن أو الأراضى وشماله ، ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعا لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها . والاكتشافات الأثرية اليوم التى كان لليمن حظ ضئيل منها ــ وإن كان على غير يد أهلها ــ تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها فى تعمير الأرض ، وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوى .. والعمل اليدوى ، بل تتوقف على علوم فكرية ، منها الهندسة ، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة ، وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضا ، فهى مترابطة متماسكة متلاحمة ــ فما يكون السبئيون بلغوا فى الهندسة مبلغا أقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا فى غيره من علوم العمران ذلك المبلغ .

ولكن لما كفروا بأنعم الله واستعملوها فى ما يسخطه سلط الله عليهم من الأسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضاراتهم وذلك قوله تعالى : «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ... الخ» .

ويقول فى وصف عمرانهم : «وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة» ، يعنى أن عمرانهم لم يكن محدودا ، وإنما كان متصلا بعضه ببعض فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها فلا يكاد المسافر يبرح

مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى ، ولا يكون هذا إلا إذا كان العمران متصلا . وهذا هو معنى الظهور فى الآية فهو ظهور خاص . وتقدير السير هو أن يكون منظما، ومن لوازمه أن تكون الأوقات مضبوطة بالساعات والطرق محدودة بالعلامات التى تضبط المسافة ، وقوله تعالى : «سيروا فيها ليالى وأياما آمنين» يرشدنا إلى امتداد العمران مسافة الليالى والأيام وأن الأمن كان مادا رواقه على هذا العمران . ولا يتم العمران إلا بالأمن ، ولكن فات القوم أن يحصنوا هذه المدنية الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة والعدل وكل مدنية لم تحصن بهؤلاء فمصيرها إلى الخراب ، والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها ، فالقرآن يذكرنا كثيراً من مصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف فى الآخرين كما لم تتخلف فى الأولين .

وأما قوله تعالى : «قالوا ربنا باعد بين أسفارنا» فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره ، وأى عاقل يطلب بعد الأسفار ؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وإنما هو نتيجة أعمالهم ، ومن عمل عملا يفضى إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله ، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة .

ومازال الناس ــ على عاميتهم ــ يقولون فيمن عمل عملا يستحق عليه الضرب أو القتل : إنه يقول اقتلنى أو اضربنى ، وهو لم يقل ذلك وإنما أعماله هى التى تدعو إلى ذلك ، فالمعنى أن أعمالهم هى التى طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم والدال بالمدلول ، فكأن ألسنتهم قالت ذلك

ويؤيد هذا فى القرآن كثير ، ومنه قوله تعالى : «سيجزيهم» وصفهم لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به ولا يقولن قائل : القول يقع مدلوله فى القلب حالا ولا كذلك العمل فقد يتأخر جزاؤه طويلا ـ لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل ، وكل عاقل يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء ، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه .

أما المباعدة بين أسفارهم التى اقتضاها كفرهم بأنعم الله ، فهى كناية عن محو العمران وخراب القرى التى كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها إلا القليل فيباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير .

وأين العمران المتلاحم الذى يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدد المشاهد من الخراب الذى يوحش النفس فيزيد المسافة بعدا على بعد .

وملكة سبأ وعرشها العظيم وملكها ، وما قصه القرآن من نبئها أعظم وأروع . فمخبر سليمان ـ عليه السلام ـ يقول عنها : «وأُوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم»[1] وما وصف عرش ملكة سبأ بالعظيم عند سليمان نبى الله الذى سخر له الجن والريح ـ إلا وهو فى نفسه عظيم .

أيها الإخوان :

إن فى قصة ملكة سبأ فى القرآن لدرسا تتفجر منه ينابيع العظمة والعبرة ورشادا إلى ما تقوم به الأمم ، ولولا أن هذا الخطاب قد طال لآثرنا منها العبر وأثرنا بها العبر . ولكن لا يفوتنا أن نلخص منها إشارات وما عليكم بعد ذلك

---

(١) النمل : ٢٣ .

إلا أن تتدبروا الآية ففيها نظام الشورى صريح لا مواربة فيه ، وفيها ان بناء الأمم إنما يعتمد على القوة ، وقد تكون مؤنثة فلابد أن يسندها بأس شديد . وفيها أن الملأ هم الأشراف وأهل الرأى وهم أعضاء المجالس الشورية ، ولعلهم كانوا بالانتخاب العرفى ، وهو نظام مدنى ، ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعى أو الوراثى ، وهو لا يكون إلا فى الأمم التى شبت عن طوق البداوة .

ولعل كاتبا من كتابنا يتناول هذا البحث ، بحث الانتخاب فى الإسلام ، ولئن استرشد القرآن فى هذا الباب ليرشدنه .

هذه مدنيات ضخمة غبرت فى هذه الأمة التى أهلها الله لحمل الرسالة الإلهية إلى العالم . وهذه بعض خصائص هذه الأمة التى هيأها الله للنهوض بالعالم وإنقاذه من شرور الوثنية وبلياتها ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها . وإن القومية العربية موضوع مترامى الأطراف . وليس من الممكن الإحاطة به فى مثل هذا الخطاب . وحسبى أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التى هى خدمة للإسلام والقرآن ، وعليكم السلام .

ـ جـ ـ

الوحـــدة الـعـربيـة

هـل بـين الـعـرب وحـدة سياسيـة ؟ (1)

إذا قلنا العرب فإننا نعني هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقا إلى المحيط الاطلانطيق غربا ، والتي فاقت سبعين مليونا عدا ، تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقدارا عظيما من دمها ، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة .

هذه الأمة العربية تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ رابطة الجنس ورابطة التاريخ ، ورابطة الألم ، ورابطة الأمل ، فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها ولا محالة . ولكن هل بينها وحدة سياسية ؟

الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها فى علاقاتها مع غيرها من الأمم ، وتتعاقد على تنفيذها ، والدفاع عنها يدا واحدة . فهى مقتدرة على الدفاع عنها كلما كانت حرة فى وضعها . وأما الأمم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمرا لنفسها ، فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها ؟ . وهى لم تستطع أن تعتمد على نفسها فى داخليتها فكيف يعتمد عليها فى خارجيتها ؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول .

---

(1) كتاب آثار ابن باديس . جـ ١ مجلد ٢ ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ .

وإذا نظرنا إلى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة فإنا نجد منها شعوبا مستقلة استقلالا حقيقيا فهذه تمكن بينها الوحدة السياسية وتجب . وقد وقعت فى هذه الأيام ـ والحمد لله ـ فعلا بين المملكة السعودية والعراق واليمن ، ومن المنتظر انضمام مصر والشام إليهم يوم يتم استقلالها . ثم نجد شعوبا أخرى وهى شعوب الشمال الافريقى المصابة بالاستعمار فهذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون . ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها فى دائرة وضعيتها الخاصة على ما يناسبها من الخطط السياسية التى تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة ، مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها ، ونحن نعلم أن الواقع اليوم فى شمالنا الأفريقى العربى هو هذا بعينه ، فنقول ـ بكل صدق وصراحة ـ إن كل شعب من شعوب هذا الشمال مستقل تمام الاستقلال بخططه فى سياسته ، لا نعرف هيئة منهم تتصل بهيئة **مع عمل الجميع على تغذية الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة** . هذا رأينا فى الوحدة السياسية بين شعوب العرب . ونحن نعتقد أنه هو رأى جميع إخواننا العاملين فى هذا الشمال .

ـ د ـ

مصطفى كمال

رحمه الله[1]

في السابع عشر من رمضان المعظم[2] ختمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث ، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق ، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب ، فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقا جديدا ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليبولي في الدردنيل وبطل سقاريا في الأناضول وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو .

وإذا قلنا بطل غاليبولي فقد قلنا قاهر الانكليز أعظم دولة بحرية الذي هزمها في الحرب الكبرى بشر هزيمة لم تعرفها في تاريخها الطويل ، وإذا قلنا بطل سقاريا فقد قلنا قاهر الانجليز وحلفائهم من يونان وطليان وافرنسيين بعد الحرب الكبرى ومجليهم عن أرض تركيا بعد احتلال عاصمتها والتهام أطرافها وشواطئها .

وإذا قلنا باعث تركيا فقد قلنا باعث الشرق الإسلامي كله ، فمنزلة تركيا التي تبوأتها من قلب العالم الإسلامي في قرون عديدة هي منزلتها ، فلا عجب أن يكون بعثه مرتبطا ببعثها . لقد كانت تركيا قبل الحرب الكبرى هي جبهة صراع

---

(١) كتاب آثار ابن باديس جـ ٢ مجلد ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٧ .

(٢) سنة ١٣٥٧هـ . الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨م .

الشرق إزاء هجمات الغرب ، ومرمى قذائف الشره الاستعماري والتعصب النصراني من دول الغرب . فلما انتهت الحرب وخرجت تركيا منها مهشمة مفككة تناولت الدول الغربية أمم الشرق الإسلامي تمتلكها تحت أسماء استعمارية ملطفة ، واحتلت تركيا نفسها واحتلت عاصمة الخلافة وأصبح الخليفة طوع يدها وتحت تصرفها ، وقال المارشال اللنبي ـ وقد دخل القدس ـ : (اليوم انتهت الحروب الصليبية) ، فلو لم يخلق الله المعجزة على يد كمال لذهبت تركيا وذهب الشرق الإسلامي معها ، لكن كمالا الذى جمع تلك الفلول المبعثرة فالتف به إخوانه من أبناء تركيا البررة . ونفخ من روحه فى أرض الأناضول حيث الأرومة التركية الكريمة وغيل[1] ذلك الشعب النبيل **وقاوم ذلك الخليفة الأسير وحكومته المتداعية ، وشيوخه الدجالين من الداخل** ، وقهر دول الغرب وفى مقدمتها انكلترا من الخارج ، لكن كمالا هذا أوقف الغرب المغير عند حده وكبح من جماحه وكسر من غلوائه ، وبعث فى الشرق الإسلامي أمله وضرب له المثل العالى فى المقاومة والتضحية فنهض يكافح ويجاهد . فلم يكن مصطفى محيي تركيا وحدها بل محيى الشرق الإسلامي كله . وبهذا غير مجرى التاريخ ووضع للشرق الإسلامي أساس تكوين جديد ، فكان بحق ـ كما قلنا ـ من أعظم عباقرة الشرق العظام الذين أثروا فى دين البشرية ودنياها من أقدم عصور التاريخ .

إن الإحاطة بنواحي البحث فى شخصية أتاتورك (أبى الترك) مما يقصر عنه الباع ، ويضيق عنه المجال ، **ولكنى أرى من المناسب أو من الواجب أن أقول**

---

(١) الغيل ـ هنا ـ معناها : العرين .

كلمة فى موقفه إزاء الإسلام . فهذه هى الناحية الوحيدة من نواحى عظمة مصطفى أتاتورك التى ينقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفا ، ويكاد يولى مصطفى فى موقفه هذا الملامة كلها حتى يعرف المسئولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقف ، فمن هم هؤلاء المسئولون ؟ ...

المسئولون هم الذين كانوا يمثلون الإسلام وينطقون باسمه ، ويتولون أمر الناس بنفوذه ، ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به .

هؤلاء هم خليفة المسلمين وشيخ إسلام المسلمين ومن معه من علماء الدين وشيوخ الطرق المتصوفون ، والأمم الإسلامية التى كانت تعد السلطان العثمانى خليفة لها .

أما خليفة المسلمين فيجلس فى قصره تحت سلطة الانجليز المحتلين لعاصمته ساكتا ساكنا ، مستغفرا الله ، بل متحركا فى يدهم تحرك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول ، ناطقا بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه ، الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين ...

وأما شيخ الإسلام وعلماؤه فيكتبون للخليفة منشورا يمضيه باسمه ويوزع على الناس بإذنه ، وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه يبيح فيه دم مصطفى كمال ويعلن خيانته ويضمن السعادة لمن يقتله .

وأما شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنومون فقد كانوا أعوانا للانجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم . يوزعون ذلك المنشور ويثيرون الناس ضد المجاهدين .

وأما الأمم الإسلامية التى كانت تعدالسلطان العثمانى خليفة لها فمنها ـ إلا قليلا ـ من كانوا فى بيعته فانتقضوا عليه ثم كانوا فى صف أعدائهم وأعدائه ، ومنها من جاءت مع مستعبديها حاملة السلاح على المسلمين شاهرة له فى وجه خليفتهم .

فأين هو الإسلام فى هذه (الكليتيات)[1] كلها ؟ وأين يبصره مصطفى الثائر المحروب ، والمجاهد الموتور منها ؟ .

لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة ، ولكنه لم يثرعلى الإسلام ، وإنما ثارعلى هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين . فألغى الخلافة الزائفة ، وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم ، فرفض مجلة الأحكام[2] ، واقتلع شجرة زقوم الطرقية من جذورها ، وقال للأمم الإسلامية عليكم أنفسكم وعلىّ نفسى ، لا خير لى فى الاتصال بكم ما دمتم على ما أنتم عليه ، فكونوا أنفسكم ثم تعالوا نتعاهد ونتعاون كما تتعاهد وتتعاون الأمم ذوات السيادة والسلطان .

أما الإسلام فقد ترجم القرآن لأمته التركية بلغتها لتأخذ الإسلام من معدنه ، وتستقيه من نبعه . ومكنها من إقامة شعائره فكانت مظاهر الإسلام فى مساجده ، ومواسمه تتزايد فى الظهور عاما بعد عام ، حتى كان المظهر الإسلامى العظيم يوم دفنه والصلاة عليه . تغمده الله برحمته .

لسنا نبرر صنيعه فى رفض مجلة الأحكام ، ولكننا نريد أن يذكر الناس أن

---

(١) العمائم ا.

(٢) هى مجلة الأحكام العدلية ، وفيها المجموعة القانونية العثمانية المأخوذة عن مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

تلك المجلة المبنية على مشهور وراجح مذهب الحنفية ماكانت تسع حاجة أمة من الأمم فى كل عصر ، لأن الذى يسع البشرية كلها فى جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه ، لا مذهب واحد أو جملة مذاهب محصورة كائنا ماكان وكائنة ماكانت ، ونريد أن يذكر الناس أيضا أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ماعرفوه من صغرهم من مذهبهم وماكانت حواصلهم الضيقة لتتسع لأكثر من ذلك . كما يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف مازالت إلى اليوم الأحكام الشرعية ـ غير الشخصية ـ معطلة فيها . ومازال (كود) نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم . ومازال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية فى القضاء ـ غير المذهب الحنفى ـ مهجورا كذلك إلا قليلا جدا .

نعم ! إن مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية ، وليس مسئولا فى ذلك وحده ، وفى إمكانهم أن يسترجعوها متى شاءوا وكيفما شاءوا ولكنه رجّع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض . وذلك مالا يسهل استرجاعه لو ضاع ، وهو وحده كان مبعثه ومصدره ، ثم إخوانه المخلصون . فأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية إلى (كود) نابوليون فماذا أعطوا أمتهم ؟ وماذا قال علماؤهم ؟ .

فرحم الله مصطفى ورجح ميزان حسناته فى الموازين ، وتقبل إحسانه فى المحسنين .

وإلى الأمة التركية الشقيقة الكريمة الماجدة ، التى لنا فيها حفدة وأخوال والتى تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والجوار ، والتى تذكر الجزائر أيامها

بالجميل ، وترى شخصها دائما ماثلا فيما تركت لها من مساجد ومعاهد للدين الشريف ، والشرع الجليل ، إلى تركيا العزيزة نرفع تعازى الجزائر كلها مشاركين لها فى مصابها ، راجين لها الخلف الصالح من أبنائها ، ومزيد التقدم فى حاضرها ومستقبلها .

وإلى هذا فنحن نهنيها برئيس جمهوريتها الجديد عصمت اينونو ، بطل (إينونو) ومؤتمر لوزان وثنى مصطفى كمال . وإن فى إجماعها على انتخابه لدليلا على ما بلغته تركيا الكريمة من الرشد فى الحياة الذى تبلغ به ـ إن شاء الله ـ من السعادة والكمال ما يناسب مجدها القدموس ، وتاريخها الحافل بأعاظم الرجال ، وجلائل الأعمال .

ـ هـ ـ

الخلافة أم جماعة المسلمين[1] ؟

إن الخلافة هي المنصب الإسلامي الأعلى الذي يقوم على تنفيذ الشرع الإسلامي وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوي العلم والخبرة والنظر، وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع .

ولقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدر الإسلام وزمنا بعده ـ على فرقة واضطراب ـ ثم قضت الضرورة بتعدده في الشرق والغرب ، ثم انسلخ عن معناه الأصلي وبقي رمزا ظاهريا تقديسيا ليس من أوضاع الإسلام في شيء .

فيوم ألغى الأتراك الخلافة ـ ولسنا نبرر كل أعمالهم ـ لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامي وإنما ألغوا نظاما حكوميا خاصا بهم وأزالوا رمزا خياليا فتن به المسلمون لغير جدوى . وحاربتهم من أجله الدول الغربية المتعصبة والمتخوفة من شبح الإسلام .

علمت الدول الغربية المستعمرة فتنة المسلمين باسم «خليفة» فأرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة أصيبت فيها كلها بالفشل . ليس عجيبا من تلك الدول أن تحاول ما حاولت وغاياتها معروفة ومقاصدها بينة . وإنما العجب أن يندفع المسلمون وعلى رأسهم أمراء وعلماء منهم ، ومن هذا الاندفاع ما يتحدث

---

(١) كتاب آثار ابن باديس ، جـ١ مجلد ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١٢ .

به فى مصر فتردد صداه الصحف فى الشرق والغرب وتهتم له صحافة الانكليز على الخصوص ، يتحدثون فى مصر وفى الأزهر عن الخلافة كأنهم لا يرون المعاقل الانكليزية الضاربة فى ديارهم ولا يشاهدون دور الخمور والفجور المعترف بها فى قانونهم .

كفى غرورا وانخداعا . إن الأمم الإسلامية اليوم ـ حتى المستعبدة منها ـ أصبحت لا تخدعها هذه التهاويل ولو جاءتها من تحت الجبب والعمائـم .

للمسلمين ـ مثلما لغيرهم من الأمم ـ ناحيتان : ناحية سياسية دولية وناحية اجتماعية . فأما الناحية السياسية الدولية فهذه من شأن أممهم المستقلة ولا حديث لنا عليها اليوم . وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهى التى يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه فى الحياة فى أى بقعة من الأرض كان . ومع أى أمة عاش وتحت أى سلطة وجد ، وليست هذه الناحية الإنسانية المحضة دون الناحية الأولى فى مظهر الإسلام ولا دونها فى الحاجة إلى الحفظ والنظام لأجل خير المسلمين على الخصوص وخير البشرية العام ..

إن الأمم الكاثوليكية ـ مثلا ـ على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها وأنظارها فيها ، ترجع فى ناحيتها الأدبية الدينية إلى مركز أعلى هو بابا روما المقدس الشخص والقول فى نظر جميعهم .

نعم ليس لنا ـ والحمد لله ـ فى الإسلام بعد محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ شخص مقدس الذات والقول تدعى له العصمة . ويعتبر قوله تنزيلا من حكيم حميد . ولكن لنا جماعة المسلمين . وهم أهل العلم والخبرة الذين

من أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات ، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها .

لقد كنت كاتبت صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى ولكننى لم أتلق منه جوابا ، وعرفت السبب يوم بلغنا أن إخواننا الأزهريين هتفوا ـ يوما ـ بالخلافة للملك مصر فاروق الأول .

وسيرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، أن خيال الخلافة لن يتحقق وأن المسلمين سينتهون يوما ما ـ إن شاء الله ـ إلى هذا الرأى .

ـ ٤ ـ

حسن البـــنا

(١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م)

(أ) موقف الإخوان المسلمين من الوحدة القومية والعربية والإسلامية .

(ب) الإخوان المسلمون والخلافة .

(أ) موقف الأخوان المسلمين من الوحدة القومية والعربية والإسلامية[1]

كثيراً ماتتوزع أفكار الناس فى هذه النواحى الثلاث : الوحدة القومية[2] ، والوحدة العربية ، والوحدة الإسلامية ، وقد يضيفون إلى ذلك الوحدة الشرقية ، ثم تنطلق الألسنة والأفكار بالموازنة بينها وإمكان تحققها أو صعوبة ذلك الإمكان ، ومبلغ الفائدة أو الضرر منها ، والتشيع لبعضها دون البعض الآخر . فما موقف الإخوان المسلمين من هذا الخليط من الأفكار والمناحى ؟ ولا سيما وكثير من الناس يغمزون الإخوان المسلمين فى وطنيتهم ويعتبرون تمسكهم بالفكرة الإسلامية مانعا إياهم من الإخلاص للناحية الوطنية ، والجواب على هذا أننا لن نحيد عن القاعدة التى وضعناها أساسا لفكرتنا ، وهى السير على هدى الإسلام وضوء تعاليمه السامية ـ **فما موقف الإسلام نفسه من هذه النواحى ؟**

إن الإسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها أن يعمل كل إنسان لخير

---

(١) من « رسالة المؤتمر الخامس » ص ٤٥ ـ ٤٩ طبعة القاهرة ـ دار الاعتصام سنة ١٩٧٧م .

(٢) أى الوطنية .. والأستاذ البنا يتحدث وفى ذهنه مصر .

بلده وأن يتفانى فى خدمته ، وأن يقدم أكبر ما يستطيع من الخير للأمة التى يعيش فيها ، وأن يقدم فى ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا ، حتى إنه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر إلا لضرورة إيثارا للأقربين بالمعروف فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التى هو عليها وأن يخدم الوطن الذى نشأ فيه ، ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية وأعظمهم نفعا لمواطنيه ، لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين ، وكان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصا على خير وطنهم ، وتفانيا فى خدمة قومهم ، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة[1] المجيدة كل عزة ومجد وكل تقدم ورقى ، وكل فلاح ونجاح وقد انتهت إليها رياسة الأمم الإسلامية بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم ، وان حب المدينة لم يمنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحن إلى مكة وأن يقول لأصيل ، وقد أخذ يصفها : يا أصيل دع القلوب تقر ، وأن يجعل بلالا يهتف من قرارة نفسه :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى أذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل ؟[2]

فالإخوان المسلمون يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار ، ولا يجدون غضاضة على أى إنسان أن يخلص لبلده ، وأن يفنى فى سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار . هذا من وجهة القومية الخاصة .

---

(١) أى مصر .

(٢) أذخر وجليل ومجنة وشامة وطفيل : معالم بمكة المكرمة .

ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيا ووصل إلى الأمم عن طريق العرب وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين ، وقد جاء فى الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام ، وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم . فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه ـ وأحب هنا أن ننبه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة كما عرفها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ : « ألا إن العربية اللسان ألا إن العربية اللسان » . ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ـ ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . وهذا موقف الاخوان المسلمين من الوحدة العربية .

بقى علينا أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية ـ والحق أن الإسلام كما هو عقيدة وعبادة . هو وطن وجنسية . وأنه قد قضى على الفوارق النسبية بين الناس ، فالله تبارك وتعالى يقول : « إنما المؤمنون إخوة »[1] والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول « المسلم أخو المسلم » ، « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية ، ويعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الإسلامى وطنا واحدا مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده ، وكذلك الإخوان المسلمون

---

(١) الحجرات : ١٠ .

يقدسون هذه الوحدة ويؤمنون بهذه الجامعة ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام ، ينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وما أروع ما قال فى هذا المعنى شاعر من شعراء الإخوان :

ولست أدرى سوى الإسلام لى وطنا   الشام فيه ووادى النيل سيان
وكلما ذكر اسم الله فى بلد   عددت أرجاءه من لب أوطانى

يقول بعض الناس : إن ذلك يناقض تيار الفكرة السائدة فى العالم ، فكرة التعصب للأجناس والألوان ، والعالم الآن تجرفه موجة القوميات الجنسية[1] ، فكيف تقفون أمام هذا التيار؟ وكيف تخرجون على ما اتفق عليه الناس؟ وجواب ذلك أن الناس مخطئون وأن نتائج خطئهم فى ذلك ظاهرة ملموسة فى إقلاق راحة الأمم وتعذيب ضمائر الشعوب مما لا يحتاج إلى برهان . وليست مهمة الطبيب أن يجارى المرضى . ولكن أن يعالجهم وأن يهديهم سواء السبيل وتلك مهمة الإسلام ومن وصل بدعوته بالإسلام .

ويقول آخرون : إن ذلك غير ممكن ، والعمل له عبث لا طائل تحته ومجهود لا فائدة منه ، وخير للذين يعملون لهذه الجامعة أن يعملوا لأقوامهم ويخدموا أوطانهم الخاصة بجهودهم ـ والجواب على هذا : إن هذه لغة الضعف والاستكانة ـ فقد كانت هذه الأمم مفرقة من قبل ، متخالفة فى كل شيء : فى الدين ، واللغة ، والمشاعر ، والآمال ، فوحدها الإسلام وجمع قلوبها على

---

(١) أى القوميات العرقية .

كلمة سواء ، ومازال الإسلام كما هو بحدوده وبرسومه ، فإذا وجد من أبنائه من ينهض بعبء الدعوة إليه وتجديده فى نفوس المسلمين فإنه يجمع هذه الأمم جميعا من جديد كما جمعها من قديم ، والإعادة أهون من الابتداء والتجربة أصدق دليل على الإمكان .

يهتف بعض الناس بعد هذا بالوحدة الشرقية ، وأظن أنه لم يثر هذه النعرة فى نفوس الهاتفين بها إلا تعصب الغربيين لغربهم وسوء عقيدتهم فى الشرق وأبنائه ، وهم فى ذلك مخطئون ، وإذا استمر الغربيون على عقيدتهم هذه فستجر عليهم الوبال والنكال ، والإخوان المسلمون لا ينظرون إلى الوحدة الشرقية إلا من خلال هذه العاطفة فقط ، والشرق والغرب عندهم سيان إذا استوى موقفهما من الإسلام ، وهم لا يزنون الناس إلا بهذا الميزان .

وضح إذن أن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولا يرون بأسا بأن يعمل كل إنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على سواه ، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام ـ ولى أن أقول ، بعد هذا : إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله فهم ينادون بالوحدة العالمية لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[1] .

وأنا فى غنى بعد هذا البيان عن أن أقول إنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار ، وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها ، فإذا أراد

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

أقوام أن يتخذوا من المناداة القومية الخاصة سلاحا يميت الشعور بما عداها فالإخوان المسلمون ليسوا معهم ، ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس .

(ب) ـ الإخوان المسلمون والخلافة [1]

ولعل من تمام هذا البحث أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من الخلافة وما يتصل بها ، وبيان ذلك : **أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية ، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام ، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير فى أمرها والاهتمام بشأنها ، والخليفة مناط كثير من الأحكام فى دين الله . ولهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر فى شأنها على النظر فى تجهيز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفنه حتى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها .**

والأحاديث التى وردت فى وجوب نصب الإمام وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها لا تدع مجالا للشك فى أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير فى أمر خلافتهم منذ حورت عن مناهجها ثم ألغيت إلى الآن ـ والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها فى رأس مناهجهم ، وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التى لابد منها ، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات : لابد من تعاون تام ثقافى واجتماعى واقتصادى بين الشعوب الإسلامية كلها ، يلى ذلك تكون الأحلاف والمعاهدات وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد

---

(١) من « رسالة المؤتمر الخامس » ص ٤٩ ، ٥٠

وإن المؤتمر البرلمانى الإسلامى لقضية فلسطين[1] ودعوة وفود الممالك الإسلامية إلى لندن للمناداة بحقوق العرب فى الأرض المباركة[2] لظاهرتان طيبتان وخطوتان واسعتان فى هذا السبيل ـ ثم يلى ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية ، حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين كان عنه الإجماع على « الإمام » الذى هو واسطة العقد ، ومجمع الشمل ، ومهوى الأفئدة وظل الله فى الأرض .

---

(١) انعقد بالقاهرة فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٨م .

(٢) الإشارة إلى مؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد بلندن فى ٧ فبراير سنة ١٩٣٩م .

ـ ٥ ـ

الإمـام الشـاطبى

أبـو إسـحاق إبراهيـم بن موسى بن محمد الشاطـبى

[٧٩٠ هـ ١٣٨٨ م]

● عروبة الشريعة . (١)

---

(١) [الموافقات] جـ ٢ ص ٤٤ ــ ٤٨ . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

١

إن هذه الشريعة المباركة عربية . لا مدخل فيها للألسن الأعجمية وهذا وإن كان مبينا فى أصول الفقه ، وأن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية ـ عند جماعة من الأصوليين ـ أو فيه ألفاظ أعجمية تكلمت بها العرب وجاء القرآن على وفق ذلك فوقع فيه المعرّب الذى ليس من أصل كلامها ، فإن هذا المبحث ، على هذا الوجه ، غير مقصود هنا ، وإنما البحث المقصود هنا أن **القرآن نزل بلسان العرب على الجملة ، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة** . لأن الله تعالى يقول : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا »[١] وقال : « بلسان عربى مبين »[٢] وقال : « لو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى »[٣] ، إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربى وبلسان العرب لا أنه أعجمى ولا بلسان العجم ، **فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة** . وهذا هو المقصود من المسألة .

---

(١) يوسف : ٢ .

(٢) الشعراء : ١٩٥ .

(٣) فصلت : ٤٤ .

وأما كونه جاءت فيه ألفاظ من ألفاظ العجم أو يجيء فيه شيء من ذلك فلا يحتاج إليه إذا كانت العرب قد تكلمت به . وجرى فى خطابها وفهمت معناه . فإن العرب إذا تكلمت به صار من كلامها . ألا ترى أنها لا تَدَعُه على لفظه الذى كان عليه عند العجم إلا إذا كانت حروفه فى المخارج والصفات كحروف العرب . وهذا يقل وجوده . وعند ذلك يكون منسوبا إلى العرب . فأما إذا لم تكن حروفه كحروف العرب . أو كان بعضها كذلك دون بعض . فلا بدلها من أن تردّها إلى حروفها . ولا تقبلها على مطابقة حروف العجم أصلا . ومن أوزان الكلم ما تتركه على حاله فى كلام العجم . ومنها ما تتصرف فيه بالتغيير كما تتصرف فى كلامها . وإذا فعلت ذلك صارت تلك الكلم مضمومة إلى كلامها . كالألفاظ المرتجلة والأوزان المبتدأة لها . هذا معلوم عند أهل العربية لا نزاع فيه ولا إشكال .....

فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب . وإنه عربى . وإنه لاعجمة فيه فبمعنى أنه نزل على لسان معهود العرب فى ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره . وبالعام يراد به العام فى وجه . والخاص فى وجه . وبالعام يراد به الخاص . وظاهر ويراد به غير الظاهر . وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره . وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره أو آخره عن أوله . وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة . وتسمى الشيء الواحد بأسماء كثيرة والأشياء الكثيرة باسم واحد . وكل هذا معروف عندها لا ترتاب فى شيء منه هى ولا من تعلق بعلم كلامها . فإذا كان كذلك فالقرآن فى معانيه وأساليبه على هذا الترتيب . فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب . كذلك لا يمكن

أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم ، **لاختلاف الأوضاع والأساليب** ، والذى نبه على هذا المأخذ فى المسألة هو الشافعى الإمام فى رسالته الموضوعة فى أصول الفقه ، وكثير ممن أتى بعده لم يأخذها هذا المأخذ ، فيجب التنبيه لذلك ، وبالله التوفيق .

٢

للغة العربية ، من حيث هى ألفاظ دالة على معان نظران :

أحدهما : من جهة كونها ألفاظا وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة وهى الدلالة الأصلية .

والثانى : من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة وهى الدلالة التابعة .

فالجهة الأولى هى التى يشترك فيها جميع الألسنة ، وإليها تنتهى مقاصد المتكلمين ، ولا تختص بأمة دون أخرى ، فإنه إذا حصل فى الوجود فعل لزيد مثلا كالقيام ، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام تأتىّ له ما أراد من غير كلفة ، ومن هذه الجهة يمكن فى لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل اللغة العربية وحكاية كلامهم ، ويتأتى فى لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها ، وهذا لا إشكال فيه .

وأما الجهة الثانية فهى التى يختص بها لسان العرب فى تلك الحكاية وذلك الإخبار ، فإن كل خبر يقتضى فى هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار فى الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك ، وذلك أنك تقول فى ابتداء الإخبار : «قام زيد» إن لم تكن ثم عناية بالمخبر عنه بل بالخبر ، فإن كانت العناية بالمخبر عنه قلت : «زيد قام» ، وفى جواب السؤال أو ما هو منزل تلك المنزلة «إن زيدا قام» ، وفى جواب المنكر لقيامه : «والله إن زيدا قام» ، وفى التنكيت على من ينكر : «إنما قام زيد» ، ثم يتنوع أيضا بحسب تعظيمه أو تحقيره ، أعنى المخبر عنه ، وبحسب الكناية عنه والتصريح به ، وبحسب مايقصد فى مساق الإخبار وما يعطيه مقتضى الحال ، إلى غير ذلك من الأمور التى لا يمكن حصرها ، وجميع ذلك دائر حول الإخبار بالقيام عن زيد ، فمثل هذه التصرفات التى يختلف معنى الكلام الواحد بحسبها ليست هى المقصود الأصلى ، ولكنها من مكملاته ومتمماته ، وبطول الباع فى هذا النوع يحسن مساق الكلام إذا لم يكن فيه منكر ، وبهذا النوع الثانى اختلفت العبارات ، وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتى مساق القصة فى بعض السور على وجه ، وفى بعضها على وجه آخر ، وفى ثالثة على وجه ثالث ، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات لا بحسب النوع الأول إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل فى بعض ونص عليه فى بعض ، وذلك أيضا لوجه اقتضاه الحال والوقت «وما كان ربك نسيا»[1] .

---

(١) مريم : ٦٤ .

وإذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبر هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام العجم على حال ، فضلا عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسان غير عربى إلا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عينا ، كما إذا استوى اللسانان فى استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه ، فإذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول إليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر ، وإثبات مثل هذا بوجه بيّن عسير جدا ، وربما أشار إلى شىء من ذلك أهل المنطق من القدماء ومن حذا حذوهم من المتأخرين ، ولكنه غير كاف ولا مغن فى هذا المقام ، وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة فى القرآن ، يعنى على هذا الوجه الثانى ، فأما على الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة ومن ليس [لهم] [1] فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى .

* * *

ولابد فى فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين [2] ، وهم العرب الذين **نزل القرآن بلسانهم ، فإن كان للعرب فى لسانهم عُرْف مستمر فلا يصح العدول عنه فى فهم الشريعة ، وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجرى فى فهمها على ما لا تعرفه ، وهذا جار فى المعانى والألفاظ والأساليب** .... [3]

---

(١) غير موجودة بالأصل .

(٢) [الموافقات] جـ٢ ص ٥٦ .

(٣) [الموافقات] جـ٢ ص ٦٧ .

والاستدلال بالشريعة على الأحكام إنما هو من جهة كونها بلسان العرب لا من جهة كونها كلاما فقط ......

٣

إن الله . عز وجل . أنزل القرآن عربيا لا عجمة فيه[١] . بمعنى أنه جار فى ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب ، قال الله تعالى : «إنا جعلناه قرآنا عربيا»[٢] وقال تعالى : «قرآنا عربيا غير ذى عوج»[٣] وقال تعالى : «نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين»[٤] .

وكان المنزل عليه القرآن عربيا أفصح من نطق بالضاد ، وهو محمد بن عبد الله ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان الذين بعث فيهم عربا أيضا ، فجرى الخطاب به على معتادهم فى لسانهم ، فليس فيه شىء من الألفاظ والمعانى إلا وهو جار على ما اعتادوه ، ولم يداخله شىء ، بل نفى عنه أن يكون فيه شىء أعجمى فقال تعالى : «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذى

---

(١) الشاطبى [الاعتصام] جـ٢ ص٢٩٣ ، ٢٩٤ . طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ ـ بتعليق وتحقيق الشيخ محمد رشيد رضا .
(٢) الزخرف : ٣ .
(٣) الزمر : ٢٨ .
(٤) الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥ .

يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين»[1] ، وقال تعالى ، فى موضع آخر : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته »[2] ؟

هذا وإن كان بعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة فى هذا الأمر تبعا للسان العرب ، وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذى نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها .

أما ألفاظها فظاهرة للعيان ، وأما معانيها وأساليبها فكان مما يعرف من معانيها اتساع لسانها ، وأن تخاطب بالشىء منه عاما ظاهرا يراد به الظاهر . ويستغنى بأوله عن آخره ، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص ، ويستدل على هذا ببعض الكلام ، وعاما ظاهرا يراد به الخاص ، وظاهرا يعرف فى سياقه أن المراد به غير ذلك الظاهر . والعلم بهذا كله موجود فى (أول) الكلام أو وسطه أو آخره .

وتبتدئ الشىء من كلامها بين أول اللفظ فيه عن آخره ، أو بين آخره عن أوله ، ويتكلم بالشىء تعرفه بالمعنى دون اللفظ ، كما تعرف بالإشارة ، وهذا عندها من أفصح كلامها ، لانفرادها بعلمه دون غيرها ممن يجهله ، وتسمى الشىء الواحد بالأسماء الكثيرة ، وتوقع اللفظ الواحد للمعانى الكثيرة .

فهذه كلها معروفة (عندها) وتستنكر غيرها ، إلى غير ذلك من التصرفات التى يعرفها من زاول كلامهم وكانت له به معرفة وثبت رسوخه فى علم ذلك ....

---

(١) النحل : ١٠٣ .

(٢) فصلت : ٤٤ .

فإذا ثبت هذا فعلى الناظر فى الشريعة والمتكلم فيها ـ أصولا وفروعا أمران[1] :

(أحدهما) : ألا يتكلم فى شىء من ذلك حتى يكون عربيا ، أو كالعربى فى كونه عارفا بلسان العرب ، بالغا فيه مبالغ العرب ، أو مبالغ الأئمة المتقدمين ، كالخليل وسيبويه والكسائى والفراء ومن أشبههم وداناهم وليس المراد أن يكون حافظا كحفظهم وجامعا كجمعهم ، وإنما المراد أن يصير فهمه عربيا فى الجملة . وبذلك امتاز المتقدمون من علماء العربية عن المتأخرين ، إذ بهذا المعنى أخذوا أنفسهم حتى صاروا أئمة ، فإن لم يبلغ ذلك فحسبه فى فهم معانى القرآن التقليد ، ولا يحسن ظنه بفهمه دون أن يسأل فيه أهل العلم به .

قال الشافعى ــ لما قرر معنى ما تقدم ــ : « فمن جهل هذا من لسانها ــ « يعنى لسان العرب » ــ وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة ــ فتكلف القول فى علمها ، تكلف ما يجهل بعضه ، ومن تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب ــ إن وافقه ــ غير محمودة والله أعلم ، وكان بخطئه غير معذور إذا نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه . »

وما قاله حق ، فإن القول فى القرآن والسنة بغير علم تكلّف ــ وقد نهينا عن التكلف ــ ودخول تحت معنى الحديث ، حيث قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : «حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا » ــ الحديث ــ[2] **لأنهم إذا لم يكن لهم لسان عربى يرجعون إليه فى كتاب الله وسنة نبيه رجع إلى**

---

(١) [الاعتصام] جـ ٢ ص ٢٩٧ ــ ٣٠١ .

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وابن حنبل .

فهمه الأعجمى وعقله المجرد عن التمسك بدليل يضل عن الجادة .

وقد خرّج ابن وهب عن الحسن أنه قيل له : أرأيت الرجل يتعلم العربية ليقيم بها لسانه ، ويصلح بها منطقه ؟ قال : نعم ! فليتعلمها ، **فإن الرجل يقرأ فيعيا بوجهها فيهلك !** .

وعن الحسن قال : أهلكتهم العجمة . يتأولون على غير تأويله .

(**والأمر الثانى**) : أنه إذا أشكل عليه فى الكتاب أو فى السنة لفظ أو معنى فلا يقدم على القول فيه دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية . فقد يكون إماما فيها ، ولكنه يخفى عليه الأمر فى بعض الأوقات . فالأولى فى حقه الاحتياط ، إذ قد يذهب على العربى المحض بعض المعانى الخاصة حتى يسأل عنها .. وقد نقل من هذا .. عن الصحابة ــ وهم العرب ــ فكيف بغيرهم .

نقل عن ابن عباس ، ــ رضى الله عنهما ــ ، أنه قال : كنت لا أدرى ما « فاطر السموات والأرض » ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى أنا ابتدأتها .

وفيما يروى عن عمر ، ــ رضى الله عنه ــ . أنه سأل ، وهو على المنبر ، عن معنى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف »[1] ، فأخبره رجل من هذيل أن التخوف عندهم هو التنقص . وأشباه ذلك كثيرة .

قال الشافعى : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا » .

---

(١) النحل : ٤٧ .

قال[1] : «ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه .. والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل العلم ، لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء ، فإذا جمع (علم) عامة أهل العلم بها أتى على السنن ، وإذا فرق كل واحد منهم ذهب عليه شيء منها ، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره ممن كان فى طبقته وأهل علمه .. **وهكذا لسان العرب ، عند خاصتها وعامتها لا يذهب منه شيء عليها ، ولا يطلب عند غيرها ، ولا يعلمه إلا من نقله عنها ، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها فى تعلمه منها ، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها ، وإنما صار غيرهم من غير أهله لتركه ، فإذا صار إليه صار من أهله»** .

هذا ما قال . ولا يخالف فيه أحد . فإن كان الأمر على هذا **لزم كل من أراد أن ينظر فى الكتاب والسنة أن يتعلم الكلام الذى به أُدِّيَتْ** ، وألا يحسن ظنه بنفسه فى المسائل المشكلة التى لم يحط بها علمه دون أن يسأل عنها من هو من أهلها ، فإن ثبت على هذه الوصاة كان ـ إن شاء الله ـ موافقا لما كان عليه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه الكرام .....

... والصحابة . رضوان الله عليهم .... عرب[2] . لم يحتاجوا فى فهم كلام الله تعالى إلى أدوات ولا تعلّم ، ثم من جاء بعدهم ممن ليس بعربى اللسان تكلف ذلك حتى علمه ، وحينئذ داخل القوم فى فهم الشريعة وتنزيلها على

---

(١) أى الشافعى .

(٢) [الاعتصام] جـ ٢ ص ٣٠٤ .

ما ينبغي فيها ، كسلمان الفارسي وغيره ، فكل من اقتدى بهم فى تنزيل الكتاب والسنة على العربية ــ إن أراد أن يكون من أهل الاجتهاد ــ فهو ــ إن شاء الله ــ داخل فى سوادهم الأعظم ، كائن على ماكانوا عليه ، فانتظم فى سلك الناجية .

المصادر

ابن أبي الحديد : [شرح نهج البلاغة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

ابن الأثير : [الكامل فى التاريخ] طبعة القاهرة .

: [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] طبعة دار الشعب . القاهرة .

ابن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

ابن حنبل : [المسند] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

ابن خلدون : [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

ابن عبد ربه : [العقد الفريد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

ابن عساكر : [تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق .

ابن ماجة : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف . القاهرة .

أبو داود : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

أبو يوسف : [كتاب الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

الأفغانى : [الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

البخارى : [الصحيح] طبعة دار الشعب . القاهرة .

الترمذى : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

التهانوى : [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
الجاحظ : [رسائل الجاحظ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
الجرجانى : [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
جورج أنطونيوس : [يقظة العرب] طبعة دمشق سنة ١٩٤٦ م .
حسن البنا : [مجموعة رسائل الإمام الشهيد] طبعة دار الشهاب . القاهرة .
: [رسالة المؤتمر الخامس] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
الدارمى : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
الدجانى ـ أحمد صدق (دكتور) : [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
الرافعى ـ عبد الرحمن : [عصر محمد على] طبعة القاهرة سنة ١٩٥١ م .
زكريا سليمان بيومى (دكتور) : [الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية فى الحياة السياسية المصرية ١٩٢٩ ـ ١٩٤٨] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
الزهراوى (عبد الحميد) : [المؤتمر العربى الأول] ـ وثائق ـ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م .
سعيد حوى : [الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
: [من أجل خطوة إلى الإمام على طريق الجهاد المبارك] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
سيد قطب : [معالم فى الطريق] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
الشاطبى : [الموافقات] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
: [الاعتصام] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ .

الطبرى : [التاريخ] طبعة دار المعارف . القاهرة .

الطهطاوى (رفاعة) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

عبد الصاحب الدجلى : [الشعوبية] طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م .

عبود الزمر : صحيفة [النور] العدد ١٥٥ فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٨٥ م .

العريسى (عبد الغنى) : [المؤتمر العربى الأول]ـ وثائق ـ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م .

عمر بن الخطاب : [خطب عمر بن الخطاب ووصاياه] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

الكواكبى : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

لوثروب ستودارد : [حاضر العالم الإسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

لويس عوض (دكتور) : مجلة [السياسة الدولية] ـ القاهرة ـ عددى يوليو وأكتوبر سنة ١٩٧٨ م .

مجمع اللغة العربية : [المعجم الوسيط] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

محمد رشاد خليل (دكتور) : مجلة [الدعوة] عددى جمادى الأولى وربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ .

محمد عبده (الإمام) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد عمارة (دكتور) : [فجر اليقظة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

: [العروبة فى العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

: [الأمة العربية وقضية التوحيد] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

: [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
: [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .
: [موقع الوهابية من حركة التجديد] ـ دراسة ـ مجلة [الموقف العربى] عدد أكتوبر سنة ١٩٧٩ م .
: [الحزب الوطنى الحر] ـ دراسة ـ [مجلة الإذاعة والتليفزيون] عدد ١٥ مايو سنة ١٩٧١ م .
: [المعتزلة وأصول الحكم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

محمد فؤاد عبد الباقى : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .

مسلم : [الصحيح] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

المقريزى : [الخطط] طبعة دار التحرير . القاهرة .

المكاشفى طه الكباشى (دكتور) وقائع جلسة محكمة أم درمان ـ السودان ـ رقم ١ ـ بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٨٥ م .

المهدى (محمد أحمد) : [منشورات المهدية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .

المودودى (أبو الأعلى) : [نظرية الإسلام السياسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
: [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
: [الإسلام والمدنية الحديثة] طبعة القاهرة سنه ١٩٧٨ م .

الندوى (أبو الحسن) : [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين] طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ م .

النسائى : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

النويرى : [نهاية الأرب] طبعة دار الكتب المصرية .

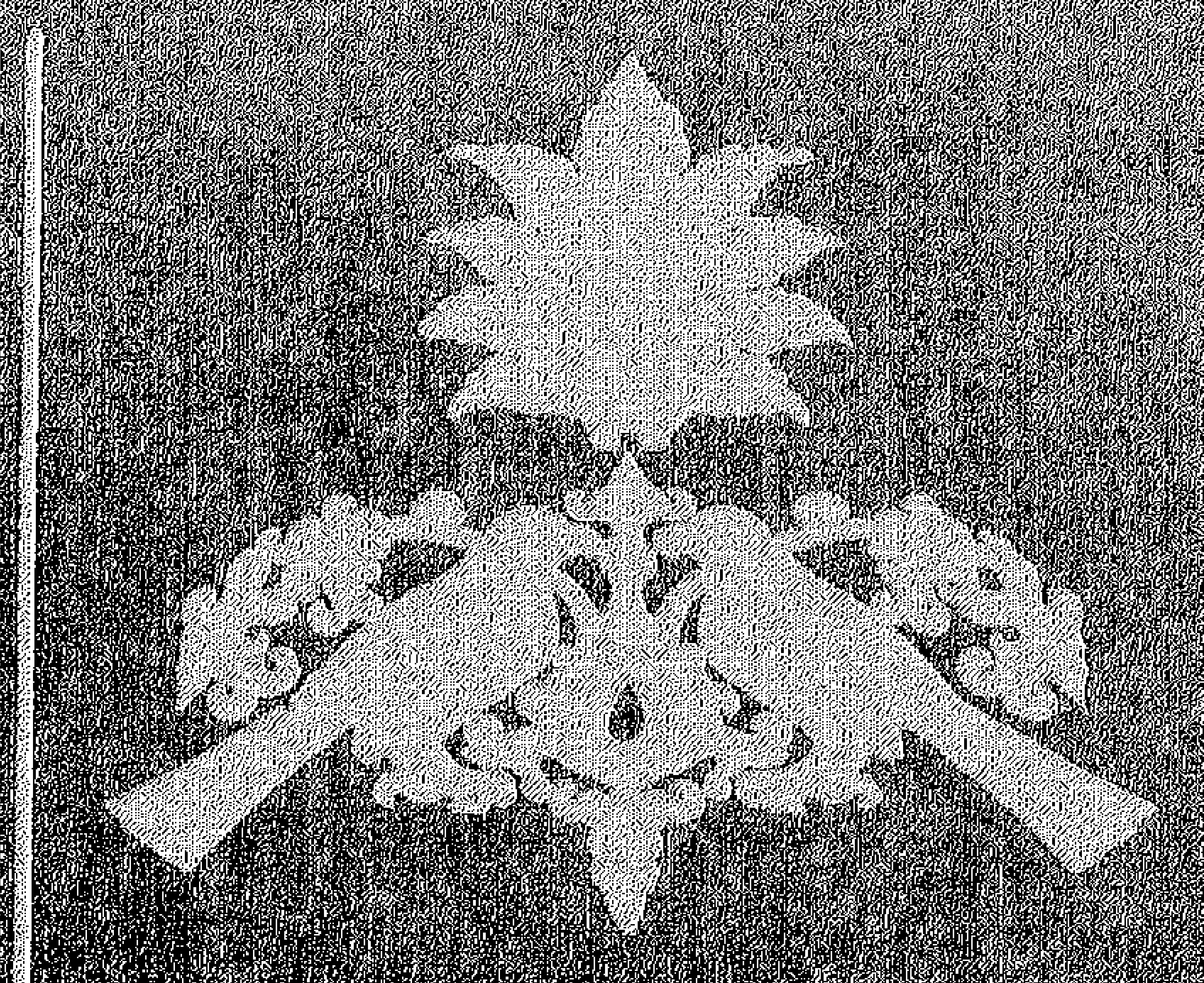
وينسنك (أ . ى) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م .

رقم الايداع ٨٨٤٠ ٨٧
الترقيم الدولى ٣ ـ ١٦٧ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

الغلاف للفنان حلمي التوني



الإسلام والعروبة

... إنه خطر «قديم - جديد» ؟ ! ..

● فإذا رفعت أمتنا شعار «الجامعة الإسلامية»، واجهها أعداؤها بـ «القومية - العلمانية»، التي تتنكر للإسلام ! ..

● وإذا سلكنا سبيل «العروبة»، لنصل به إلى «الدائرة الإسلامية»، ارتفعت الأصوات التي تضرب «العروبة» بـ «الإسلام» ! ..

... صنع الأعداء ذلك - مباشرة .. أو بالوسطاء - الحمقى منهم، والمتآمرين - ؟ ! ..

● لقد واجهوا «المشروع العربي» لمحمد علي باشا، بـ «المشروع الإسلامي العثماني» .. وضربوا «الخلافة الإسلامية» بـ «الثورة العربية» .. وصولا إلى التهام وطن العروبة وعالم الإسلام ؟ ! ..

... وحتى لا نظل أسرى هذا المخطط الذي يمزق «قوى الأصالة» إلى

(أ) عروبيين يديرون ظهرهم للإسلام ..

(ب) وإسلاميين ينفرون من العروبة .. ؟

لابد وأن نسأل إسلامنا وعروبتنا عن حقيقة العلاقة بين «العروبة» و «الإسلام» ؟ ! ، وتلك هي المهمة التي يصدر من أجلها هذا الكتاب .

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - ت : ٧٧٤٥٧٨ / ٧٧٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - ت : ٣١٥٨٥٩ / ٨١٧٢١٣